ضياء
t.me/twinkling4

رواية
تاريخية

إتش . دي . فيرستاكبول

مكائد القصور

تقديم ومراجعة
خالد سليمان

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

الكتاب: مكائد القصُور (رواية تاريخية)
الكاتب: إتش . دي . فيرستاكيول
تقديم ومراجعة : خالد سليمان
الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

فيرستاكيول ، إتش . دي .
مكائد القصُور / إتش . دي . فيرستاكيول ، تقديم ومراجعة: خالد سليمان
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٤٨ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٤ – ٥٨١ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٦١٦٩ / ٢٠٢٢

مكتبة ضاد
t.me/twinkling4

تقديم

يرجع تاريخ الرواية الحديثة إلى القرن الثامن عشر وقد بدأت بما كتبه كل من دانيل ديفو وصمويل ريتشاردسون، وفي إنجلتر ظهرت في أوائل القرن السابع عشر شخصية سير روجر دي كوفرلي والتي ابتكرها أديسون وستيل و كثيرا ما اعتبرت رواية أورونوكو لافراين من أوائل الروايات في الأدب الإنجليزي.

ومن المؤلفات الإنجليزية الكبرى التي سبقت ظهور الرواية في الأدب الإنجليزي رحلات جليفر لجوناثان سويفت و التي ظهرت عام 1719 و روبنسون كروز لدانيل ديفو والتي ظهرت عام 1719 و هناك رواية جوزيف أندروز والتي ظهرت عام 1742 وظهرت في القرن التاسع عشر الرواية التاريخية عند والتر سكوت والرواية التي تعالج سلوك الناس وطباعهم عند جين أوستن و الرواية التي تتخذ موضوعها من المسائل السياسية عند كل من وليم جودوين وبنيامين دزرائيلي و الرواية العاطفية عند الأختين شارلوت و أميلي برونتي وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهرت الرواية التي يغلب عليها الطابع الواقعي عند جورج مريديث و توماس هاردي.. وهكذا تنوعت موضوعات الروايات وتفرعت، وكثرت الأسماء ورسخت وهناك أسماء تعرضت للنسيان، وأسماء مازالت تقاوم لتبقى في الذاكرة.

ومن هذه الأسماء الروائي الإنجليزي الشهير إتش دي فيرستاكبول، وقد اشتهر بروايته «البحيرة الزرقاء» وقد كتبها على غرار الرواية الشهيرة روبنسون كروزو، ومن أشهر رواياته أيضا « مكائد القصُور» التي منحها عنوانا فرعيا يلخص مضمونها وهو « رواية تاريخية حافلة بالمغامرات»، فهي رواية تاريخية بمعنى أن موضوعها يعود إلى التاريخ، فهي تعالج بعض جوانب الصراع على السلطة والنفوذ الذي اشتد في بلاط الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، والرواية حافلة بالمغامرات كعهد الرواية في ذلك العصر على نحو ما نجد في روايات أخرى مثل «الفرسان الثلاثة» للروائي الفرنسي الشهير ألكسندر دوماس الأب.

ومثل هذا النوع من الروايات كان ينطلق في تعامله مع التاريخ من منطلق رومانسي، فنحن إذا أمام رواية رومانسية تعالج بعض أحداثها موضوع الحب، وهذه الرواية ملأى بالمغامرات والأحداث المثيرة، وهي تعتمد في أحداثها على وقائع تاريخية حدثت في عهد الملك الفرنسي لويس الرابع عشر.

رومانسية التاريخ

وكان عالم الرواية في عصر ما قبل فيرستاكبول عالماً من الوهم ، فلا شئ في الحقيقة فيه وكان للرواية سحرها، ولكنه سحر المخيلة الحرة في إبعاد الحقيقة عن الواقع كما قال الكاتب الفرنسي البير يس في كتابه «تاريخ الرواية

الحديث « وذلك أثناء الفترة التي كانت فيها الكلاسيكية هي المهيمنة والتي كانت تدعو إلى المحاكة والسير على القواعد التي وضعها الأولون ، وكان المفهوم السائد هو أن العقل هو أساس الجمال، وهو الذي يجب يحكم جميع القواعد الفنية والأدبية بحيث يكون الأدب عند الكلاسيكيين خلقيا في غايته مهمته إصلاح المجتمع وتلقينه الفضائل الدينية والإجتماعية.

وكان جمهور الكلاسيكية بصفة عامة هم الطبقات الراقية البعية عن مشاكل الطبقات الدنيا وهمومها. وكان كتاب الرواية يسيرون على نهج كلاسيكي صارم وانتشرت الروايات الخرافية وروايات المغامرات والروايات الأخلاقية التيتميل إلى الوعظ والإرشاد والقصص السردية التي تفتقد إلى الخيال.

وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر قامت الرومانتيكية على الفلسفة التي تمثل في التيار العاطفي، وتجلى في أدب الرومانتيكيين الإعتداد بالفرد وحقوقه تجاه المجتمع مما استلزم قيام التعاون بين الفرد والمجتمع يقصد فيه الحد من حقوق الطبقات الأرستقراطية.

أما من الناحية الفنية فقد اخترعوا قوالب فنية جديدة تناسب أهدافهم ، وبفضل الرومانتيكيين نهض الشعر الغنائي لإعتدادهم بالفرد ومشاعره ولفهم الخيال على نحو

مخالف لفهم الكلاسيكيين ؛ فالخيال لديهم هو هو الذي يولد الصور ، والصور وسائل تجسيم المشاعر والأفكار وقد تأثر كثير من الكتاب بهذا الذهب وظهر في أعمالهم الأدبية واضحا ومنهم الفريد موسيه ولامرتين وفيكتور هيجو في فرنسا ، وفي الروايات الرومانتيكية نجد أن الشخصيات تنزع إلى السلبية والإنكسار والهروب من الواقع إما بالتخيل أو بالفعل، على نحو ما نجد في هذه الرواية.

وتحفل القصة الرومانسية التقليدية بالنبلاء والأمراء الذين غالبًا ما يكونون متنكرين، ويمر البطل بمغامرات درامية في ظروف غير عادية، وغالبًا ما يؤدي السِّحْر والظواهر الخارقة للطبيعة دورًا. على نحو ما نجد في هذه الرواية التي تتناول التاريخ بعاطفية تلائم النزعة الرومانسية سواء عند مؤلفها أو بالنسبة لذوق القراء في العصر الذي كتب فيه المؤلف روايته.

ويلاحظ أن الملك الفرنسي ليس من شخصيات الرواية رغم أن أحداثها تدور في بلاطه بقصر فرساي، وتبدو الرواية وكأنها عنه، فهي تحكي عن عصره دون أن يظهر بنفسه في أحداثها. وأعتقد أن القارىء بحاجة لأن يعرف نبذة يسيرة عن العصر الذي تدور فيه أحداث هذه الرواية المشحونة بالعاطفة وبالهم الاجتماعي التاريخي في نفس الوقت.

ملك الشمس

لويس الرابع عشر بلقب «ملك الشمس»، فهو صاحب أطول فترة حكم في تاريخ أوروبا لقب ملك فرنسا الذي استطاع انتشال مملكته من الانهيار والضياع وصعد بها لأعلى قمم النفوذ، بأن ضم إليها مناطق جديدة ، وقام ببناء أشهر قصور أوربا، «قصر فرساي» الذى جعله بمثابة سجن فاخر جميل لكل نبلاء فرنسا ليضمن ولائهم له.

وقد ولد في عام 1638، ووالده هو لويس الثالث عشر الملك الذى ظل لثلاث وعشرين عام بدون أطفال، لذا سمي عند التعميد لويس-ديودوني، والتي تعني هدية الإله، وأصبح ملكاً في عمر الخمس سنوات فقط بعد وفاة والده، إلا أنه لم يكن يملك السيطرة الفعلية على الحكم حتى توفي رئيس الوزراء "الكاردينال مازارين" في 1661, ليبدأ حكم لويس الرابع عشر الذى امتد حكمه لـ 72 عاما، , وهي أطول فترة من الحكم بين الملوك الأوروبيين.

وقد تعهده بالتربية والتنشئة الوزير مازاران، ففي الفترة الأولى من حكمه ، قامت الملكة الأم والكاردينال مازاران بتقوية النظام الملكي من خلال سياسات أغضبت النبلاء، فأدت إلى اشتعال الحرب الأهلية المعروفة باسم سعفة النحلة في عام 1648، وقد تمكن مازاران بدهائه ، بالإضافة للقوة التي استخدمها من قمع الثورة بعد خمس سنوات من التمرد. وقد ساهمت حرب "سعفة النحلة"

بشكلٍ كبيرٍ بتشكيل نظرة لويس لحياته المستقبلية، كونها أولى تجاربه، وبعد وفاة مازاران عام 1661، صرح الملك لويس الرابع عشر برغبته بحكم فرنسا دون الحاجة لوجود رئيس وزراء فقد كان يعتقد انه الممثل المباشر من قبل الرب.

واختار الشمس كشعار له باعتباره (ملك الشمس) الذي يدور حوله العالم بأسره، لذلك قرر إبعاد وزيره الأول والأمراء والشخصيات العامة في القصر عن مركز القرار، وألغى كثيراً من المؤسسات الإدارية ، وكانت حكومته الملكية مثقلة بالديون، لأن أحلامه التوسعية كانت تحتاج إلى المزيد من الأموال، إذ إن الحروب والإنفاق على مظاهر الترف أدّيا إلى ابتلاع كل ما كان يدخل الخزينة من أموال. وبالرغم من ذلك فإن فترة حكمه قام لويس ببدء عصرٍ ذهبي للفنون والآداب، وقام بنقل الأكاديمية الفرنسية لتصبح تحت رعايته. كما سمح للأدب الكلاسيكي الفرنسي بالازدهار من خلال حماية عددٍ من الكتّاب مثل موليير، راسين، وفونتاين، والذين لا تزال أعمالهم تحظى بسمعةٍ عالميةٍ إلى يومنا هذا، فقربهم إليه، وجعلهم من حاشيته. ولم يقتصر حبه على الأدب والشعر، بل كان شغوفاً بالرسم والنحت وكافة الفنون البصرية، ومن بين الرسامين الذين قربهم إليه، الرسام شارلز لو برون. وقام بتأسيس معاهد عدةً للعلوم والفنون. وشيد قصر فيرساي، أشهر بناءٍ في الفن الكلاسيكي

الفرنسي، ومن أشهر القصور الفرنسية التي تشهد على روعة العمارة الفرنسية وعراقتها، ولكن الحقيقة ان بناء لويس لهذا القصر لم يكن تباهي الحضارة الفرنسية فقط , بل كان خطة شيطانية للسيطرة على مقاليد الحكم بالكامل وتثبيت اركان حكمه الذى امتد أكثر من 70 عاما، فقد فرض على جميع رجال الدولة والنبلاء والطبقة الحاكمة الإقامة معه بالقصر بصفة دائمة وبذلك ضمن ولائهم وإنهم لن يستطيعوا التدبير عليه وهو يضعهم جميعاً في سجن عظيم فاخر هو قصر فيرساي.

توفي لويس الرابع عشر قبل أربعة أيامٍ من عيد ميلاده السابع والسبعين، في الأول من شهر سبتمبر عام 1715، نتيجة لغرغرينا اصابته , إذ كان يعانى من مرض يسبب له آلاما مبرحة فى ساقه اليسرى وقد خلفه في الحكم حفيده البالغ من العمر خمس سنوات، لويس الخامس عشر. فكل ورثته توفّوا قبله.

مكائد القصُور

كان من الطبيعي أن يمتلىء بلاط مثل هذا الملك بالصراع وبالمكائد، وهو ما يبدأ به المؤلف روايته منذ صفحتها الأولى، فهو يضع القارىء مباشرة في قلب الأحداث، ويقرر السطر الأول أن حكم فرنسا كان مقسما بين الوزراء والمحظيات، فقد اشتهر لويس الرابع عشر بحب النساء، وقد تزوج في عمر 22 سنة من ابنة عمه

ماري تيريس ، ابنة ملك اسبانيا فيليب الرابع، ونتج عن الزواج ستة أولاد، ماتوا كلهم ولم يصل سوى ولد واحد منهم لفترة الشباب.

وتزوج مرة ثانية من فرانسواز، وهي أرملة شاعر كان شهيرا في عصره يدعى بول سارون. وقد كان الزواج سرياً. كما حظي لويس الرابع عشر بعدة علاقات غرامية. وكانت أول عشيقة له هي ماري مانسيني ، ابنة أخ الكاردينال مازارين. ولم يكن انجاب الأولاد حكراً على الزوجات وحسب وإنما أنجب لويس الرابع عشر عدداً كبيراً من أولاده من عشيقاته، مثل لوسي دو لا فالاري عشيقته التي أنجب منها أربعة أطفال. وتوالى عدد المعشوقات والمحظيات اللائي شاركنه الحكم وتدخلن في تفاصيله..

وتدور الرواية التي بين أيدينا حول الصراع بين الدوق دي شوازيل رئيس الوزراء والكونتس دي باري محظية الملك، وما نتج عن هذا الصراع من تأثير على مصائر الشخصيات، ولندع الرواية المشوقة بين يديك عزيزي القارىء متمنين لك قراءة ممتعة ومفيدة.

خالد سليمان

القسم الأول

الفصل الأول

كان حكم فرنسا في ذلك العهد مقسماً بين محظيات الملك ووزرائه، وكان فارسا الميدان في تلك الأيام هما الدوق دي شوازيل رئيس الوزراء والكونتس دي باري محظية الملك.. وتسعى الكونتس بالسيطرة على الملك لويس المنغمس في الملاهي والمسرات فيسطع نجمها، وبتقرب الدوق إلى الملك وينجح في إقصاء الكونتس عنه.. ولكل من هذين المتنافسين أنصاره وأعوانه، وإن كان وراء الدوق دي شوازيل نخبة من أشراف البلاط الذين يحقدون على الكونتس لأنهم يرون فيها صورة للعامة الذين استعبدهم النبلاء أجيالاً متعاقبة..

وكان المعروف إن الاحتفال بإدماج الكونتس دي باري في البلاط الفرنسي سيؤدي إلى مساواتها بأعدائها من نبلاء البلاط ونبيلاته.. ومن هنا شغلت هذه المسألة الأذهان شهراً كاملاً.. فتألبت ضدها سيدات البلاط، واتفقت كلمتهن على ألا تقوم إحداهن بمهمة التقديم والتعريف، وهو تقليد محتم في البلاد الفرنسية.. ولم يفلح الوعد ولا الوعيد ولا الرشوة في إكتساب نبيلة واحدة للقيام بهذه المهمة التي ترفع الكونتس دي باري من طبقة العامة إلى مصاف الأشراف، حتى غلب اليأس

على الكونتس وكادت تستسلم للخذلان، لولا أن خطرت لأخيها الفيكونت جان دي باري فكرة موفقة.

أهدى الفيكونت جان إلى نبيلة عجوز تدعى الكونتس دي بيارن، وهي سيدة شديدة التمسك بالتقاليد، تقيم في قصرها الريفي على ضفاف نهر التيمز، وقد وقعت في نزاع قضائي استنفد ثروتها.. وكانت قضاياها لاتزال مطروحة أمام محاكم باريس..فاستدرجها الفيكونت جان إلى باريس بالحيلة، وأنزلها ضيفة في قصر الكونتس دي باري، حتى استطاع أن يقنعها بالقيام بمرافقة الكونتس دي باري إلى البلاد وتقديمها إلى الملك..

أما الدوق دي شوازيل والدوقة زوجته فقد وقفا يستقبلان ضيوفه حفلهما في منزلهما بضاحية سان أنوريه. وكان رابط الجأش ظاهر السكينة رغم أن الدلائل كلها كانت تشير إلى قرب نجاح الكونتس دي باري في الإندماج في سلك نبلاء البلاط. وكانت الحفلة رائعة، تقاطر إليها المدعوون من نبلاء البلاط ونخبة الأشراف في باريس حيث كان الملك يقيم مؤقتاً منذ ثلاثة أيام، وإن كان المعروف أنه سيعود إلى فرساي في الليلة التالية وغصت الطرقات المؤدية إلى سان أنوريه بالخدم والحشم في ملابسهم الزاهية، حاملين المشاعل يتقدمون بها مركبات المدعوين، حتى بات الشارع وما يجاوره شعلة من نور.. واحتشدت الجماهير في الطرقات المؤدية إلى القصر ترقب

في إعجاب إنسياب هذه المواكب إلى القصر ،ناسين مؤقتاً ما هم فيه من بؤس، وما كانت المركبة التي أقلت الماريشال دي ريشيليو تنصرف، حيث دنت مرة أخرى، أطل منها شابان: أولهما قصير القامة أسمر اللون يعلو وجهه آثار جدري يسير.. كان هذا الشاب هو الكونت كاميس..أما الثاني فهو شاب طويل القامة حسن الوجه تلوح عليه دلائل الإستهتار، وتعلو وجنته ندبة تمتد من الصدغ إلى الذقن هي أثر إلتئام جرح أحدثه حد السيف.. هو الكونت دي روشفور، وكان يناهز الخامسة والعشرين من عمره.. عرف صاحبها بالجرأة والبسالة.. عنيف في حبه وبغضه، أنيق الثياب، منغمس في اللذائذ.. قلّما تقع عليه العين إلا ضاحكاً بشوشاً.

إرتقى روشفور درجات السلم يتبعه كاميس ونفذا من الباب الزجاجي المتحرك إلى داخل البهو.. حيث عقود الأزاهير الزكية تطوق رءوس الأعمدة المرمرية وتمتد متشابكة حيث تتألق فوقها أضواء الثريات والمصابيح المتلألئة وأفواج المدعوين تتهادى فوق درجات السلم الرئيسي وفوق الشرفة العليا وقد إزدانوا باللآلى والأوسمة والوشاحات الزرقاء والأردية الزاهية وموسيقى الرقص تصدع بألحان خافتة لا تكاد تجمع بين الضحكات الرقيقة المنبعثة من أفواه السيدات.. ووقف الحاجب يعلن حضور القادمين كلاً بإسمه ولقبه..

وما إن حيا كاميس وروشفور مدام دي شوازيل وزوجها رئيس الوزراء حتى فقد كلاهما صاحبه.. فللشابين طائفة كبيرة من المعارف والأصدقاء، وبينما كان روشفور بهم بالإنتقال إلى قاعة الرقص أحس بيدٍ توضع على ذراعه، فإلتفت حوله وألفى نفسه وجهاً لوجه أمام مسيو دي سارتين مدير البوليس..

قال روشفور ضاحكاً: أتعتقلني يا سيدي ؟

فأجاب دي سارتين وهو يضحك بدوره:

- بل أستوقفك فقط.. ترى ما الذي جاء بك إلى هنا هذه الليلة؟

- هو نفس السبب الذي حملك على المجيء يا عزيزي سارتين.. أعني دعوة شوازيل.

- لكني كنت أظنك من أفراد الحزب الآخر؟

- أي حزب تعني؟

- حزب دي باري؟.

- أنا لا أنتمي إلى حزب ما. وما حزبي سوى كل النساء الجميلات والندمان الفرقاء من أهل باريس. وهل رأيتني يوماً من رجال الأحزاب .. إنني أبتعد عن هذه المسائل لسببٍ واحد هو رغبتي في التمتع بالحياة.. أنظر إلى ريشيليو.. لقد نالت منه الشيخوخة في السنة الماضية

وهو يجهد نفسه الجائعة سعياً وراء هتك أسرار شوازيل أكثر مما نالت منه الأعوام الثمانون التي عاشها!.. وأنظر إلى شوازيل وهو يختلس النظر إلى ريشيليو حتى يكاد يلتهمه. بل أنظر إلى نفسك أنت يا سارتين.. فأنت شاحب اللون كأن بك مرضاً مزمناً، والواقع أنك لا تعيش إلا بالسياسة وللسياسة!

- أنا؟.. أنا رجل لا شأن لي بالسياسة ولا بمحترفيها.. وإنما ينحصر عملي في مطاردة الإجرام والمجرمين.

- هذان إسمان لمسمى واحد فإن المجرمين يتقاتلون وجهاً لوجه، أما محترفو السياسة فيطعنون بعضهم بعضاً من وراء الظهور.. وهذا هو الفرق بين الطائفتين.. نحن في قاعة الرقص.. ما أوفر هذه الأزهار.. يخيل إلي أن شوازيل قد جرد فرنسا من كل أزهارها وزان بها هذه الحفلة..

- صحيح.. لكن هناك زهرة واحدة أخفق في إستحضارها.

- تعني دي باري؟

- بالضبط..

زعم مدير البوليس لصاحبه روشفور أنه بعيد عن السياسية ولكن روشفور إستخلص سراً خفي أمره على الكثيرين.. فقد أدرك من مضمون العبارة التي قالها سارتين ومن لهجته أنه ينتمي إلى حزب دي باري..وكان

سارتين يختلط بدوائر البلاط ورجال الحاشية لائذاً بالصمت محوطاً بالغموض، متظاهراً بالبعد عن السياسية، وهو في الواقع يساهم في كل كبيرة وصغيرة.. فهو ذو ذهن خصب قادر على تدبير الدسائس، وله مقدرة على النفاق تدفع عنه كل الشبهات.. ومن يرى بلادته الظاهرية يخدع به ويأمن جانبه، لكنه لا يلبث أن ينقض على غريمه كأنه نمر جائع.. وبهذه الصفات إستطاع أن يجمع في يده سلطة في بلاط الملك لويس الخامس عشر لم يتمتع بمثلها من قبله سوى الكاردينال ريشيليو في أيام مجده، مع فارق واحد هو أن الإنخداع بطيبة سارتين الظاهرية يجعله أشد خطراً من الكاردينال ريشيليو.

وقف سارتين واضعاً يديه خلف ظهره يتأمل المتخاصرين وهم يتنقلون بخطواتهم الرشيقة، وقال حينما لمح بينهم وجهاً مألوفاً لديه:

- أرى الكونت كاميس بين الراقصين!.. هل رافقك في الحضور هذه الليلة؟

- نعم.. جئنا في مركبة واحدة..

فقال سارتين

- إذن كن على حذر من هذا الرجل!

- من الكونت كاميس؟ وما السبب؟

- لأنه أخصائي في القتل بالسموم..

- هو مسمم!

- بالضبط.. أنه دس السم لعمه في الحساء.. ودس السم لزوجته في قدح من الشاي.. ولو إستطاع أن ينسل إلى مطبخي الخاص لما تردد أن يدس السم لي.. تسألني كيف علمت بكل هذا؟.. هذه هي مهنتي.. على أني لا أستطيع أن أمسه بسوء لأن الأدلة ضده غير كافية.. لكن حبل الجلاد ينتظره.. وسوف يقع في قبضة يدي..

أفاق روشفور من الصدمة التي تلقاها وضحك، لم يصدق هذا الشاب كل ما سمعه على علاته.. وفوق ذلك فقد وقع نظره على وجه شغله عن كاميس، وقال:

- من هي تلك السيدة الجالسة في أقصى الغرفة مع مدام دي كورسيل؟

أدار سارتين رأسه ثم أجاب:

- هيا (زهرة المارتينيك).. كيف لا نعرفها؟

- إنني تغيبت عن باريس مدة شهرين.. ولابد أن تكون هذه (الزهرة) قد أينعت أثناء غيابي.. ما إسمها يا عزيزي سارتين؟ إني أذوب لهفة لسرقة إسمها؟

- مدموازيل فونتراي. لكن كن على حذر منها يا روشفور.. فهي أشد خطراً من كاميس.

- كيف ذلك؟ هل هي تسمم الناس أيضاً..؟

- كلا.. بل هي تقتلهم بسهام عينيها.. والنتيجة واحدة. ترى ما الذي دفعها إلى الحضور هنا هذه الليلة, فهي صديقة المدام دي باري ؟

- ما هذا السؤال.! أين عيناك يا عزيزي.؟ إن وجودها بلا ريب يزيد حفلة شوازيل بهاء وجمالاً يا إلهى.! ما أجمل هذا المحيا! إن سناءه يكسف كل الوجوه.! مسمارتين.! قدمني إليها!

- أبداً..

- إذن سأقدم نفسي.

- أفعل ما يحلو لك..

دار روشفور على عقبيه وتقدم رأساً إلى ناحية مدموازيل فونتراي بينما كان سارتين ينظر إليه مرتاعاً من جرأته وأقدامه.

ولما وصل روشفور إلى حيث تجلس مدام دي كورسيل التي يعرفها معرفة سطحية إنحنى أمامها قائلاً:

- ما أسعدني بلقائك هنا يا سيدتي، وبلقائك أنت أيضاً يا مدموازيل فونتراي! إنني كنت أعجب من وفرة الأزهار هنا، وخيل إلى أن شوازيل قد جمع في هذه الغرفة مائة مليون زهرة، حتى حانت مني إلتفاتة إلى حيث تجلسان، فلم أجد أمامي سوى زهرتين.

وإنحنى روشفور أمامها، بينما ضحكت مدام دي كورسيل ونهضت للإحتفاء بسارتين إذ رغبت في تبادل الحديث معه.. وقالت:

- ما دمتما تعرفان بعضاً فسأدعكما تتحدثان معاً.. إني حسبتك يا سارتين تتهرب مني، فإنك نظرت مرتين إلى ناحيتي وكأنك لا تعرفني!

فأجاب سارتين وهو يناولها ساعده:

- إني أشكو ضعفاً في النظر هذه الأيام يا سيدتي.. ولولا حدة عيني مسيو دي روشفور لما رأيتكما.

وإبتعد الإثنان في غمار الجمع الذي إحتشد في الغرفة تاركين روشفور ومدموازيل فونتراي وحدهما. كانت الفتاة رائعة الجمال، وافرة الرشاقة سمراء اللون، ذات عيشين سوداوين تفتكان بالقلوب.. تفرست زهرة المارتينيك في روشفور، وتطلع روشفور إليها ثم قالت:

- إنني صادفت في باريس، أيها السيد، طائفة من العجائب لكني لم أجد ما هو أبعث على العجب من تطفلك .

فأجاب روشفور:

- ليس هذا تطفلاً يا آنستي العزيزة، بل هو فلسفتي الخاصة.. إني وجدت أن التعارف الذي يتم بالطريقة المألوفة يسبب ضجر المتعارفين ويضايقهما، ولذلك أردت

أن أدفع عنك وعني شر هذه المضايقة.

فقالت الفتاة وهي تفحصه بعينيها:

- لست واثقة من صحة هذا القول. فإن كثيرين ممن لم يقدموا إلى التعارف تضايقني نظراتهم وتضجرني ، تبرأت أصواتهم.. ولم تفتني هذه الحقيقة حينما كنت أراقبك وأنت تتحدث إلى مسيو دي سارتين منذ لحظة وجيزة.

فقال روشفور وقد تجاهل مرمى إشارتها:

- آه..! هل لاحظت ذلك في شخص مسيو دي سارتين؟! لا أكتمك أنه ثقيل الظل إلى حد ما.

ضحكت الفتاة.. فقد حيرتها جرأة روشفور التي لم تجد لها مثيلاً في كل من صادفتهم من الناس، لكنها عزمت على إعطائه درساً، فقالت وهي تنهض للحاق بمدام دي كورسيل التي كانت تدنو وهي متكئة على ذراع سارتين:

- إنني لم أزن مسيو دي سارتين. بل وزنت مسيو دي روشفور فوجدته لا شيء.

فاهت الفتاة بكلمة «لا شيء» وشفعتها بنظرة من عينيها شملت روشفور من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فيها من معنى الإزدراء والإستهانة ما هو أخمص واوقع في النفس من الصفع. وفي اللحظة التالية إبتعدت مع مدام دي كورسيل وألفى روشفور نفسه وجهاً لوجه أمام مدير البوليس.

أدرك روشفور أنه كان ينازل قوة هائلة، وشعر لأول مرة في بحياته بمبلغ غفلته ومقدار هزيمته. بينما قال سارتين وهو يبتسم ساخراً:

- ما هو موضوع الحديث الذي دار بينك وبين مدموازيل فونتراي؟.

فقال الشاب وهو يتمالك جأشه.

- إن آخر عبارة تبادلناها يا سارتين كانت تدور حول وزنك..

- وزني؟

- قالت إنها إستخلصت من هيئتك إنك ثقيل.

تحول روشفور عن صاحبه وإبتعد عنه مندمجاً في زمرة المدعوين محاولاً أن يخفف من حدة الهياج الذي يساوره ويقلل من رفع الاهانة التي لحقته. وجعل يتطلع بنظره هنا وهناك لعله يصادف أحداً يشفي منه غلته أو يصب عليه لعناته. لكنه لم يوفق إلى فريسة من هذا النوع، ولم يجد أمامه سوى مدموازيل فونتراي.. فقد صادفها مرتين في غمار المدعوين، وفي كل مرة تخطته بنظرها دون أن يبدو في عينيها أنها عرفته أو تحدثت إليه.

الفصل الثاني

لما فرغ كاميس من الرقص إنتقل إلى غرفة المقامرة. وانتقل من طاولة إلى أخرى حتى وصل إلى مائدة في أقصى الغرفة وقف بجانبها الكونت كواني.وكان واقفاً يراقب اللاعبين. وما كاد يقع نظره على كاميس حتى ترك اللعب وأقبل عليه وتناول ذراعه قائلاً:

ـ هيا بنا إلى غرفة الرقص حيث يمكن أن نتحادث دون أن يستمع إلينا أحد.. هل تلقيت رسالتي التي أوصيتك فيها مشدداً بالحضور إلى هنا هذه الليلة؟

- نعم.. وما سر هذا الإهتمام الشديد؟

- هناك مسائل في غاية الخطورة.

- أراهن أنها تتصل بمسألة دي باري.

- أصبت.. أعلم أنه حدد لمجيئها إلى فرساي الساعة التاسعة من مساء الليلة التالية.. والآن.. لقد قررنا أن نسرق مركبتها وملابسها ونعتقل حلاقها..

- وما هو موعد هذه السرقة؟

- غداً.. الساعة السادسة مساء.. على أنه لا يمكن أن تعهد بهذه المسألة إلى الخدم، ولذلك إخترت صديقاً يتكفل بصانعة الملابس، وسوف أتكفل أنا بالحلاق.. أما أنت يا عزيزي كاميس فسيكون من نصيبك المركبة.

فقال كاميس:

- وهل تعالج هذه المسائل الثلاث بالقوة المجردة؟

- بل بالرشوة..

- وهل فاتحت صانعة الملابس والحلاق وسائق المركبة في الموضوع؟

- كلا.. يجب إنجاز هذه المسائل في آخر وقت.. وألا تدبروا الأمر وفضحونا..

- ومن يدفع المال المطلوب؟

- شوازيل.. ومن سواه؟.. ستكلفنا هذه المسألة مبلغ ثلثمائة ألف فرنك.. ولو أنها كلفتنا مليوناً فالمليون موجود..

- إفرض أنهم رفضوا

- إذا رفضوا فلابد من إستخدام القوة. ويجب عليك أن تبحث عن خمسة رفاق يتأهبون لنجدتك وقت الحاجة.

- من اليسير إيجاد هذا العدد.. وما علي ألا أن أنطق بإسم «دي باري».. فيسارعوا إلى تلبية ندائي..

- ولابد أن يكونوا من طبقة الأشراف.. ففي مثل هذه المهمة يجب ألا يوكل شيء إلى الخدم..

- هو ما تقول.. أين توجد المركبة؟

- في محل لاندري، بشارع «دي لاهارب».. إن المركبة قد تم تجهيزها وطلبت أخيراً.. لكن مهمتك الحقيقية تنحصر مع ماتيو السائق.. فعليك أن تزيح هذا الرجل من الطريق. ومتى فعلت، فتزي بزي أتباع دي باري، وخذ المركبة من محل لاندري وقدها إلى جهنم، أو إلى حيث تشاء، إلا قصر دي باري.

- وماذا نصنع بإتباع المركبة؟

- عليك أن تستخدم ذكاءك في التخلص منهم.. إستدرجهم إلى إحدى الحانات، وأذهب بالمركبة بينما يسكرون.. هذه مسائل ثانوية..

- لكن «لاندري» سيعلم أني لست ماتيو السائق..

- قل إن ماتيو شرب حتى ثمل.. ومن حسن الحظ أن هذا الرجل معروف بإدمانه..

ـ حسناً.. قد قبلت.. لكن جزائي أن ينعم على شوازيل يلقب الدوق حينما تتم هذه المسألة..

- إطمئن، أن شوازيل لا ينسى رجاله المخلصين. كما أن السيدات البلاط سيحمدون لك هذا الجميل.. آه.. ها هي مدام كورسيل مع فونتراي الساحرة. ترى ماذا تفعل مدموازيل فونتراي هنا هذه الليلة.. فإني أعتقد أنها صديقة دي باري؟

- يا إلهي!.. ما أروع هذا الجمال؟.. من أين جاءت؟

- ألا تعرفها؟.. إنها جاءت من جزر المارتينيك. ولذلك يطلقون عليها إسم «زهرة المارتينيك» .

- إنني غبت عن باريس عدة أسابيع كنت فيها الهو بالصيد، مع روشفور قدمني إليها..

- بالتأكيد..

تمت مراسيم التعارف بين كاميس ومدموازيل فونتراي في لحظة قصيرة.. ولما كان كاميس خبيراً بأخلاق النساء فلم تمضي إلا دقائق معدودة حتى إكتسب إعجابها، ثم جاء الدوق دى سواسون يلتمس مراقصتها، فتخلى كاميس عن رفقتها، وجعل يتأملها وهي ترقص بعينين متوقدتين وكأنه نمر يرقب ظبياً.. ثم أثنى إلى غرفة العشاء، حيث إلتقى بصديقه مسيو دي ديراس وهو نبيل يمتاز بمعرفته الغزيرة لكافة الناس وإطلاعه على أحوالهم، فإستفسره عن مدموازيل فونتراي، وعلم منه أن أباها غنىً كبير في جزر المارتينيك وأنها جاءت إلى باريس إنتجاعاً للصحة مع إمرأة مولدة عجوز، وهي تقيم أحياناً في شارع «سان دومنيك» وأحياناً أخرى في حي «لوسيين». كما علم أنها صديقة لأسرة دي باري التي يدين لها فونتراي الأب بشيء يسير من غناه..

غادر كاميس غرفة العشاء باحثاً عن تلك التي سحرته لكنه لم يجدها، فحول مجرى أفكاره إلى مسألة دي

باري.. وتذكر أنه لابد له من البحث عن خمسة أصدقاء موثوق بهم وبتفانيهم في خدمة شوازيل، أو بعبارة أخرى معروفين بعدائهم الشديد لأسرة دي باري.. وما كاد الليل ينتصف حتى وفق إلى العثور على أربعة يطابقون غرضه، فتواعد معهم على اللقاء في منزله بشارع «دي لاترون» في صباح اليوم التالي. وبينما هو يبحث عن الخامس وقعت عيناه على روشفور، الذي شرب حتى إنتشى وقام حتى إنتفخت جيوبه.. فوجد فيه كاميس أمله المنشود.. كان كاميس يظن أنه يعرف روشفور تماماً. فتقدم منه وتأبط ساعده وإتجه به إلى مدخل البهو قائلاً:

- إن الليل قد إنتصف.. وقد عزمت على الإنصراف.. هل ترافقني حتى أتحدث معك حديثاً خاصاً؟.

- لا بأس.. إني ربحت مائتي جنيه، وإذا أقمت أكثر من ذلك فمن المؤكد أني أخسرها.. ما هذا الذي تريد أن تحدثني به؟

- صبراً حتى نصير في الشارع..

وتناول كلاهما عباءته وقبعته وغادرا القصر.. فلما سارا قليلاً في شارع سان أنوريه أمسك كاميس بذراع روشفور قائلاً:

- أصغ إلي.. إننا رسمنا خطة محكمة بشأن تلك المرأة الغسالة..

- تعني دي باري.

- ومن سواها.. إن الإحتفال بتقديمها إلى البلاط بات في حكم الملغي..

- آه.. كنت أحسب أن هذا الإحتفال مسألة محققة. وما الذي دعا لإلغائه؟

- لا شيء.. لكن ستحدث أشياء في هذا الشأن..

- أفصح عن غرضك يا صاحبي.. هل تنوي خنق الكونتس دي بيارن؟

- كلا.. لكننا سنسرق مركبة دي باري

- تسرقون مركبة دي باري.

- ليست مركبتها فقط، بل ملابسها وحلاقها الخاص كذلك فقال روشفور:

- هل أنت جاد في كلامك؟

- كل الجد.. أليست خطة رائعة؟ وستنفذ كلها في آخر وقت، أعني في الساعة السادسة من مساء الغد، أو بالأحرى من مساء اليوم، فقد جاوز الوقت نصف الليل.. أصغ إلي.. سأحدثك بكل التفاصيل.

وإنفجر ضاحكاً، وراح يشرح لروشفور مضمون الخطة التي سينفذها وأردف قائلاً:

- يلزمني خمسة رجال لمعاونتي.. وقد وجدت أربعة، فهل تكون الخامس؟.

لزم روشفور الصمت لحظة.. ثم أجاب قائلاً:

- تعرف أني لست من أنصار دي باري، وإني أتمنى أن أرى بائعة الحوانيت هذه حيث يجب أن تكون.. لكني أرى أن ما تعرضه علي ليس هو العمل الذي يوافقني.. إنني أفضل بسرور أن أخطف الكونتس دي باري نفسها.. إما أن تفرض على سرقة مركبتها.. فليس عندي لهذا الطلب سوى رد واحد. وهو أني لست لصاً..

جدب كاميس ذراعه بعيداً عن ذراع روشفور.. فقد حسبه لا يبالي بالنتائج كائنة ما تكون.. لكنه عجز عن إدراك حقيقة واحدة، هي أن روشفور على رغم إستهتاره ونقائصه التي هي صورة لأهل عصره، كان رجلاً شريفاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى.. والواقع أن كاميس لإنعدام معنى الشرف في نفسه كان يعجز عن رؤيته عند غيره..

قال كاميس أخيراً:

- آه.. أراك تتمسك فجأة بأسباب الفضيلة والإستقامة.

فقال روشفور:

- أنا.. العفو!. لكن خطتك هذه أشبه بسلب أحد المارة من كيس تقوده لمنعه من الركوب إلى فرساي.. صحيح

أن هذه حيلة، لكنها ليست بارعة، وأرجو ألا تؤاخذني إذا قلت أنها لا تليق بالرجل الكريم.. تقول أن كواني رسم هذه الخطة؟. إنى أصدقك.. فإن كواني يحمل بين جنبيه نفساً وضيعة..

فقال كاميس ساخراً: آه.. أراك إنقلبت إلى حزب دي باري.. لم لا تحمل شارتهم إذن بكل صراحة بدل أخفائها في جيبك، مع ضميرك؟

فضحك روشفور وأجاب:

- لا شأن لي بحزب دي باري.. وسيان عندي أذهبت الكونتس إلى فرساي أم إلى جهنم.. لكن ما هذا؟

سمع روشفور صراخ إمرأة يمزق سكون الليل، ولمح في ضوء القمر ثلاثة أشخاص متماسكين، عرف فيهم رجلين مهاجمان إمرأة..

جرد روشفور سيفه كلمح البصر، وأشار إلى كاميس أن يتبعه، وراح يركض بكل قواه إلى ناحية الشقيين اللذين تخليا عن المرأة بسرعة ولاذا بالفرار..

لكن روشفور نسى كاميس والمرأة وكل شيء، وركض في أثر الهاربين اللذين إفترقا عند نهاية الشارع.. فتبع روشفور أحدهما الى طريق ضيق حسبه الشقي منفذاً.. وما لبث أن رآه لسوء حظه مسدوداً عند نهايته، فسقط في يده وإرتد على عقبيه كأنه فأر وقع في مصيدة..

نظر روشفور إلى الشقى في ضوء القمر، فرآه من طبقة الآباش لا يتجاوز العشرين، وشاهد أمارات الشر والإجرام بادية على وجهه بأجلى معانيها.. فهتف:

- آه.. وقعت في يدى!

كادت هذه العبارة تكون آخر كلمات روشفور، فإن الشقى قذف شيئاً بيده بسرعة البرق!. ومرت مدية حادة قرب عنق روشفور حتى كادت تلامسه وتقضي عليه..

وما هي إلا غمضة عين حتى لمع سيف روشفور وإستقر في قلب الشقى، فلوح بذراعيه في الفضاء وسقط على الأرض جثة هامدة..

طابت نفس روشفور بالقضاء على هذا الشقي، وإلتفت حوله باحثاً عن شيء يمسح به سيفه.. فلمح قصاصة من الورق حملتها الريح. هي أغنية شعبية كانت شائعة في هذا العهد، فتناولها ومسح بها حد السيف ودسه في غمده ثم عاد أدراجه قرير العين بهذه المهمة التي أنجزها..

وما كاد روشفور يقترب ثانية من شارع «دي شيفي» حتى طرق سمعه مرة ثانية صراخ إمرأة. فإنعطف في النار ركضاً، وفي اللحظة التالية شاهد شبحين يتصارعان.. إحداهما شبح رجل والثاني شبح إمرأة..أما الرجل فهو كاميس.. وكان باسطاً ذراعه حول خصر المرأة التي أنقذاها معاً، محاولاً تقبيلها.

أسرع روشفور إليهما وقد غلى الدم في عروقه.. لم يكن يصدق أن هناك من ينقذ إمرأة من مخالب وغد ليعتدى هو عليها بدوره. ولما وصل إليهما وضع ذراعه تحت إبط كاميس وجذبه بعيداً عن فريسته، ثم صفعه صفعة قوية ألقته على الأرض متخطباً. وإستل حسامه على الفور. جلس كاميس على الأرض لحظة مشدوهاً.. ثم نهض واقفاً وجعل يحدق إلي دوشفور، لكنه لم يمتشق سيفه.

صحيح أن كاميس كان معدوداً من البواسل. لكن مفاجأته وهو يرتكب هذا الفعل الذميم، والصفعة القوية التي تلقاها، وتمرغه في التراب، وما بدا له من هياج روشفور.. كل هذه العوامل حطمت كبرياءه، وأذلت نفسه، وفلت ساعده.. فقال وقد تغلب على غضبه:

- سنسوى هذه المسألة فيما بعد..

ثم إنحنى والتقط قبعته من الأرض وسار لا يلوي على شيء.. على أنه كف عن السير بعد أن قطع نحو عشرين متراً، ونظر إلى ناحية روشفور ثم واصل سيره حتي حجبته ناصية الشارع عن الأنظار. أغمد روشفور سيفه، والتفت إلى المرأة التي إستندت إلى الجدار لاهثة مرتعدة، وما لبثت أن هتفت:

- رباه!.. يا لها من ليلة!.. أواه يا سيدي.. كيف يتاح لي أن أعبر لك عن شكري؟

كانت فتاةً مليحة في ربيع الحياة، وقد سقط عن رأسها غطاء معطفها فكشف عن شعرها الفاحم ووجهها المبلل بالدموع. وكانت هيئتها تدل على أنها من طائفة الخادمات، فضحك روشفور وهو ينحني على الأرض لإلتقاط منديلها الذي سقط منها.. وقال:

- لا شيء يدعو إلى شكري.. هيا تشددي أيتها الصغيرة. ها هو المنديل الذي سقط منك.. هل سلبك أولئك الأشرار شيئاً؟

فأجابت الفتاة:

- كلا يا سيدي.. إن الرسالة التي كنت أحملها سليمة..

- آه.. كنت أحسب أن هذا الإحتفال مسألة محققة، وما علموا أنك تحملين رسالة.. هل كانوا يتبعونك؟

- إنهما تبعاني من منزل سيدتي الى المنزل الذي ذهبت إليه لأخذ الرسالة منه.. وإستمرا في متابعتي من هذا المنزل الأخير، وهما دائماً على مسافة مني، حتى وصلت إلى هذا الشارع حيث هاجماني, وطلبا مني الرسالة.. ووعدا أن يتركاني إذا أعطيتها لهما.. لكني رفضت..

- أنت فتاة باسلة.. لو وقع مكانك رجال شجعان في أيدي هؤلاء المجرمين الأبالسة لتخلوا عما يحملون فائزين من الغنيمة بالإياب.. والآن إستندي إلى ذراعي حتى أقودك سالمة إلى منزلك.. ما إسمك يا صغيرتي؟

فأجابت الفتاة وهي تستند إلى ذراعه:

- إسمي جافوت..

- إطمئني إذن يا مدموازيل جافوت.. إنتهت متاعبك، وستصل رسالتك سليمة إلى مقرها.. أي طريق نسلك؟

- إني أقصد يا سيدي إلى شارع دي فالوا..

- حسناً.. إلى الأمام يا فتاتي..

سار الإثنان جنباً إلى جنب وقد سر روشفور من طرافة هذا الموقف، والواقع أن الظروف العجيبة التي أدت إلى هذا اللقاء وقيام روشفور بدور المحامي لهذه الفتاة، كان من شأنهما إزالة الفوارق مؤقتاً بين روشفور النبيل وجافوت الخادمة، ووجد روشفور في هذا الموقف لذة عظيمة وتسلية كبرى..

ولما وصلا إلى شارع دي فالوا وقفت جافوت عند باب خلفي وأخرجت مفتاحاً من جيبها.. فقال روشفور:

- هذا هو المنزل إذن؟ يا له من باب قبيح لا يتناسب مع رحلتنا اللطيفة!..

وضعت جافوت المفتاح في قفل الباب وهي تتنهد، ثم فتحته بلطف وقالت في صوت خافت:

- سيدي.. ليس في إمكاني أن أعبر لك عن مقدار شكري. لست إلا فتاة ضعيفة، ومحصولي من الكلمات

معدود.. لكنك ستفهم وتقدر..

آنس روشفور في نبرات الفتاة رنة خاصة جعلته يدنو منها، فتراجعت إلى الخلف وغمغمت.

- أتمنى لك ليلة سعيدة يا سيدي..

فقال روشفور وهو يشير إشارةً ذات دلالة:

- آه!.. لكني أريد أن يكون وداعنا بطريقة أخرى..

فهمت الفتاة ما يرمي إليه.. فتقابلت شفاههما في الظلام، وطوق روشفور خصر الفتاة بساعده، وفي اللحظة التالية فتح باب أمامها، وغمر المكان ضوء قوي..

إبتعد روشفور عن الفتاة بسرعة فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل قوي البنية غير منظم الهندام، يحمل بيده مصباحاً.

كان القادم هو الفيكونت جان دي باري..

ذهل روشفور من هذه الحقيقة حتى أنه وقف لحظة لا ينبس بكلمة.. ودهش الفيكونت بدوره من رؤية رجل عند باب منزله مع جافوك حتي إنعقد لسانه ولم يقوَ على الكلام.. أما جافوت المسكينة التي إفتضحت ولازمها الحظ السيء طول الليلة.. فقد حجبت وجهها براحتيها..

عاد روشفور إلى نفسه وتذكر أن منزل دي باري كائن في شارع دي فالوا.. وما لبث أن ضحك عندما رأى نفسه

الآن واقفاً في مدخل بيت الكونتس دي باري، وأنه أنقذ خادمتها ورسالة لها.. وهتف:

- ما أبدع هذه المصادفة؟

وما إن تبين دي باري شخصية روشفور حتى هتف بدوره.

- عجباً!.. هذا هو الكونت دي روشفور!

فقال روشفور وهو يضحك:

- أنا في خدمتك..

إنحنى دي باري متهكماً.. كان يعرف شهرة روشفور في عالم الغرام، وتوهم أن وجوده الآن مع جانوت يرجع إلى سبب غرامي.. لكنه كان مهتماً بمسألة أخرى، وكانت عنايته موجهة إلى الحصول على الرسالة التي بعث جانوت في طلبها.. فقال:

- سيدي.. إن الوقت متأخر.. هل من سبب لتشريفي بهذه الزيارة؟

فأجاب روشفور:

- الواقع أن سبب الزيارة يعود إلى الرسالة التي تحملها مدموازيل جانوت في جيبها، والتي حاول رجلان سلبها منها في شارع دي شيفي منذ نصف ساعة..

وقالت جافوت وقد إستردت جأشها:

- سيدي الفيكونت.. تبعني رجلان إلى العنوان الذي عينته لي.. ولما عدت بهذه الرسالة هاجمانى وكادا يستوليان عليها لولا هذا السيد الباسل، فإنه هزمهما وأوصلني إلى هنا.. وكنت على وشك التسليم عليه حينها جئت..

وأخرجت الرسالة من جيبها وأعطتها إلى الفيكونت..

تبدلت هيئة جان دي باري حالما تناول الرسالة.. كان يعلم أن روشفور لا ينتمي إلى حزب ما، ولو إستطاع أن يضم هذه الشخصية القوية الفذة إلى صفوف دي باري فإنه سيكون قد نال مغنماً عظيماً. وفوق ذلك فانه أراد أن يعرف تفاصيل الواقعة التي سمع الآن بها، ولذا قال وهو يبتسم.

- سيدي روشفور.. إنك أسديت لنا معروفاً.. نحن محوطون بالأعداء من كل جانب. وإن شئت دليلاً على هذا، فإن حادث الإعتداء على خادمتنا بسبب الرسالة التي حملتها هو أبلغ دليل.. فباسم الكونتس يا سيدي أعرب لك عن جزيل الشكر. والآن. هلا تفضلت بتشريف المنزل حيث الجو أدفأ. والواقع أن الموقف يدعو إلى أن أتبادل معك بعض الحديث، رغم تأخر الوقت..

فقال روشفور:

- شكراً لك.. إن من دواعي سروري كذلك أن أبادلك

الحديث..

شعر روشفور بقلقٍ يسير.. لو صحت الظواهر كما بدت لعينيه، فمعنى ذلك أن الرجل الذي قضى عليه ليس لصاً عادياً، بل هو صنيعة شوازيل.. ولو إكتشف شوازيل الحقيقة فلابد أن يثأر من القاتل، مهما بلغ المقتول من النذالة والإجرام..

ألفى روشفور نفسه غارقاً في مشكلة معقدة، وها هو ذا يزيدها تعقيداً بقبوله دعوة لدخول منزل ألد أعداء شوازيل.

لكن روشفور كان رجلاً إذا وقع في ضيق فإنما يعتمد على قوة ساعده لشق طريقه والخلاص من الضيق.. وإذا أتيح له أن يشترك في مشاكل السياسة ودسائس البلاط، فمعنى هذا أن الأقدار قد رسمت له أن يكون من المناوئين لشوازيل ، ولو صح هذا فخيرٌ له أن يقاتل مستنداً إلى آل دي باري، من ألا يستند إلى شيء.. كان شعار روشفور دائماً: (إلى الأمام).. ولذلك لم يتردد في دخول المنزل خلف الفيكونت، تتبعه جافوت.

الفصل الثالث

سار الفيكونت في الرواق حتى وصل إلى باب فتحه وإنحنى بإحترام، وأدخل روشفور في غرفة صغيرة فاخرة الرياش تتدلى من سقفها ثريا بلورية، ثم إستأذن ضيفه لحظة وأغلق الباب خلفه، فألفى روشفور الغرفة مزدانة بالطنافس والتحف الفنية الرائعة، ووقع بصره على باب أبيض اللون يكاد يحتجب خلف الستائر الحريرية الوردية اللون المسدلة فوقه، ولما تقدم قليلاً لإلقاء نظرة على بعض التحف، طرق سمعه همس خافت صادر من الداخل.. فدار على عقبيه فجأة، إذ فتح الباب الموصل إلى الغرفة الداخلية، وإنتصبت أمامه إمرأة في ربيع الحياة، ذات حسن باهر، ممتلئة الوجه، أنيقة الهندام.. كانت هي الكونتس دي باري.. سار خلفها جان دي باري بقوامه الضخم، ومن ورائه فتاة سوداء الشهر ممسكة بيدها مروحة تخفي بها ملامح وجهها..

إرتفع صوت جان قائلاً:

- الكونت دي روشفور.. الكونتس دي باري..

قالت الكونتس بصوت موسيقي وهي تحيي روشفور بإنحناءة يسيرة من رأسها:

- أهلاً بالكونت دي روشفور.. إني أعرفه من قبل.. ومع أنه لم يبرهن من قبل على صداقته، فإني أعرف

الآن فيه صديقاً لي، أني أعرب لك عن شكري يا سيدي روشفور..

إنحنى روشفور، صحيح أنه عرفها في فرساي لكن هذه المعرفة لم تزد عن تحية لها مع غيره من الذين تغص بهم قاعات البلاط.. ولم يكن يدري أن لهذه السيدة ذاكرة قوية هكذا.

- سيدتي.. إذا كنت أسديت إليك خدمة، فلم يكن هذا إلا من قبيل المصادفة.. على أني مع ذلك أعدها مصادفة سعيدة إذ هيأت لي أن أستخدم سيفي في خدمتك..

وبسطت له يدها، فلثمها..وما كاد يرفع رأسه حتى شاهد الفتاة صاحبة المروحة قد أنزلتها عن وجهها وأخذت تتطلع إليه.. كانت هذه الفتاة مدموازيل فونتراي.. وعلى الرغم من أن روشفور تجاهل مدموازيل فونتراي، فإن فؤاده كاد يثب من ضلوعه حينما عرفها.. وخيل إليه أن الأقدار قد شاءت أن تتصل حياته بحياة هذه الفتاة الجميلة. وإن لم يدن حتى الآن هل يكون إتصال محبة ووئام، أو عداوة وخصام..

قالت الكونتس وهي تبتسم:

- كامي.. أقدم إليك مسيو دي روشفور.

أدرك روشفور على الفور وهو يحني قامته أن زهرة المارتبنيك قصت على الكونتس نبأ الواقعة التي جرت بينها

وبين روشفور في الحفلة الراقصة. ولكنه لم يحفل بهذا، فإنه رأى في عينيها السوداوين نظرة مشجعة، وعلى ثغرها إبتسامة، تترجمان بأفصح لسان عن هذه العبارة «لننسَ.. ولنتصاف». ومنذ هذه اللحظة أصبح روشفور من أنصار دي باري.. قال روشفور:

- إني تشرفت بمقابلة المدموازيل بصحبة صديقتي مدام دي كورسيل في الحفلة الراقصة التي أقامها الدوق دي شوازيل هذه الليلة.

ثم إلتفت فجأة إلى الكونتس وقال في لهجة الجد:

- سيدتي.. قد وقعت مصادفات متعددة هذه الليلة، حتى خيل إلي أن يد الأقدار تبرز من وراء هذه المصادفات.

وفي هذه الأثناء أغلق جان دي باري الباب وقدم إلى السيدتين مقعدين للجلوس. بينما إستطرد روشفور قائلاً:

- على أنه إذا كان حسن حظي أتاح لى خدمتك فيما يختص بالرسالة، فإنه من كمال التوفيق أن أسدي إليك خدمة في شأن أخطر. وقد تعلمين يا سيدتي أني رجل لا أنتمي إلى حزب معين، لكن من الغباء أن أغمض عيني عن الإصبع التي تحدد لي الطريق الذي أسلكه، وأن أصم أذني عن الصوت الذي يهمس في أذني بأن طريقي هو طريق دي باري.

كانت الكونتس تتفرس في وجه روشفور، فدلتها بديهتها على وجود مسائل خطيرة من وراء كلماته، ولذلك جلست مع مدموازيل فونتراي، وأشارت إليه بالجلوس قائلة:

- قلبي يحدثني يا مسيو روشفور بأن لديك أنباء هامة، وقد دلتني تجارب الحياة على أن الأنباء الهامة تتضمن دائماً أموراً غير سارة. فهل تتفضل بإزالة أسباب قلقي؟

- قد أصاب حديث قلبك يا سيدتي، إن الأنباء التي أحملها تتصل بمؤامرة مدبرة ضدك.

كان جان دي باري واقفاً مستنداً إلى الموقد وبيده علبة السعوط، فما كاد يسمع هذه الكلمات حتي هتف:

- مؤامرة.

- أجل ياسيدى الفيكونت.. مؤامرة.

وقالت الكونتس وهي تضحك:

- هل هي مؤامرة لإغتيالي ؟

- كلا يا سيدتي، بل دبروا خطف سائق مركبتك، وحلاقك، وسرقة الرداء الذي ستظهرين به في حفلة مساء الغد.

كادت علبة السعوط تسقط من يد جان دي باري حين سمع هذه الكلمات. وراح يصخب مهدداً متوعداً. بينما جعلت الكونت تحملق في وجه روشفور وقد أدركت

خطورة هذا النبأ. على حين هتفت مدموازيل فونتراي قائلة:

- أني كنت أعتقد دائماً أنهم لن يتورعوا عن شيء!

وقالت الكونتس وقد إستطاعت الكلام:

- هل أنت واثق مما تقول يا سيدي؟

- وكيف لا يا سيدتي، وقد دعوني للمساهمة في هذه المؤامرة؟

- ورفضت..

- رفضت يا سيدتي.. لا لأني كنت من حزبك، وأصارحك أني كنت ضدك في ذلك الوقت.. بل كان رفضي لأني إعتبرت هذا الفعل مما ينافي دواعي الخلق الكريم.. ولم أتردد في مصارحة الكونت كاميس برأيي هذا.

- الكونت كاميس.. هل كان هو الوسيط الذي عرض عليك هذا الطلب؟

- نعم يا سيدتي أننا تخاصمنا هذه الليلة بشأن مسألة معينة، وإذا أردت أن تعرفي تفاصيل هذا الخصام، ففي وسع جافوت أن تقصها عليك.

لكن الكونتس لم تحفل إلا بالخطر القريب الذي يهددها، وإضطر روشفور أن يسرد القصة كلها، وما إن

فرغ منها حتى هتف جان دي باري:

- سحقاُ لهم. لقد نجونا في آخر لحظة.

فقالت مدام دي باري:

- هل نجونا حقاً، وهل يمكن أن نحول بين هؤلاء الأشرار وبين تنفيذ خطتهم؟

فهتف جان:

- سأقطع رأس من يضع يده على المركبة.. وسأحبس الحلاق في قبو المنزل حتى آخر لحظة.. أما صانعة الملابس فسنحميها من أيديهم أقسم أني سأمنعهم قبل تنفيذ غرضهم..

فقال روشفور:

- إذا سمحتم لي بإبداء رأيي، فإني أنصحكم ألا تمنعوهم بل دعوهم ينفذون خطتهم.

فقالت الكونتس:

- هل نتركهم يستولون على مركبتي وردائي وحلاقي؟

فأجاب روشفور:

- نعم.. ألا يمكنك وأنت السيدة ذات السلطان أن تأمري بأعداد ملابس أخرى. وأن تحصلي على مركبة جديدة، وأن تهتدي إلى حلاقٍ ثانٍ، في خلال المدة

الباقية على موعد الحفلة.. إن الحكمة في رأيي هذا تتلخص فيما يلي.. إذا توهموا أن تدبيرهم نجح فلن يقوموا بسعي جديد.. أما إذا قاومناهم فلن يقفوا عند حد في مكائدهم.

عند ذلك هتف جان:

- هذا صحيح.. فلنفكر إذن في إيجاد المركبة والملابس والحلاق.

قالت الكونتس:

- لا يوجد من يستطيع أن يصفف شعري مثل لوبان.

فقال روشفور:

- عفوا يا سيدتي.. إني أعرف رجلاً ماهرا في هذا الفن.. هو شخص مغمور مجهول.. لكني أعتقد أنك إذا إستخدمته عندك، فستطير شهرته في أوربا كلها.

وقالت مدموازيل فونتراي:

- أما فيما يختص بالرداء، فإنك تعرفين يا سيدتي إني سأقدم معك إلى البلاط، ومن حسن الحظ أن قوامينا ومتشابهان.

وهتف جان دي باري:

- وجدت المركبة. هي مركبة شاهدتها أمس في محل فودران بشارع المادلين، وقد صنعت خصيصاً للكونتس

فالفسكي.. وكل ما تحتاج إليه هو إبدال شعارها بشعار دي باري.. إننا سنستعيرها فقط، وأعتقد أن مبلغ خمسة آلاف من الفرنكات يفي بالغرض.

فإلتفتت الكونتس إلى روشفور قائلة:

- إني أثق بذوقك يا مسيو روشفور ثقتي بصداقتك.. وكل ما أسألك بصفتي أمراة هو: هل أنت مطمئن إلى براعة حلاقك؟

- كل الإطمئنان يا سيدتي.. وإني أتحمل كافة المسئولية فيما يختص بمهمته.

فأومأت الكونتس برأسها، ثم إلتفتت إلى مدموازيل فونتراي وقالت:

- هل فكرت في أن هذه التضحية ستحول دون تقدمك إلي البلاط؟ إذا إرتديت رداءه الذي كلفك صنعه مائة ألف فرنك، فكيف يتاح لك أن تظهري أمام جلالة الملك؟

فأجابت الفتاة:

- سأزعم يا سيدتي أني أصبت ببرد، فيؤجل إستقبالي في البلاط..وهذا العمل تضحية يسيرة أقدمها إلى السيدة التي أغدقت خيراتها على أسرتي.. وفوق ذلك فلن أخسر شيئاً إذا لم يتم إستقبالي في البلاط بتاتاً..

ثم إلتفتت إلى جان قائلة:

- هل أنت واثق من موضوع المركبة يا جان؟

ـ نعم.. إن فودران مخلص لنا كل الإخلاص..

- وهل يمكن تغيير الشعار في مثل هذا الوقت القصير؟.

- سيقوم فودران بهذه المهمة.. سوف أذهب إليه في الساعة السادسة من صباح الغد..

- حسناً.. قبلت كل شيء..

وبينما هم كذلك طرق الباب أحد الخدم، وأقبل قائلاً:

- سيدتي.. جاء مسيو دي سارتين إلى هنا ويرغب في مخاطبتك في شأنٍ هام..

- مسيو دي سارتين. في مثل هذا الوقت.. أدخله..

نهض الجميع، وفي هذه اللحظة دقت الساعة مؤذنةً بالثانية صباحاً.. وعاد الخادم بعد دقيقة وفتح الباب معلناً قدوم مسيو دي سارتين الذي أحنى قامته أمام الكونتس، ثم إنحنى أمام الباقين فرداً فرداً.. ولم يظهر أقل دهشة لوجود روشفور.. كان سارتين في الحقيقة محور هذه المؤامرة التي تدير في الخفاء لإدماج الكونتس دي باري في البلاط رقم معارضة النبلاء وتكاتفهم لإحباطها، وكل ما كان يرغب فيه هو أن يبقى دوره في هذه المؤامرة طي الكتمان..لكنه مع ذلك لم يستفسر عن سبب وجود

روشفور.. فقد أدرك بالبديهة أن المعنى الوحيد لوجوده هنا هو إنضمامه إلى حزب الكونتس.. ولا كان سارتين رجلاً عملياً فإنه لم يضيع الوقت في المناقشة ومعرفة تفاصيل هذا الإنضمام..

قال سارتين: سيدتي.. لدي أنباء سيئة..

فقالت الكونتس:

- أليس هو حديث المؤامرة التي دبرت لسرقة مركبتي وحلاقي؟

- كلا يا سيدتي.. أنا لا أعرف شيئاً عن مثل هذه المؤامرة وما جئت إلا لكي أحدثك بشأن الكونتس دي بيارن.. هل وردت إليها هدية اليوم؟

- نعم.. وردت إليها سلة من الأزهار من سيدة تدعى مدام تيرجي..

فقال سارتين:

- تماماً.. وقد أبلغني أحد الجواسيس بوجود رسالة في رسالة الأزهار المذكورة..

- رسالة!

- نعم.. رسالة تشرح للكونتس دي بيارن حقيقة اللعبة التي إستدرجت بها للحضور إلى باريس..

- رباه!.. هذه العجوز البلهاء قد تقضي علينا بالفشل.. إني أعرف أطوارها تمام المعرفة..

فقال سارتين:

- متى وصلت سلة الأزهار؟

- في الساعة الرابعة..

وهل بقيت في جناحها الخاص منذ ذلك الوقت؟

- نعم..

فألقى دي سارتين نظرة على الساعة الموضوعة فوق الموقد وقال:

- مضت عشر ساعات وسبع دقائق.. إذا لم تكن الكونتس دي بيارن إكتشفت الرسالة في خلال هذه المدة نجوت يا سيدتي أسرعي إلى جناحها. وإذا إستطعت أن تستولي على تلك السلة اللعينة بكل محتوياتها، فلا تترددي.. يجب ألا تدع لها فرصة للعثور على السلة في الصباح..

غادرت مدام دي باري الغرفة دون أن تنبس بكلمة. فإجتازت الغرفة المجاورة وسارت في ممشى حتى تناولت مصباحاً صغيراً كان موضوعاً فوق طاولة، وإنثنت وهي تحمل المصباح إلى سلم ضيق يؤدي إلى الطابق العلوي.. ووقفت أمام الباب تنصت ثم فتحته برفق ودخلت إلى

غرفة الجلوس الخاصة بالكونتس دي بيارن.. ووقع نظرها على سلة الأزهار فوق طاولة مجاورة للنافذة.. وكان الباب المؤدي إلى غرفة النوم مفتوحاً قليلاً.. وبينما كانت مدام دي باري تدنو من السلة لحملها سمعت صوتاً صادراً من داخل غرفة النوم أوقفها، وتبينت في هذا الصوت أنين شخص يعالج الملأ قائلاً، ويهتف بهذه العبارة:

- النجدة!.. من يحمل النور؟!. أواه!.. ما أقسى هذا الألم؟

تقدمت الكونتس دي باري إلى الباب وفتحته دون أن تفوه بكلمة، وفي اللحظة التالية كانت في غرفة النوم, فشاهدت الكونتس دي بيارن ممددة فوق السرير نصف مغطاة بملابسها، ووقع نظرها على إناء (شكولاتة) مطروحاً على الأرض قرب الموقد، وقد لطخ الخشب اللامع..

هتفت مدام دي باري:

- يا إلهي ماذا حدث؟!

فصاحت العجوز:

- أواه.. أنا على وشك الهلاك.. كنت أدفىء قدح الشكولاتة فوق نار الموقد، فانكفأ.. أنظرى إلى ساقي..

أبرزت العجوز ساقها فلم تتمالك مدام دي باري أن تراجعت صارخةً كانت القدم محترقة متسلخة حتى منتصف الساق.. ولم تكن بشاعة هذا المنظر هي سبب صرخة مدام دي باري، بل يقينها بأن إندماجها في

البلاط أصبح الآن في خبر كان... فمن المحال أن تتمكن الكونتس دي بيارن من مرافقتها إلى فرساي وساقها على هذه الحال...

قد إستعد رجال شوازيل لكل شيء.. وكان تدبيرهم محكماً ذا فروع متشعبة ولكن هذا أخطرها.. ومع أن العجوز الممددة فوق السرير كانت تعاني ألماً قاسياً، فإنها لم تقو على إخفاء نظرة الفوز والتشفي التي لمعت في عينيها وهي تتطلع إلى الكونتس دي باري..

قالت دي باري: أخطأت خطأً كبيراً. ولو تدبرت النتائج الشخصية التي ستترتب على فعلتك لكنت أكثر حرصاً...

وخوفا من أن تفقد تماسك أعصابها ويدفعها الغضب إلى قذف المصباح في وجه العجوز الممددة، أسرعت إلى خارج الغرفة حيث تناولت سلة الأزهار وعادت إلى سارتين وأصحابه، فقذفت السلة فوق أحد المقاعد، فإنقلبت وتناثرت الأزهار فوق الأرض بينما إنفجرت باكية.. فهم الجميع كل شيء، و هتف جان:

- هل فطنت إلى الحقيقة؟

وقال دي سارتين وهو يبعد الفيكونت:

- هدئي من روعك يا سيدتي. لم نخسر بعد كل شيء.

فقالت المسكينة وهي تنتحب:

- أواه يا سيدي!. إنها لم تفطن إلى الحقيقة فقط. بل حرقت ساقها كذلك، فأصبح خروجها معي ضرباً من المحال.

روت عليهم ما رأت، ثم كفت عن النحيب وإنتصبت أمامهم وقد أطبقت قبضتيها ولمعت عيناها، وغدت أروع جمالاً من قبل، وجمعت فونتراي الأزهار، فلم تجد بينها أثراً للرسالة. وعجز جان دي باري عن الكلام، فلم يجد إلا أن يحطم إناءً خزفياً وقع نظره عليه. ولم يملك روشفور إزاء هذه الكارثة إلا أن يصب اللعنات صباً. أما دي سارتين فكان الوحيد الذي سيطر على أعصابه وتمالك شعوره. ثم قال:

- يستحيل عليها إذن أن تظهر في فرساي؟

- كل الإستحالة.

فقال دي سارتين:

- تشددي يا سيدتي، لم نخسر بعد كل شيء. ثقي أنك ستقدمين إلى جلالة الملك في بلاط فرساي في مساء الغد الساعة العاشرة وستتولى الكونتس دي بيارن تقديمك. دعي كل شيء في يدي. وستجري الأمور على ما يرام.

هتفت الكونتس قائلة:

- لعلك إذن ساحر!.

- كلا يا سيدتي. إني أعتمد في أفعالي على وساطة البشر..

فقالت الكونتس وقد لاح الأمل في نظراتها:

- إذا أعنتني يا مسيو دي سارتين في هذه المسألة، فسأدعو لك الله حتى مماتي.

فأجاب دي سارتين وهو يضحك:

- كل ما أسألك يا سيدتي هو أن تتعاوني معي على إدراك هذه الغاية.

- وما الذي يمكنني أن أصنعه؟

- جهزي جميع الترتيبات اللازمة لحفلة الغد. إن مسيو دي ووشفور شرح لي كل ما يتصل بالمؤامرة التي دبرت لسرقة مركبتك ورداءك وخطف حلاقك. وليس عليك إلا أن تكلفي الفيكونت بإستحضار المركبة الجديدة، وأن تستعيري رداء مدموازيل فونتراي، ثم تعهدي إلى أخلص خدمك بإستقدام الحلاق الذي عينه مسيو دي روشفور:

فقال رشفور:

- بل سأحضره بنفسي.

فقال دي سارتين:

- لا يا روشفور.. إني أدخرك لشيء آخر..

فأجاب الكونت دي روشفور:

- سلني ما تشاء.. أنا مستعد للقيام بأي دور، إلا دور المتفرج.

- سأعين لك عملاً كبيراً. لابد الآن من ذهابي.. إن الساعة قد جاوزت الثالثة صباحاً، وإذا رافقتني في مركبتي أوصلتك إلى منزلك، وشرحت لك ما أريد.

فقالت الكونتس مخاطبة مدير البوليس:

- وهل أراك ثانية يا سيدي؟

- لن تريني حتي حفلة التقديم، حيث أرجو أن أحظى بشرف لثم يدك. ولا تنسي أنه لا دخل لي في هذه المسألة من أولها إلى آخرها، بل يجدر بك أن تتددى بى أمام أصدقائك الذين هم بلا ريب على إتصال بأعدائك.. والآن. لو كنت مكانك لأرسلت طبيبي الخاص لمعالجة ساق مدام دي بيارن.

وودعهم دي سارتين.. أما روشفور فقد دوّن إسم الحلاق في قصاصة ورق أحضرها جان، ثم طبع قبلةً على أنامل مدموازيل فونتراي ورأي في عينيها نظرة تضمنت أكثر مما كان يطمع فيه. ولما وصل سارتين إلى البهو إلتف بعباءة سوداء ووضع على رأسه قبعة ذات إطار عريض ثم دلف إلى داخل المركبة التي كانت تنتظره عند الباب يتبعه روشفور، وكانت هذه المركبة من النوع الذي

يستخدمه مدير البوليس حينما يرغب في إخفاء حركاته.. فقال روشفور حينما سارت المركبة:

- إذن لم تحضر في مركبتك الرسمية؟

فأجاب سارتين:

- كلا يا عزيزي.. إن مركبتي لا تزال تنتظر عند قصر شوازيل.. وقد تسللت من القصر بعد أن أوعزت إلى أحد أعواني بإنتظاري بهذه المركبة البسيطة عند نقطة معينة مجاورة القصر.

- معنى هذا أنك دبرت وجود هذا التابع من قبل؟

- أعلم يا عزيزي روشفور أن ثلاثة من خدم شوازيل هم في الواقع من أعواني.. وقد علمت من أحدهم بمكيدة سلة الأزهار.. ألست تقيم في شارع دي لونجفيل؟

فقال روشفور ضاحكاً:

-آه!. أراك تعرف عنواني الجديد؟

- إني أعرف كل شيء عنك يا عزيزي روشفور. والآن، أرجو أن تطل برأسك من النافذة وتطلب إلى الحوذي أن يذهب بنا إلى شارع دي لونجفيل.. فإنه لا يسعني أن أعود في الحال إلى إدارة البوليس ولابد من الإلتجاء إلى ضيافتك.. نحن متبوعون.

- متبوعون؟!

- نعم.. إن منزل دي باري وضع تحت المراقبة طول اليوم ولما جئت بهذه المركبة شاهدت أحد أعوان شوازيل الذي لابد أن يكون قد حاول إستجواب الحوذي أثناء وجودي بالمنزل.. وهي محاولة فاشلة في الواقع لأن الحوذي المذكور ليس سوى الجاويش بونفالو.. وأنا واثق الآن أن هناك رجلاً يركض خلفنا ولذلك أفعل ما آمرك به.

أطل روشفور برأسه من المركبة وذكر للحوذي عنوان منزله ثم قال وهو يعتدل في مجلسه:

- أرى أعوان شوازيل شديدي اليقظة!.

- بل هم أيقظ مما تظن... ولا ريب أنه حينما تنتهي المسألة وتتم حفلة الإستقبال بالبلاط على الوجه المرغوب فسيتكاثر عدد أصدقاء الكونتس حتى تعجز عن إحصائهم. لكنها هالكة إذا إنتصر شوازيل ولو فازت، ثق أنها إذا نجحت في خطوتها الأولى بالبلاط فلن يستغرق القضاء على شوازيل سوى شهور قلائل.

فقال روشفور بجرأته المعهودة:

- ما أظنك يا سارتين تفعل هذا حباً في أسرة دي باري؟

فاجاب سارتين:

- بل لتحطيم شوازيل.

الفصل الرابع

همس دي سارتين بكلمة موجزة إلى الحوذي، ثم دخل إلى المنزل دون أن يلقي نظرة واحدة إلى الشارع ليرى أن كان هناك من يتعقبه. ولما صعد إلى مسكن روشفور خلع معطفه وقبعته في غرفة الجلوس وقال وهو يجلس:

- من سوء حظك أنك قتلت رجلاً من أعوان شوازيل.

- إني قتلته دفاعاً عن النفس

- ليست مسألة القتل هي التي تهم.. بل المهم هو أنك إعترضت طريق شوازيل أثناء محاولته إستطلاع أسرار دي باري ومن الممكن ألا يتاح له معرفة ما حدث.. ولكنه إذا عرف الحقيقة فستصبح في حاجة إلى حماية قوية، وسنبذل غاية الجهد حتى نوفر لك هذه الحماية. ولنتكلم الآن عن مسألة الكونتس.. فأنت تعرف أن العجوز بيارن قد حيل بينها وبين الذهاب إلى البلاط.. ولا سبيل كذلك إلى الإستعانة بإمراة غيرها سواء في باريس أوفرساي وأنا كمدير للبوليس أملك سلطة واسعة.. لكني عاجز عن تقديم أية مساعدة.. فسلطتي لها حدود وقيود، وليس في وسعي أن أخاطب إحدى نساء البلاط قائلاً (ستقومين بتقديم مدام دي باري في البلاط هذه الليلة) لكني أعتقد مع ذلك أني أملك من القوة ما أضمن به تحقيق هذه الغاية.

- أنت تتكلم بالألغاز.. أراك تعرب عن عجزك ومن

ناحية أخرى تقرر أن لديك من المقدرة ما تجعل به إدماج الكونتس في البلاط أمراً محققاً.. أرجو أن تفسر ما ترمي إليه.

- إعلم يا روشفور أن ورائي من دهاة الرجال ما لا يوجد مثله في بلاط فرساي أو بين أعوان شوازيل.. وهم على أتم إستعداد لإستخدام مواهبهم عند إشارة مني، وإذا كان شوازيل قد نجح أو يوشك أن ينجح في الإستيلاء على مركبة الكونتس دي باري وإذا كان قد توصل بطريقةٍ لحرق ساق الكونتس دي بيارن وتركها طريحة الفراش، فإنه لم يحسب حساباً لسارتين ورجاله الذين عنيت عناية فائقة بإختيارهم لهذه المناسبات. إني سأستعين بأحدهم للقيام بمعجزة من أجل مدام دي باري.. هو رجل يدعى فيرمينار.. وهو يقيم في فندق جامبرينوس وبما أنك وعدت أن تخدمنا فسيكون نصيبك أن تقصد إلى هذا المكان غداً وقت الأمر في رفقة مساعدي لافين أمهر الجواسيس، ثم ترافق فيرمينار إلى منزل دي باري. لكن لافين لن يذهب إلى منزل دي باري لأني أعددت له مهمة أخرى.. وفوق ذلك فيحسن ألا يقترب من هذا المنزل لأنه مهما كان بارعاً في التنكر فإن شوازيل سيبث حوله رجالاً أشحذ أنوفاً من كلاب الصيد.

- لنتكلم بشيء من التفصيل.. أين أقابل مساعدك لافين؟

- سيحضر إليك هنا بنفسه..

- حسناً.. وعلى بعد ذلك أن أذهب معه إلى فندق جامبرينوس حيث أقابل فيرمينار وأرافقه إلى منزل دي باري المسالة سهلة إلى هذا الحد.

- ربما.. لكن لابد أن تفتح عينيك جيداً. فإن فيرمينار من عشاق الخمر، وإذا أفلت منك في حانة. إستسلم للشراب وضاعت الفائدة منه..

- وماذا أقول لفيرمينار؟

- لن تقول له شيئاً لأنك ستكون غريباً في نظره ولن يقبل منك تعليمات.. أما لافين فيعرفه جيداً، وسوف يلقنه الأوامر اللازمة ويسلمه إليك..

- حسناً.. سأطيع أوامرك وإن كانت في الواقع تحيرني..

- لن أكشف لك عن أغراضي لسببٍ واحد هو أني سأفضي بها إلى لافين، إن الساعة جاوزت الرابعة صباحاً، ولابد من رجوعي إلى إدارة البوليس. يوجد رجلٌ مثابر على المراقبة قرب الزاوية، ويجب ألا يتبعني.. ولذلك إلبس قبعتي الرحبة وعباءتي السوداء.. نحن متماثلان في القامة.. عليك الآن أن تخرج من المنزل وتسير في الشارع ثم تنعطف منه إلى شارع بكبيس ثم تعود إلى هنا سالكاً شارع فالبير. وسيتبعك الجاسوس المغفل طوال المرحلة..

- وأنت؟

- أما أنا فسأتسلل سراً إلى إدارة البوليس بينما تتولى أنت

إستغفال ذلك الجاسوس..

- لكنه سيتبعني ثانيةً إلى هنا..

- طبعاً.. وسيراك تدخل إلى المنزل وتبقى به.. وسيتكفل لافين بإحضار قبعتك وعباءتك داخل ربطة.. المهم أن أصحابنا لن يعرفوا أن صاحب العباءة السوداء والقبعة الرحبة الذي غادر منزل دي باري مع مسيو روشفور، قد عاد إلى مقر سارتين..

- ولكن ما العمل في مركبتك؟

- إني لقنت الحوذي أن يعود بها إلى المكان الذي جاءت منه، ولن يتبع أصحابنا مركبةً خالية.. ولو فعلوا حقاً فلن يصلوا إلى نتيجة، لأنها جاءت من إسطبل تملكه زوجة أحد أتباعي.

تطلع روشفور في دهشة إلى هذا الرجل الغامض الذي لا يخطو خطوة قبل أن يقدر موضعها.. لكنه لم يملك إلا أن ينفذ تعليماته بحذافيرها.. وكان يشعر طول الوقت بشبح مجهول يتعقبه متستراً بالجدران..ولما عاد روشفور إلى المنزل ثانياً ألفى دي سارتين قد إختفى.. ولم يلبث إزاء المجهود المتصل الذي بذله في هذه الليلة الحافلة أن استلقى على فراشه وهو في ملابسه، وغرق في نوم عميق..

الفصل الخامس

إستيقظ روشفور ليجد أشعة الشمس تغمر الغرفة.. وكان أول ما مر بخاطره هو خيال مدموازيل فونتراي..ولكنه لم يعرف أن هذه العاطفة الجديدة قد ربطته جهاراً بمصير دي باري، وزجت به حتى قمة رأسه في خضم السياسة.. حيث يستهدف لمغارم كبيرة ليس أقلها فقدان أملاكه الواسعة في مقاطعة الأوفرن، وخسارة شبابه الغض، وكان روشفور شخصية محبوبة في أوساط باريس وفرساي.. ولا ريب أن معاداته شوازيل قد تعرضه لمصادرة أملاكه أو للنفي أو للسجن.. لكن من كانت له طبيعة روشفور لا يحفل بهذا.. وكل ما يهم هو أنه أصبح عاشقاً، وأن معشوقته لا يوصل إليها إلا من هذا الطريق.. قرع روشفور الجرس منادياً وصيفه (لرمينا)، ثم إغتسل وإرتدى ملابسه بكل عناية.. ولما جلس للإفطار كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة.. وجاءه الوصيف بعد قليل يعلن إليه حضور لافين، فأمر بإدخاله على الفور ونهض لإستقباله مرحباً... كان لافين رجلاً متوسط العمر والطول، تميزه عينان شديدتا البريق.. ومع أن روشفور لم يره من قبل، فإنه شعر بميل إلى هذا الرجل وإحتفى به إحتفاءً كبيراً.. وقال لافين بعد أن تقدم بهما الحديث:

- إني تركت العباءة والقبعة لدى خادمك يا سيدي.. فقد أمرني رئيسي الكونت دي سارتين أن أحملهما معي.

ـ إني نسيتهما تماماً.. شكراً لك.. أرجو أن تجلس وتتناول شيئاً من النبيذ ريثما تأتي المركبة لنقلنا إلى حي بورشيرون..

وأخذا يتبادلان حديثاً عادياً بينما راح روشفور يتم إفطاره، ولم يذكر كلاهما شيئاً عن موضوع الرحلة حتى صارا في المركبة فقال روشفور:

- هل نتوقع وجود مسيو فيرمينار في الفندق؟

- نعم يا سيدي.. فهو الآن مفلس تماماً، لذلك يتجنب النزول إلى الشوارع.

عجب روشفور كيف يتسنى لمن كان هذا شأنه أن لا يسدي معونة ما إلى الكونتس دي باري ذات الحول والطول.. لكنه لم ينبس بكلمة حتى لا يظن لافين أنه يستدرجه إلى الكلام.. ولما وقفت بهما المركبة أمام فندق جامبرينوس، ظهر عند المدخل رجل ضخم الجثة ملأ الباب بهيكله الكبير.. فإستقبل القادمين وتقدمهما إلى غرفة فسيحة فرشت أرضها بالرمال، فيها يتناول القادمون طعامهم وشرابهم..وكان لافين يعرف تيرجي (صاحب الفندق) رجلاً مرحاً، لكنه رآه هذه المرة عابساً على غير عادته.. فعجب في نفسه من هذا التغير. على أنه قال له:

- جئنا يا تيرجي لمقابلة مسيو فيرمينار.. فهل هو هنا؟

- هو هنا يا مسيو لافين منذ أسبوعين لم يغادر الفندق

أثناءهما ساعة واحدة.. وقد طرد نصف الزبائن، ومازالت قائمة حساب تتضخم كل يوم.. أقسم أني أشعل النار بيدي في الفندق إذا بليت بشاعرٍ آخر.. إسمع..

وإنبعث من شرفة مجاورة صوت مرتفع يضحك حينا وتحدث حيناً آخر.. ثم يغني وينهمك في ما يشبه الحوار.. وفجأة سمعت صيحة عالية، أعقبها صوت إنقلاب مائدة على الأرض.. فهتفت روشفور:

- ماذا يفعل هذا المخلوق العجيب؟

فأجاب صاحب الفندق:

- لا شيء.. هو منهمك في تأليف رواية تمثيلية..

- وهل يكتب مسيو فيرمينار رواية بقدميه؟

- نعم.. بل وبلسانه ورأسه وقبضتيه.. إنه يقوم بتمثيل رواياته أثناء تأليفها.. وهو منهمك بتأليف قصة مبارزة، والله وحده يعلم كم من الأثاث أتلفه ولولا معرفتي به من زمن ولولا ما أسداه إلي من خدمة في مناسبة معينة لقذفت به خارج الفندق مع رواياته وقصائده..

إنقطعت الأصوات الصادرة من داخل الغرفة كأنما شعر صاحبها بالحديث الدائر في الخارج، ثم دفع الباب بقوة، وأطل منه رجل قصير القامة قوي البنية حليق اللحية، ذو وجه دائم الحركة وعينين لامعتين نفاذتين، وكان مثمراً عن ساعديه وهو ممسكاً بيده قلماً.. هتف الرجل موجهاً حديثه

إلى صاحب الفندق غير ناظر إلى القادمين:

- إن ثرثرتك المستمرة قد أفسدت قطعة من أروع القطع التي أدبجها.

عند ذلك إنفجر تيرجي صائحاً وقد إستولت عليه نوبة من الغضب:

- وما رأيك في موائدي وكئوسي المحطمة؟ وفي الستائر التي تمزقها بطرف سيفك؟.. نتكلم عن مسرحياتك وقد طردت زبائني وأتلفت أثاث غرفتي؟ حدثني عن الفرنكات التي تدين لي بها؟

فقال الشاعر في لهجة متغيرة:

- سأسددها لك..

ولما وقع نظره على لافين إستطرد قائلاً:

- آه.. مسيو لافين..

أما لافين فإنه إستأذن روشفور وتقدم من الشاعر فجذبه من ذراعه ودخل به إلى الغرفة المجاورة وأغلق الباب خلفهما.. وجلس روشفور إلى مائدة وطلب زجاجة من النبيذ وكأسين ثم قال مخاطباً تيرجي:

- يظهر أن مسيو فيرمينار غريب الأطوار..

- أنه يحسن صنعاً يا سيدي لو إلتفت إلى مهنته الحقيقية

وأخلص لها..

- وما هي مهنته؟

- هو ممثل يا سيدي.. وكان يعمل في مسرح موليير، لكنه تشاجر مع مدير المسرح واعتدى عليه، ولولا تدخل مسيو دي سارتين الذي شاهد تمثيله وأعجب به لكان الآن في السجن.. لكنه لم يقنع بما حقق من براعة في فنه، فعكف على تأليف مسرحية هزلية ينافس بها موليير نفسه.. وبذل جهده حتى سمح له المختصون بتمثيلها في بلاط فرساي.. وجعل أفراد الحاشية نفسهم يقومون بتمثيل أدوارها.. ولو إقتصر الأمر على هذا لهان الخطب، ولكنه راح يسب أفراد الحاشية بعد إنتهائهم من التمثيل، حتى إضطر مسيو دي كواني إلى تأديبه بعصاه.

قال روشفور: سمعت بهذه القصة، لكني لم أقف على التفاصيل نظراً لغيابي عن باريس..

ولما خرج لافين، فرافق روشفور إلى الشارع حيث كانت المركبة تنتظر.. وقال له:

- إني سويت كل شيء مع فيرمينار.. لكن لابد من ذهابه إلى منزل دي باري بحالة لا يمكن معها معرفة شخصيته، لذلك أرجو أن تجلس في المركبة وسيلحق بك بعد قليل..

- حسناً.. هاك جنيهاً لدفع الحساب، ويمكنك ترك الباقي

لصاحب الفندق..

- شكراً لك يا سيدي.. لن تراني بعد الآن، فقد إنتهى دوري في هذه المسالة..

- حسناً.. مع السلامة..

عاد لافين إلى داخل الفندق، وطلب روشفور من الحوذي أن ينتظر ودلف إلى المركبة.. ومرت عشر دقائق فأخذ الملل يدب إلى صدر روشفور.. وفيما هو كذلك خرج من الفندق عجوز زري الهيئة، تطلع إلى المركبة بعينٍ لا تقوى على النظر.. ثم دنا منها ووضع يده على بابها. لم يكترث به روشفور، وهم أن يسأله عما يريد.. وقبل أن يفعل لمح لافين عند باب الفندق يشير إليه إشارة مطمئنة.. فأدرك أن هذا العجوز البائس هو فيرمينار.. فأعانه على الصعود إلى المركبة، وسارت المركبة إلى الوجهة المرسومة لها.

قال روشفور ضاحكاً:

- حسناً يا مسيو فيرمينار، لو لم أتشرف برؤيتك وقت أن كنت أصغر سناً، لتعذرت على معرفتك في كهولتك..

ـ ليست الصعوبة في إقتباس شخصية العجوز، وإنما هي في إتخاذ هيئة الشاب.. هل رأيتني أثناء قيامي بالتمثيل؟

فقال روشفور وهو يعلم أنه يكذب:

- كثيراً.. وقد أعجبت بك أشد الإعجاب.

- هذا كرم منك يا سيدي.. أما أنا فلم أعجب بتمثيلي.. وإن كنت أراه مقبولاً.. لكن الواقع أني لم أخلق للتمثيل، وإنما ولدت مؤلفاً مسرحياً.

- وهل كتبت مسرحيات كثيرة؟

- نعم.. والآن يا سيدي.. سأنسى أنني ممثل، وسأذكر أني رجلٌ عجوز فقط..

إنعطفت المركبة في فناء منزل دي باري، فترجل فيرمينار متوكئاً على ذراع روشفور.. وكان جان دي باري ينتظرهما في البهو.. والظاهر أن دي سارتين لقنه ما يفعل.. فإنه لم يكد يبصر فيرمينار حتى تشبث به كأنه كنز ثمين، ثم قاده في ممشى قريب بعد أن إعتذر إلى روشفر ورجاه أن ينتظر عودته.. ووقف روشفور يتأمل طائفة من الدروع والأسلحة التاريخية التي توارثتها أسرة دي باري.. وفيما هو كذلك لاحت منه إلتفاتة فوقع نظره على جافوت حاملة صحفه وبعض الكؤوس.. فما كادت تلتقي عيناها بعينيه حتى تورد وجهها وغضت نظرها.. ثم تطلعت إليه وعلى فمها إبتسامة عذبة.. كان روشفور قد نسيها.. لكنها لم تنسه فقيام روشفور بإنقاذ الفتاة قد ترك في نفسها تأثيراً قوياً، وملأ ذهنها بخيال روشفور.

قال روشفور:

- صباح الخير يا صغيرتي..

- أسعدت صباحاً يا سيدي.

- إلى أين تذهبين؟

- إلى مخدع سيدتي الكونتس، وإن كنت الآن في غير خدمتها.

- ومن تتبعين إذن؟

- مدموازيل فونتراي.. فإن جاكلين وصيفة الكونتس الخاصة قد عادت صباح اليوم.. وقد أعجبت بي مدموازيل فونتراي وإلتحقت بخدمتها..

- حسناً.. وأين تقيم مدموازيل فونتراي؟

- لها مسكن خاص بشارع (سان دومنيك) حيث تقيم مع مربيتها الهندية العجوز..

في هذه اللحظة سمع وقع خطوات.. فإختفت جافوت بما تحمل.. وألفى روشفور نفسه وجهاً لوجه أمام مدموازيل فونتراي التي دخلت إلى البهو. إنحني كلاهما.. وقال روشفور:

- كيف الحال يا آنسة؟

- على خير ما يرام أيها السيد..

وتقدمته إلى داخل الغرفة الصغيرة التي إفترقا عنها منذ

ساعات معدودة، وقالت:

- إن المركبة قد سوى أمرها.. ووصل حلاقك الذي وضعه الفيكونت جان تحت الحراسة وملأ جيبه بالجنيهات، وردائي الخاص يجري الآن تعديله حتى يناسب الكونتس. الواقع أننا تغلبنا على جميع الصعاب، والفضل في هذا راجع إليك..

- كلا يا آنسة.. بل الفضل للصدف.. فلو لم أذهب إلى حفلة شوازيل لما إلتقيت بك..

- لعلك تقصد أنه لولا ذلك لما وقفت على المؤامرة التي دبرت لسرقة المركبة والرداء.

- ولولاك لبقي سر هذه المؤامرة مدفوناً في صدري.. إني أمقت دسائس البلاط ومكائده ..وهأنذا وضعت نفسي في طريق شوازيل، فقتلت رجلاً من أعوانه، وأخذت على عاتقي إفساد أمانيه.. لكن هذا ليس شيئاً مذكوراً في سبيل خدمتك.

حدقت مدموازيل فونتراي إليه في ثبات حيث وقف أمامها يعلن إليها خضوعه وقد فارقه ضحكه الدائم، ولذا قالت:

- شكراً لك يا سيدي.. والآن لنتكلم عن موضوع الكونتس دي بيارن..

- آه.. إني نسيت الكونتس.. كيف حالها اليوم؟

- لا تزال حالتها غاية في السوء..

- وكيف تكون في الليل؟

- سنعجز تماماً عن الإنتقال إلى فرساي..

وقبل أن يهم روشفور بالكلام فتح الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة وظهرت منه مدام دي باري نفسها مشرقة الوجه، منتعشة الخاطر. وقالت وهي تبسط يدها إلى روشفور:

- هل سمعتك تتحدث عن الكونتس دى بيارن؟

- نعم يا سيدتي.. ويحزنني أن أسمع أنها لا تزال مريضة.

- إذن فقد بلغتك أنباء مكذوبة.. أن الكونتس دي بيارن على وشك الشفاء، وستكون على تمام الإستعداد لتقديمي في حفلة المساء.

إبتسمت مدموازيل فونتراي، ولم يملك روشفور وهو يسمع هذه التصريحات المتناقضة إلا أن ينقل نظره بين السيدتين. بينما إستطردت الكونتس:

- يمكنك أن تنقل هذا النبأ إلى الجميع.. نعم في وسعك أن تصرح أن الكونتس دي بيارن قد وقع لها حادث سير، وأنها قد شفيت تماماً.. والآن لابد لي من التخلص منك يا عزيزي روشفور، فإن ورائي مشاغل لا حصر لها، لكنها ستمتد حتى هذه الليلة فقط، حيث نلتقي في

فرساي.. ستكون هناك بالطبع؟

- نعم.. سأكون حاضراً لمشاهدة إنتصارك. ومدموازيل فونتراي؟.

فأجابت الفتاة:

- إذا كنت لن أحضر بالجسد، فسأكون حاضرة بالروح.. لكن ردائي سينوب عني..

فقال روشفور:

- آه!.. حتى هذا لا بأس به..

ثم إنصرف روشفور ضاحك الوجه منتعش الخاطر.. فقد بدا له أن كل شيء على ما يرام بينه وبين كامي فونتراي.

الفصل السادس

تعتبر الكونتس دي بيارن صورة عتيقة لأهل القرون الوسطى.. فهي عجوز متعجرفة محدودة الفكر، مملوءة الرأس بالوساوس والخرافات، وقد إشتبكت منذ أعوام في نزاع قضائي مع أسرة من أهل بلدتها حتى أفلست وأصبحت في فقر مدقع.. وكان من السهل أن تستدرج إلى باريس بدعوى أن قضيتها توشك أن يحكم فيها لمصلحتها. فاستضافتها أسرة دي باري وعللتها بالآمال حتى رضيت بموافقة الكونتس دي باري إلى البلاط لتقديمها في حفلة إستقبال خاصة.. ومع أن هذه العجوز كانت تمقت هذه المهمة فإنها قبلتها من أجل قضيتها..فتخيل إذن مقدار الصدمة التي شعرت بها حينما علمت من الرسالة التي دبر شوازيل إرسالها إليها في سلة الأزهار أنها قد خدعت وغرر بها.

الواقع أن الحقيقة قد إنكشفت لها في طرفة عين، وأيقنت أنها تقوم بدور خادمة لمطامع دي باري، ولن تلبث بعد إنجاز مهمتها أن تعود إلى قصرها على ضفاف نهر التيمز محطمة الفؤاد.. ولما رأت أنها في أيدي أناس أقوياء عزمت على التوسل بالحيلة، ولذلك أعدت قدحاً ساخناً من الشيكولاتة وسكبت ما به فوق ساقها وقدمها.. ولم يكن ألمها الجثماني شيئاً بالقياس إلى راحتها النفسية.. وكان مشهد وجه مدام دي باري حينما رأت الجرح

أطيب في نفسها من تأثير البلسم الذي وضعه الطبيب نوارمو على قدميها.. في الصباح تمددت فوق الفراش وقد خف ألمها نسبياً وراحت تمني النفس بمشاهدة دموع دي باري وهياج الفيكونت جان.. وبدلاً من ذلك عادها الطبيب نوارمو حوالي الظهر بصحبة شون دي باري الأخت التي قدمت من ضاحية لوسيين.. وقد أبدت عطفاً شديداً على ما أصاب الكونتس، وكانت حالتها النفسية في أتم صفاء.. وقالت العجوز حينما إنسحب الطبيب:

- ما أضعفنا نحن بني البشر لولا هذا الحادث المؤسف لكنت الآن مرتدية ملابسي إستعداداً لمرافقة الكونتس إلى فرساي.. أما الآن فإني أكون سعيدة الحظ إذا تمكنت من مغادرة الفراش بعد أسبوع، وحتي إذا تم ذلك فلابد من حملي من هذا المنزل إلى مركبتي..

- نحن جميعاً يا سيدتي رهن مشيئة الأقدار، وليس أمامنا إلا إحتمال ما يصيبنا بصبر، آملين في رحمة الله..

إهتاجت العجوز حينما آنست هذا الإطمئنان العجيب الذي أظهرته شون، ودلتها الغريزة على أن أعداءها يبيتون تدبيراً جديداً.. وهتفت:

- إن ما يؤلمني هو عجزي عن المساهمة في حفلة إستقبال الكونتس وآداء الواجب نحوها.. وإن عذابي الجسدي هين بالقياس إلى ما أشعر به من ألم لحرماني من هذه المناسبة

الفريدة..

- لا حيلة في حكم القدر.. وكل ما يهمنا الآن هو الإطمئنان على صحتك..

غُلبت الكونتس دي بيارن على أمرها وأدركت أنها هزمت.. وخطرت لها فكرة، فقرعت الجرس القريب منها، ولما جاءتها الخادمة طلبت إليها أن تستدعي لها مدام تيرجي مواطنتها الريفية التي أرسلت إليها سلة الأزهار حيث أنها تشعر بسوء حالتها. وبعد خمس دقائق فتح الباب وأقبل الفيكونت جان دي باري مشرق الوجه.. فذكر لها أن الخادمة ذهبت لإستدعاء مدام تيرجي التي ستأتي في الحال.. وسألها أن كانت في حاجة إلى شيء، ثم إنسحب في تلطف كما جاء، وحوالي الساعة الواحدة عادت الخادمة فأخبرتها أنها لم تجد مدام تيرجي بمنزلها، ولكنها تركت لها رسالة للحضور حال عودتها..فأدركت الكونتس أنها خدعة للمرة الثانية، وأن الخادمة لم تفارق المنزل.. فمدت يدها تحت الوسادة وأخرجت منديلاً ملفوفاً حلت عقدته وأبرزت منه جنيهاً ذهبياً وقالت للفتاة:

- هذا لك..

فلما دنت لأخذ الجنيه ردته العجوز تحت الوسادة قائلة:

- هو لك حينما تصل مدام تيرجي، فإذهبي إليها الآن وأخبريها أن الكونتس دي بيارن في حاجة إليها،

وعند ذلك أعطيك الجنيه.. لكن لا تذكري لأحد أنني أرسلتك.. فإن السر يتصل بعض الممتلكات في الأرياف.. هل فهمت؟

هزت جانيت الخادمة رأسها علامة الإستسلام لهذه الرشوة وإنصرفت للقيام بالمهمة المطلوبة..وحوالي الساعة الخامسة جاءت خادمة أخرى تحمل صحفة عليها بعض الحساء.. فقالت العجوز:

- أين جانيت؟

فأجابت الخادمة.. إنها خرجت ولم تعد، ولا تدري إلى أين ذهبت؟ وتناولت العجوز الحساء وأدركت أنها خدعت للمرة الثالثة. وكان عزاؤها الوحيد أنها لم تخسر الجنيه..

وقرعت الجرس حينما بلغت الساعة السادسة طالبة إنارة الغرفة.. فأحضرت الخادمة مصباحاً وشرعت في إضاءة الشموع الموضوعة على طاولة الزينة، ولما نهرتها العجوز طالبةً إليها أن تكتفي بالصباح فإنسحبت الخادمة وتركت العجوز مبهورة بهذا الضوء الساطع. وما كادت تمضي خمس دقائق حتى سمعت العجوز نقراً على الباب، ودخل رجل هو فيرمينار.. وكان يحمل على ساعده الأيسر ملابس مدام دي بيارن، وبيده اليمنى شعر مستعار مما كانت تستخدمه نساء البلاط المتقدمات في السن في ذلك العهد وكذلك ربطة أخرى بها بعض الأدوات. إنحنى فيرمينار

عند دخوله، ثم تقدم رأساً إلى طاولة الزينة حيث وضع فوقها الشعر المستعار والربطة، بينما أغلقت الباب بل مجهولة من الخارج.. هتفت العجوز وهي تجلب الجرس:

- شعري.. ملابسي! رجل معي في الغرفة.. إفتح الباب أيها السيد.. وإلا صرخت!

فقال فيرمينار وهو يضع الملابس على مقعد:

- سيدتي.. نحن متساويان في العمر.. فهدئي روعك.. وإعتبريني غير موجود.. وفضلاً عن هذا فإني لست رجلاً، وإنما أنا فنان.. وما جئت إلا لكي أعرب لك عن تقديري لشخصك الكريم، وذلك بتمثيل صورتك.

وجذب مقعداً قرب الطاولة وأخذ يفك الربطة التي كانت تضم زجاجة من الصبغة وفرشاً وبعض أدوات أخرى..وراحت العجوز المنطرحة فوق الفراش تراقبه وكأنها تحت تأثير سحر.. ترى ما هي المكيدة الجديدة التي تدبرها أسرة دي باري؟

الفصل السابع

كانت فرساي في هذه الليلة شعلة من الأنوار. وقد إجتذبت إليها العالم بأسره ممثلاً في أشخاص السفراء والوزراء المفوضين، كما إجتذبت جميع أفراد الحاشية الملكية، وجدها هائلاً من أهل باريس يضم الصغار قبل الكبار.. فغصت بهم الطرقات المؤدية إلى القصر وراحوا يتناقلون جميعاً كلمة واحدة.. دي باري..

كانت أنباء التجاذب والتنازع في دوائر البلاط قد تسربت إلى أسماع العامة.. وسرت بينهم في هذه الليلة إشاعة تتضمن إقصاء دي باري في آخر لحظة وإلغاء حفلة الإستقبال التي كانت أعدت لها، كما تواترت شائعات أخرى تقول بأن الكونتس مريضة وأن الفيكونت جان قد أهان الدوق دي شوازيل، وأن زوجة ولي العهد قد إستدعيت إلى فرساي على عجل، وأنها رفضت مقابلة محظية الملك.. إلى آخر هذه الأقوال التي لا حصر لها.

وصل روشفور إلى القصر عند الساعة التاسعة، أي قبل موعد الحفلة بساعة.. وكان وصوله عقب وصول الدوق دي ريشيليو بقليل.. فوجد مداخل القصر غاصة بالمدعوين.

وفيما هو يمر قرب نافورة إلتقى بسارتين الذي كان قد وصل قبيل الدوق دي ريشيليو.. فوقف الإثنان معاً،

وقال دي سارتين أثناء الحديث:

- كيف وجدت لافين؟

- هو شخصية محبوبة ظريفة.. لكن أظرف منه مسيو فيرمينار المؤلف الخطير.. الذي يدبج مسرحياته بقدميه!

أومأ سارتين إلى روشفور أن يلتزم الصمت.. ولما وصلا إلى الممشى المؤدي إلى بهو المرايا جذب مدير البوليس روشفور إلى زاوية وقال له:

- لا تفه بإسم فيرمينار هنا.. إن للجدران آذاناً تسترق السمع، وللتماثيل ألسنة تتكلم.. إنسَ هذا يا عزيزي روشفور وأذكر تلك الحكمة الخالدة التي تقول: «إنسَ حتى لا ينساك الناس».

- إن ترجمة هذه الحكمة بلغة أخرى: «إنسَ حتى لا تسجن في الباستيل».

- تماماً..

- إذن سأنسى إسم فيرمينار.. لكن أخبرني.. كيف الحال؟

- أي حال؟.

- أعني مسألة إستقبال الكونتس؟

- على خير ما يرام..

- إذن فإن السيدة ذات الساق المنسلخة..

- صـــــــــه!..

- لا يوجد أحدٌ بقربنا.. إني كنت فقط أسأل عن صحتها..

- حسناً.. لا تزال حالتها سيئة..

- هل ستأتي إلى هنا هذه الليلة؟

- سترى.. لا تسألني عنها بعد ذلك.. وفوق هذا توجد مسألة أخرى أحب أن أتكلم عنها.. إن الرجل الذي قتلته في الليلة السالفة إكتشفت جثته..

فقال روشفور ضاحكاً:

- حسناً.. لست أحسد صاحب الإكتشاف على إكتشافه.

فقال دي سارتين:

- لا أهتم بوجود عشرات مثله قتلى في شوارع باريس كل يوم لكن يجب عليك في هذه المناسبة المعينة أن تلزم الحذر.. فإن الذي وجده ليس واحداً من رجالي.. بل من رجال شوازيل.

فقال روشفور في جد:

- آه.. هل هذا هو الواقع؟

- نعم.. وقد طلب إلي أن أحقق في هذه المسألة.. ولو كان هذا كل شيء لهان الخطب.. لكن الخطر هو أن شوازيل ولا ريب قد أخذ في تحقيق الحادث بنفسه.. أحس روشفور بشيءٍ من القلق، فهو لم يكن يحب أن يكون للقتيل أي إتصال بالدوق دي شوازيل..

لم يشعر روشفور بتأنيب الضمير للقضاء على ذلك الشرير، لكنه رأى أن شوازيل إذا عرف الحقيقة، فسيثار للقتيل مهما كان يستحق هذا المصير..

على أنه مع ذلك نفى هذه المسألة من خاطره، وسار مع جموع المدعوين في بهو المرايا قاصداً إلى قاعة التشريفات، حيث تتم حفلة إستقبال الكونتس دي باري..

مر روشفور في طريقه بالكونت كاميس الذي كان واقفاً مع زوجته يتحدثان إلى أحد النبلاء..

كانت مدام كاميس أكبر سناً من زوجها، بسيطة المظهر، ذات عرجٍ خفيف.. وقد حار الناس في تعليل زواج الكونت كاميس بهذه السيدة التي كانت فوق صفاتها السالفة فقيرة لا تملك مالاً ولا عقاراً.. وكان الشائع أن كاميس خرج من هذا الزواج بصفقة المغبون..

كان كاميس مولياً ظهره إلى ناحية روشفور، لكنه رأى وهو واقف في مكانه خياله ينعكس في المرايا وهو يمر بجانبه متجهاً إلى قاعة التشريفات.. بيد أن كاميس تظاهر

بأنه لم يلتفت إلى عدوه وإستمر في حديثه..

خلق روشفور من طينة لا تعرف معنى الإعتذار مهما تورط في الخطر.. وكان كاميس صديقه أو على الأقل أحد معارفه الأقربين، وقد لطمه روشفور على وجهه، وإذا كان كاميس لم يتقدم لغسل هذه الإهانة فليس هذا من شأن روشفور، وهو على أي حال مستعد للمبارزة، ولم يكن يشعر نحو كاميس في هذه اللحظة بغضبٍ، بل شعر بإحتقار له، وتقدم في كبرياء إلى قاعة التشريفات حيث وجد ما يشغل ذهنه.

كانت قاعة التشريفات مترامية الأطراف، ذات قبة شاهقة مزدانة بأجمل الصور والنقوش، وسطعت في جوانبها الأنوار المتلألئة والثريات البديعة، وإنتشر في أرجائها المدعوون يزيدون في بهائها وروعتها بما يحملون من أنيق الثياب، ورائع الحلي والمجوهرات..

نظر روشفور إلى الساعة الكبرى فألفاها تشير إلى العاشرة إلا عشر دقائق.. ولم يكن الملك قد أشرف بعد على القاعة، فقد حدد العاشرة موعداً لحضوره وإستقباله الكونتس دي باري..

جعل روشفور يتنقل في أرجاء القاعة محيياً هذا متحدثاً إلى ذاك فقد كان الجميع أصدقاءه، ولم يكن ينتمي إلى فريقٍ دون فريق أو حزبٍ دون آخر..

كانت مظاهر القلق تلوح على وجوه كافة المدعوين، شأن من يترقب حادثاً فاصلاً..

والواقع أنهم كانوا ينتظرون حكم القضاء في إستقبال دي باري.. ومع أن سواد رجال الحاشية لم يكونوا يعرفون شيئاً على وجه التحديد إلا أنهم كانوا يتوقعون أشياءً.. فقد سرت الشائعات تؤكد بأن الإستقبال لن يتم، ولم يكن مصدر هذه الشائعات رجال شوازيل، بل الفيكونت جان كي باري نفسه، وهو وجه العجب لمن يعجب..

أما حزب شوازيل، أو البارزون من أعضائه، لم يقولوا شيئاً، فقد كانوا واثقين من كل شيء بعد أن سلبوا الكونتس دي باري رداء التشريفات والمركبة وإختطفوا الحلاق، بل بعد أن أعجزوا الكونتس دي بيارن..

أما كاميس الذي عهد إليه بسرقة المركبة فقد تبع روشفور إلى قاعة التشريفات حيث إلتقى بالكونت كواني ساعد شوازيل الأيمن.. وما كاد كواني يرى كاميس في مثل هذا الوقت المبكر حتى تملكته الدهشة وبادره بهذه الكلمة:

- المركبة..

فأجاب كاميس:

- في مكان أمين.. تمت المهمة..

- لكن كيف حضرت إلى هنا بمثل هذه السرعة؟

فأجاب كاميس:

- هل أنا سلحفاة.. إني عهدت بالمركبة إلى إسطبل أعد خاصة أصدقائي، ثم قصدت إلى منزلي حيث إرتديت ملابسي وجئت إلى هنا..

- لكن إفرض أن هذا الصديق الموثوق به خانك في آخر لحظة فأسرج جوادين في المركبة، وذهب بها إلى منزل دي باري؟

ضحك كاميس وقال:

- هل يمكن تسيير مركبة بغير عجلات؟.. لقد أمضينا ثلث ساعة في فصل العجلات وتحطيم أخشابها، وفي دق النوافذ وتمزيق البطانة والوسائد.. فإذا كانت دي باري تستطيع أن تجيء إلى فرساي في مركبة هذا شأنها، فهل يتمنى الإنسان أروع من هذا المشهد؟

فقال كواني:

- شكراً.. أحسنت القيام بالعمل.. إن شوازيل يشكرك.

إبتعد كواني حينما شاهد رجلاً ثانياً من شركائه.. وكان شاباً في العشرين من عمره يدعى الماركيز مونبافون.. وهو مخلوق شديد الوقاحة كثير البرود، لا يملك من يراه إلا أن يهم بصفعه..

قال له كواني حينما دنا منه:

- صانعة الملابس؟

فأجاب مونبافون:

- كانت فتاة ساحرة، وقد تركت قلبي عندها، وتواعدت على اللقاء في مساء الغد عند زاوية شارع «بكبيس»..

- لكن الملابس؟..

- أي ملابس؟

- ملابس تشريفات دي باري!.. رباه! هل نسيت الملابس؟

فأجاب مونبافون:

- لا.. لم أنس.. هي الآن في قاع نهر السين.. في حقيبة مثقلة بالأحجار..

- شكراً يا مونبافون.. سأخبر شوازيل..

أسرع كواني مبتعداً، فقد لمح قادماً جديداً هو مسيو ديستوفيل، وكان رجلاً منتفخاً كالديك، متباطئاً كالسلحفاة، فلما صار بجانبه قال له هامساً:

- الحلاق؟.. ماذا فعلت به؟

فأجاب ديستوفيل..

- هو في مكان أمين..

- أين..؟

- لا أدري..

- يا إلهي.. ألم تتعهد بحجزه؟.. ومع ذلك تقول أنك لا تعرف مكانه.

- كل ما أعرف أنه في جهة ما في باريس.. يا عزيزي كواني. ما كان يمكن أن أسلط عليه رقيباً أحسن مما أختار لنفسه.. أعني الخمر..

- آه.. هل جعلته يسكر؟

- لا.. كانت المسألة صدفة موفقة.. فقد إستدعيته إلى منزلي على عجل.. وقد إنتظرني في غرفة كان فيها بعض الخمر من قبيل الصدفة المجردة، ولما ذهبت إليه لشرائه بكيس من الجنيهات الذهبية وجدته منهمكاً في الشراب. ولما رأيته كذلك قلت لنفسي: كيف له خمسة آلاف من الفرنكات، في حين يمكن شراءه بزجاجة أو إثنين من الخمر؟.. وهكذا أمرت له بشراب أقوى، وأعميته سكرا..

- آه...!

- نسى صاحبنا أنه حلاق بعد الزجاجة الأولى.. وما كاد يتم الثانية حتى تملكه الهياج وأوشك أن يستل سيفه.. ثم إستسلم للنعاس وحملة خدمي إلى جوار «مقابر الأبرياء» حيث كانت الساعة السادسة والنصف.. وليس في وسع أي مخلوق على الإطلاق حتى ولو كان طبيب

الملك الخاص أن يذهب عنه تأثير السكر قبل صباح الغد. وهكذا ترى أن الحظ حالفني، فوفرت خمسة آلاف من الفرنكات، وتجنب التورط في إرشائه والتعرض لما لا نحب..

كان كواني يعلم أن ديستوفيل يخفى وراء بلادته الظاهرية دهاء وحيلة، كما كان من أبرع رجال السيف في فرنسا.. وما لبث كواني أن قال له:

- حسناً.. سأخبر شوازيل بهذه القصة.. وبهذه المناسبة فأنت مدعو في جناحه الخاص بعد إنتهاء هذه المسألة. وأعتقد أنك ستجد منه سخاءً وكرماً.. قل لمونبافون وللآخرين أنهم مدعوون كذلك..

وتقدم كواني إلى حيث كان الدوق دي شوازيل واقفاً يتحدث مع بعض الأشراف.. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة، ولم يظهر الملك بعد رغم أن موعد الإستقبال قد حان..

وإنتحى كواني ناحية مع رئيس الوزراء، وقص عليه ما سمعه من ديستوفيل يخفي وراء بلادته الظاهرية دهاء وحيلة، كما كان من أبرع رجال السيف في فرنسا.. وما لبث كواني أن قال له:

- حسناً.. سأخبر شوازيل بهذه القصة.. وبهذه المناسبة فأنت مدعو في جناحه الخاص بعد إنتهاء هذه المسألة.

وأعتقد أنك ستجد منه سخاءً وكرماً.. قل لمونبافون وللآخرين أنهم مدعوون كذلك..

وتقدم كواني إلى حيث كان الدوق دي شوازيل واقفاً يتحدث مع بعض الأشراف.. كانت الساعة قد جاوزت العاشرة، ولم يظهر الملك بعد رغم أن موعد الإستقبال قد حان..

وإنتحى كواني ناحية مع رئيس الوزراء، وقص ما سمعه من ديستوفيل ومونبافون وكاميس.. وفيما كان شوازيل يعرب له عن تهنئته إلتفت سيل المدعوين مرة واحدة كأنما مستهم عصا سحرية، وإنقطع الحديث، وخيم الصمت على قاعة التشريفات.

أقبل الملك إلى القاعة من الباب المؤدي إلى جناحه الخاص، وبعد أن تلفت يمنة ويسرة تقدم تتبعه حاشيته حتى رأى شوازيل فوقف بينما دنا منه الوزير وإنحنى أمامه..

شاهد شوازيل على الملك دلائل الإستياء.. وكان يعلم تمام العلم أن جلالته لم يشرف القاعة بحضوره متأخراً من قبيل التراخي أو عدم الإكتراث، ولكن بسبب إنتظاره مدام دي باري.

والواقع أن الملك كان يحاط علماً بأسماء الضيوف حال وصولهم.. ولما إنقضى ربع ساعة بعد الموعد المحدد

للإستقبال ولم تحضر الكونتس بعد، ترك الملك جناحه لإستطلاع الحقيقة بنفسه..

قال الملك مخاطباً رئيس وزرائه:

- تأخرت الكونتس يا شوازيل..

فقال الوزير:

- إن الطريق من باريس إلى هنا يا مولاي طويل الشقة.. ولا يبعد أن يكون حدث عائق في الطريق..

فقال الملك:

- أو حادث.. حسناً يا شوازيل.. إذا كان قد حدث حادث للكونتس المسكينة في الطريق، فسنبحث في مصدره، وسأضع الأمر بين يديك لإستقصائه وتوقيع العقاب اللازم إذا دعت الظروف.. أما إذا كان الحادث في باريس، فإن مدير بوليسنا سيتولى الأمر.. آه.. هذا هو دي سارتين.. سارتين.. يلوح أن الكونتس تأخرت..

فأجاب مدير البوليس:

- نعم يا مولاي.. قد تكون الجموع الحاشدة في الطريق من باريس إلى هنا قد عاقت تقدم المركبة.. لكن الكونتس ستصل في سلام.. قبل أن تدق الساعة العاشرة والنصف.

إبتسم شوازيل في نفسه، وتبادل رجال حزبه الذين كانوا

يسمعون هذا الحديث نظرات خاصة..

إبتعد الملك، وما إن دقت الساعة مؤذنة بالنصف بعد العاشرة حتى إلتفت شوازيل إلى دي سارتين قائلاً:

- حسناً يا سيدي.. يظهر أن الساعة خيبت ظنك.

فقال دي سارتين وهو ينظر إلى ساعته:

- سيدي.. إن ساعة قاعة التشريفات، كما لعلك تذكر، تقدم خمس دقائق بناء على أمر صدر من المغفور له الملك السابق إلى نوارمو الموظف المكلف بالإشراف على الساعات بقصر «فرساي..» الساعة الآن العاشرة وأربع وعشرون دقيقة ونصف دقيقة.. آه.. ما هذا؟..

خيم الصمت على القاعة للمرة الثانية، وإفترق الواقفون لدى المدخل إلى صفين كما إنشق البحر نصفين بعصا موسى.

ظهر الحاجب على القاعة للمرة الثانية، وواجه الجمع الحاشد حيث وقف الملك لويس وحده لحظة، ثم ضرب الأرض بعصاه ونادى بأعلى صوته:

- الكونتس دي باري.. الكونتس دي بيارن..

ظهرت الكونتس دي باري في أروع زينتها وأبهى حسنها وملاحتها. تتقدمها الكونتس العجوز مرفوعة الرأس كبرياء متصلبة الملامح كتمثال من خشب.. وراح دي

سارتين يحدق إلى مدام دي بيارن كما يحدق الإنسان إلى ممثل بارع مجيد، ولم يتمالك أن غمغم:

حقاً إنها لقطعة تمثيلية رائعة!

الفصل الثامن

تم تقديم الكونتس دي باري وإدماجها في سلك النبلاء.. وهزم شوازيل وحزبه.. وراحت مدام دي باري تمر بين صفوف المدعوين تحادث هذا وتلاطف ذاك، وقد أفتر ثغرها عن أعذب الإبتسامات، وبدت دلائل السرور على طلعة الملك، وتقدم شوازيل إلى المحظية يقبل يدها وهو يبذل جهداً جباراً لإخفاء شعوره.. أما الكونتس دي بيارن فقد إختفت.. فقد أسرع إليها دي سارتين ورافقها إلى المركبة.. لقد جرحت ساقها في هذا اليوم، وكانت في حاجة إلى الراحة والواقع أنها تناست آلامها، وتحاملت على نفسها تلبية لرغبة الملك. وهكذا شيعها أنصار دي باري إلى مركبتها بعد أن نجحوا.. كان روشفور يرقب كل هذه التطورات بإهتمام.. وما كاد يرى دي سارتين عائداً إلى قاعة التشريفات حتي دنا منه وإنتهى به جانباً.. وقال له:

- وفيرمينار؟

فقال مدير البوليس:

- عفواً.. لست أفهم قصدك.. ماذا تقصد بهذا الإسم ؟

فقال روشفور ضاحكاً:

- آه .. كنت أود أن أهنئك لإكتشاف هذا الممثل المجيد..

سكت مدير البوليس لحظة.. ثم قال بتؤدة وفي صوت خافتة لم يسمعه سوى رفيقه:

- إن المصادفة قد زجت بك يا روشفور في إحدى مؤامرات البلاط، ومن حسن الحظ أن نجاتك من هذه المؤامرة ممكنة إذا أمسكت لسانك وتناسبت ما سمعت وما رأيت.. يخيل إليك أن فيرمينار جاء إلى هنا هذه الليلة وطرح مواهبه تحت أقدام الكونتس دي باري ومثل أمامها دور الكونتس دي بيارن. كل ما يمكنني قوله هو أنه يحق لك أن تتخيل ما تشاء.. لكن لا تفه بكلمة واحدة..وكن واثقاً أنه إذا بدرت منك كلمة في هذا الشأن، فلا يسعني رغم صداقتي لك إلا أن أعتقلك، وبذلك تنتهي حياة مسيو دي روشفور بين جدران الباستيل..

فقال روشفور بأنفة:

- هل تهددني؟

- أنا لا أهدد يا سيدي.. وإنما أنصحك. إنك قمت بدورك في هذه المسألة.. فخير لك أن تنسى كل شيء.. والآن وقد إنتهى الموضوع، فإني مكلفٌ بمنحك مكافأتك..

- مكافأتي؟..

- أخرج سارتين من جيبه رسالة صغيرة ناولها إلى روشفور ففتحها وطالع فيها ما يلي:

«لن تتسلم هذه الرسالة حتى يتم كل شيء بنجاح.. ففي هذه الحالة أحب أن أعرب لك عن شكري بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الكونتس، ستنتهي الحفلة عند الساعة الحادية عشرة وفي ذلك الوقت تسلم إليك هذه الرسالة، فإذا كان يهمك أن تتلقى شكري فأتمنى الوصول إلى باريس عند منتصف الليل. إني أقيم بشارع سان دومنيك رقم 9، وسيفتح لك باب منزلي إذا طرقته لإستماع كلمة الشكر مني»..

« كامي فونتراي»

وقف روشفور لحظةً صامتاً وبيده هذه الرسالة.. فقد فكرت فيه كامي فونتراي، وفطنت إلى شعوره من ناحيتها، وهي تحبه بدورها..

نظر روشفور إلى الساعة فإذا هي تشير إلى النصف بعد الحادية عشرة وفي قدرة جواد سربع أن يذهب به إلى باريس في أقل من ساعة..

- إتجه روشفور إلى الباب فسأله سارتين:

- إلى أين تذهب؟

فأجاب روشفور منحنياً:

- إلى باريس..

الفصل التاسع

قبل أن يتلقى روشفر رسالة كامي فونتراي بربع ساعة، قبل شوازيل يد الكونتس دي باري وأبدى إعجابه بجمال هندامها.. ثم جعل يراقبها وهي تتقدم برفقة الملك لويس إلى الجناح الخاص الذي أفرد لها في القصر..ثم إنثنى شوازيل إلى جناحه الخاص وهو يغلي غضباً وأن تظاهر بالهدوء.. وأخذ وهو يسير يحني رأسه بميناً ويساراً دون أن تفارق الإ بتسامة شفتيه.. وكان كثيرون من المدعوين ينفصلون من زملائهم ويسيرون في ركاب الوزير.. إجتاز شوازيل الممشى وذهب إلى القاعة التي كان يستقبل فيها السفراء والعظماء يحكم منصبه الكبير، حيث كانت في هذه اللحظة شعلة من الأنوار.. وجلس إلى طاولة الكتابة وحرر رسالة عاجلة ثم وضعها في غلاف ختمه بالشمع وسطر عنوانها وبعث بها مع أحد الخدم إلى مسيو دي بوتريليس قائد الحرس لتسليمها إلى صاحبها..والتفت أخيراً إلى كواني الذي لحق به، قائلاً:

- هل طلبت إلى الآخرين أن يحضروا إلى هنا هذه الليلة؟

- نعم يا سيدي.. وهم الآن ينتظرون خارج الغرفة.

- لا بأس.. سنستدعيهم إلى هنا.. كيف حدث هذا يا كواني ؟

- لا أدري يا سيدي! إلا إذا كان هذا من عمل

الشيطان.. لقد دبرنا كل شيء كما يجب. كانت مدام دي بيارن في حالة عجز تام. وأنت تعرف سائر الترتيبات الأخرى التي إتخذناها. لكن إنعكس كل شيء في آخر لحظة.

فقال شوازيل:

ـ يبقى أن نعرف أسباب هزيمتنا. وأن نهتدي إلى إسم الشخص الذي أفسد تدبيرنا..

ذهب كواني إلى باب جانبي فتحه وأدخل بعض الرجال كانوا ينتظرون في الخارج. فدخل أولاً كاميس وتلاه مونبافون ببروده ووقاحته التي لا تفارقه، وتم ديستوفيل في حالة لا تخلو من الإضطراب. وجاء على أثرهم باقي المتآمرين وعددهم أربعة.. دخلوا جميعاً يتلقون تهاني شوازيل اللاذعة لإخفاقهم في التغلب على إمرأة واحدة. قال شوازيل:

- طابت ليلتكم أيها السادة..نحن لم ننجح كما كنت أرجو.. ولم نظهر ذكاءً ولا براعةً. أعتقد يا مسيو مونبافون أنك تنتقص من قدر النساء، لكن للمرأة ذكاء لا يمكنك تصوره. نعم يا مسيو ديستوفيل، إن المرأة قد برهنت هذه الليلة على أن عقلها يفوق أذكى العقول في فرساي كلها. ماذا عندك من الأقوال يا مسيو كاميس.؟

كان شوازيل يتوقع أن يرى كاميس مضطرباً، لكن

الكونت كتم شعوره وقال:

- سيدي.. إننا ذهبنا ضحية الخيانة.

فقال شوازيل:

- هذه حقيقة ظاهرة.. ماذا نقول بعد هذا يا مسيو كاميس؟

- سيدي.. لم أتم كلامي بعد.. إني أعرف إسم الخائن.

ـ هل تعرف إسمه حقاً ؟ من هو؟

- هو الكونت دي روشفور.

- روشفور!

- نعم يا سيدي.. هو روشفور لا غيره.. هو وحده الذي كان يعرف خطتنا.

- ومن أخبره بها؟

- أنا يا سيدي.

- أنت فعلت ذلك؟.

- كان روشفور صديقي، وقد أقسم لي أن يكتم كل شيء.

مد كاميس يده إلى جيبه وهو يلقى هذه القصة وأخرج قصاصة من الورق، وإستطرد:

- ولذلك شرحت له بالتفصيل خفايا المهمة التي عزمنا على تنفيذها ولكنه رفض أن يتعاون معنا، وتخاصمنا.

- حدث هذا بعد الإنصراف من الحفلة التي أقمتها في الليلة الماضية، وإفترقنا في شارع دي شيفي. إبتعدت عن روشفور وفي نيتي أن أعود إلى قصرك وأقرر لك ما حدث.. على أني غيرت رأيي إذ رأيت أنه لا يحسن بي أن أزعجك في مثل ذلك الوقت المتأخر، وأنت منهمك في القيام بواجبات الضيافة. وخطر لي أن أزور صديقي الماركيز دي سواكور. وفيما كنت أسير إلى منزله لمحت رجلاً يخرج بسرعة من شارع ضيق مسدود.. وعرفت فيه مسيو روشفور. كان يحمل سيفه مجرداً في يده ويمسحه بقصاصة من الورق. ثم ألقى القصاصة جانباً وأغمد سيفه وأسرع بالإبتعاد متجهاً إلى ناحية نهر السين. لم يرني روشفور لإختبائي في أحد الأركان، ولما إبتعد تناولت قصاصة الورق. ثم ألقيت نظرة في الشارع المسدود، فرأيت رجلاً ممدداً فوق الأرض عند نهايته. كان الرجل قد فارق الحياة منذ قليل بطعنة سيف في صدره.. وخيل إلي إني عرفت فيه رجلاً من أتباعنا. ولما إستأنفت سيرى راجعت نفسي وعدت إلى منزلي حيث أرسلت أحد خدمي لإبلاغ وكيل قصرك بهذه الحادثة. وقد كنت مشغولاً طول اليوم منذ الساعة السادسة صباحاً حتى أني لم أجد وقتاً للتفكير في هذه المسالة. لكن هذه هي حقائق الموضوع، وها هي قصاصة الورق التي تناولتها من

الأرض، أنظر يا سيدي.. إن آثار الدم ظاهرة.

تناول شوازيل القصاصة بين إصبعيه وتأملها.. فرأى آثار الدم ظاهرة فوقها تؤيد قصة كاميس. ولم يكن شوازيل يكترث بنصيب هذه الأقوال من الصدق أو الكذب مادام الشطر المتصل منها بحديث الخيانة صحيحاً. ولم يشك هذه اللحظة في صدق هذه الأقوال، فقد علم من أتباعه أن الرجل الذي غادر منزل دي باري في الليلة الماضية متخفياً بالعباءة والقبعة الرحبة كان يرافق رجلاً يشبه روشفور، وأن الإثنين إستقلا مركبة إلى منزل يقيم فيه روشفور نفسه.. والواقع أن سارتين نجح في إلقاء التبعية كلها على عاتق روشفور. وسواء فعل هذا عامداً أو عفواً، فقد كان نجاحه عائداً إلى خططه البارعة. وهكذا لم يتسرب الشك إلى أحد من ناحيته، ولم يجاهر شوازيل بالعداء، رغم أنه هو وحده الذي أحبط المكيدة، ولما أيقن شوازيل أن روشفور هو سبب هزيمته، تحول فجأة إلى الرجال الواقفين بجانبه وهتف:

- مسيو كاميس، مسيو ديسيوفيل، مسير مونبافون.. إني أعود إليكم بتنفيذ أمري.. إن مسيو دي روشفور لم يترك القصر بعد. إقبضوا عليه وإئتوني به إلى هنا.. وإذا كان قد إنصرف فإتبعوه وجيئوا به إليّ.. إني أضع رجال الحرس وبوليس مسيو سارتين تحت تصرفكم.

وتحول شوازيل بسرعة إلى طاولة الكتابة، وسطر ثلاثة

أوامر إعتقال بالنص التالي:

«مستعجل»..

«حامل هذا الأمر مفوض بإعتقال شارل أوجين مونتارجي، كونت دي روشفور، وله أن يستعين بكل من يرى في إتمام هذا الإعتقال».

«التوقيع دي شوازيل

رئيس الوزراء».

ناول دي شوازيل الأوامر الثلاثة إلى الأيدي التي إمتدت إليها قائلاً:

- تولوا إعتقاله بأنفسكم بعد مساعدة بوليس سارتين.. فأنتم رجالي الموثوق بهم.

غادر الثلاثة الغرفة بسرعة يتقدمهم كاميس دون أن يفوهوا بكلمة واحدة.. فذهبوا إلى قاعة التشريعات حيث إفترقوا وإندسوا في غمار المدعوين باحثين عن روشفور.. لكنهم لم يقفوا على أثر له.. فقد غادر روشفور القصر، وكانت الساعة الكبرى تشير إلى الحادية عشرة والدقيقة السابعة والثلاثين.

الفصل العاشر

حينما إبتعد روشفور عن سارتين وغادر قاعة التشريفات، نزل السلم مسرعاً وإلتقى في طريقه بالحاجب جاكين، فسأله:

- أين مسيو برتران؟

فأجاب الحاجب:

- هو في مكتبه من غير شك يا سيدي.

كانت مركبة روشفور تنتظره.. لكن المركبة لم تكن تلبي حاجته في الوقت الحالي.. فقد كان يريد جواداً سريعاً يحمله إلى باريس، ورأى أنه لا يجد ما يطلب إلا في الإسطبلات الملكية. كان برتران ناظر الإسطبلات الملكية صديقاً لروشفور.. وقد وجده روشفور في مكتبه منهمكاً في أوراقه، وفي هذا المكتب كان الملك يصدر أوامره كل يوم بصدد الجياد والمركبات والأتباع الذين يختارهم. فقال لصديقه:

- يا عزيزي برتران.. لابد من ذهابي إلى باريس في الحال.. إن مركبتي بطيئة.. وقد جئت أرجو منحي جواداً أو أقوم بسرقته.

- مستحيل.. إني سئلت أخيراً في شأن الجياد التي أعيرها إلى أصدقائي في مثل هذه المناسبات.. سلني شيئاً آخر يا

عزيزي روشفور. أما الجواد فكلا.. وألف مرة كلا.

- لا بأس لابد أن أنتحل سبباً مكذوباً.. ويمكنك أن تقدر مدى إستعمال هذه المهمة التي تدفعني إلى الكذب.. قل إذن إني جئت من قبل دي سارتين وطلبت منك أسرع جواد عندك لشأن عاجل خطير من شئون الدولة.

- ليكن.. ولابد من تسوية الموضوع مع سارتين.

دوَّن برتران بضع كلمات في ورقة ناولها إلى أحد الخدم، وقال لروشفور:

- سيكون الجواد مستعداً في الفناء بعد دقائق.. أنا واثق أني سأسأل في هذا الموضوع، وسيقرر مسيو دي سارتين كذلك.. هل تدبرت هذه المسألة؟

- سيؤيد سارتين كلامي.. فنحن صديقان فلا تخف.

ودّع روشفور برتران وقصد إلى الباب المؤدي إلى خارج القصر. وكان الفناء شعلة من الأنوار.. ورأى روشفور المركبات تنصرف واحدة في أثر الأخرى.. ووقف في مكانه يراقب هذا المشهد متبرماً، حتى لمح أخيراً سائساً من رجال الأسطبلات الملكية يقود جواداً مسرجاً..وفيما كان روشفور يهم بنزول السلم أحس بيد توضع فوق كتفه.. فإلتفت وألفى نفسه وجهاً لوجه أمام كاميس.. وقد ظهر في أثره مونبافون الذي يمقته ثم ديستوفيل.

قال روشفور:

- سيدي.. أنت ترفع الكلفة بيني وبينك.

فأجاب كاميس:

- إني جئت لإعتقالك يا سيدي.

ناول كاميس أمر الإعتقال إلى روشفور.. فقرأه وأدرك فوراً خطورة موقفه وسوء عاقبة المقاومة. لكن روشفور كان ينوي الذهاب إلى باريس، ولا يمكن أن يحول بينه وبين غرضه خطر مهما إشتد ولا عاقبة مهما ساءت، بل لا يمكن أن يقف شوازيل على نفسه في طريقه، ولذلك رد الأمر إلى كاميس وقال باسماً:

- قدم إلى هذا الأمر غداً في منزلي بباريس يا مسيو كاميس.. سأكون هناك عند الظهر. وإذا تأخرت في الرجوع فإن خدمي سيهتمون بك حتى أعود.. إلى اللقاء..

نزل روشفور درجة، فمد كاميس يده لإمساكه، وإذا هو يتلقى ضربة قوية ألقته على الأرض. وفي اللحظة التالية أسرع روشفور ومر من تحت رءوس جياد المركبة التي وقفت أمام الباب في هذه اللحظة، ودنا من السائس الممسك بالجواد، فتناول عنانه وإمتطاه ولكز خاصرتيه بقدميه. ولم يكن الجواد (فالماجور) ليطيق هذه المعاملة، فرفع قائمتيه الأماميتين وضرب الأرض بشدة.. وما لبث أن أطاع راكبه وإتجه إلى الباب الخارجي..

لم يحسب روشفور حساب مونبافون وديستوفيل. والواقع

أنهما صاحاً حتى تنبه إليهما جنود الحرس.. وفيما كان روشفور يدنو من الباب رأى رجال الحرس السويسري يسدون المدخل بحرابهم وقد وضعوها أفقية متقاربة الرءوس على إرتفاع نحو أربع أقدام من الأرض. خفف (فالماجور) من سرعته حينما جذب روشفور العنان، ثم لمسه راكبه لمسة خفيفة بقدميه فتخطى الحراب بقفزة واحدة كأنه الطير. وإرتفع صباح الناظرين حينما إختفي الفارس بجواده في الظلام. وفي اللحظة التالية شاهدوا فارساً آخر يهمز جواده في أثر الأول. كان هو ديستوفيل.. فقد لمح هذا الرجل المتباطيء سائساً ممسكاً بفنان جواد مسيو دي بوتريليس قائد الحرس الذي دخل إلى القصر منذ قليل في مهمة عاجلة.. فأسرع ديستوفيل إلى الجواد فإمتطاه وإستعد لمطاردة روشفور. وكان ديستوفيل يعرف روشفور تماماً.. وكان يعلم أنه لا يمكن التغلب على روشفور في مثل هذه الحال إلا بعد معركة مروعة.. على أن هذا لم يثنه عن مطاردته. بل ربما كان السبب في نشاطه الفجائي. ولم يمنع رجال الحرس ديستوفيل من الخروج بعد أن تبينوا أنه يطارد روشفور، ويعد قليل تخطى منطقة الحراسة وإبتلعه الظلام.

الفصل الحادي عشر

كان الطريق خالياً أمام روشفور، فأطلق للجواد العنان. فإجتاز نحو ميلين بأقصى سرعة.. ثم أوقفه روشفور وترجل عنه وأخذ يتطلع إلى الطريق الذي جاء منه ويرهف حواسه ليرى أن كان هناك من يطارده. وما لبثت أذنه أن ميزت في السكون السائد صوتاً آخر منتظماً متصلاً.. فعلم أن فارساً يركض في أثره. أمعن روشفور نظره، فشاهد بعد قليل شبح رجل ممتطياً جواداً وما كاد يعتلي من (فالماجور) ثانية حتى إكتشف حقيقة مؤلمة.. فقد كان الجواد الباسل يعرج. أدرك روشفور أنه يستحيل إرغام الجواد على متابعة السير، هذا إلى أنه كان يكره أن يقسو عليه وهو في هذه الحال.. ولكن خلفه جواداً قوياً يمكن الإستيلاء عليه إذا رغب.. فلوى روشفور عنان (فالماجور) وعاد أدراجه لمقاتلة مطارده. سطع ضوء القمر من خلال السحب، وفجأة عرف روشفور وجه ديستوفيل. فغير خطته على الفور. فلم يكن يجهل براعة ديستوفيل في المبارزة، وأدرك أنه قد يتغلب عليه في هذه الملحمة تحت تأثير ظرف ما.. لكن روشفور كان مصمماً على الذهاب إلى باريس فأوقف جواده حينما صار ديستوفيل على بعد نحو مائة من منه. وقفز إلى الأرض وأطلق ساقيه للريح. نفذ روشفور إلى سياج مزروع يحيط بحديقة عامة كائنة إلى يمين الطريق. وما لبث ديستوفيل

وهو لا يكاد يصدق عينه إزاء هذا الجبن أن ألقى نفسه من فوق جواده وتركه مع فالماجور وأسرع لمطاردة روشفور. كان روشفور يتجه إلى ناحية بعض الأشجار المغروسة في وسط الحديقة وقد بدا عليه الإعياء ونال منه الركض. وأسرع ديستوفيل خلفه وهو يدور حول الأشجار حتى كاد يلمسه بيده. فأنعطف روشفور وعاد إلى الطريق. حتي حدثت معجزة...طرح روشفور عنه مظاهر الأعباء المصطنعة وغدا في خفة الغزال وسرعة الأرنب. وأخذ ديستوفيل يجد في أثره بعد أن سبقه بمسافة وهو يلهث ويلعن. ولما وصل روشفور إلى الطريق أمسك بعنان جواد ديستوفيل الذي كان يرعى الأعشاب على جانب الطريق وإمتطاه.. ثم لوح بيده إلى رسول شوازيل. وإتجه إلى باريس.

إعتلى ديستوفيل الجواد (فالماجور) وهو يعتقد أنه مايزال قادراً على ملاحقة غريمه.. وما لبث أن أدرك الحقيقة.. فقد أبدل روشفور جواداً سليماً بجواد كسيح. ورأى ديستوفيل أن المسألة كانت دهاءً وحيلةً لا جبناً وفراراً.. وأوشك أن يغمد سيفه في قلب (فالماجور).. لولا أن (فالماجور) كان جواد الملك وهو بهذه الصفة مشمول بالرعاية الملكية.

القسم الثاني

الفصل الأول

جذب روشفور عنان الجواد بعد أن قطع مرحلة طويلة ونظر خلفه فلم يجد أحداً يطارده.. وفكر في أمر ديستوفيل حين يعود إلى فرساي فوق جواد أعرج.. ويقول للناس أن روشفور قد جرى أمامه هارباً. فهم سيضحكون منه لما يعرفون عن شجاعة روشفور وبسالته. وفيما كان روشفور يستأنف سيره لفتت نظره حقيبة الرسائل.. كان يعرف أنه أصبح في حرب مع حزب شوازيل.. ومادام قد غنم هذه الغنيمة من أحد رجاله فهو في حل من فحصها. فتح روشفور الحقيبة أثناء السير ودس يده في داخلها، فلم يجد بها سوى رسالة كبيرة مختومة بالشمع الأحمر، وقد كتب عنوانها بخط كبير كما يلي:

« مدموازيل لابروبير»

«وفي حاشية صاحبة السمو الملكي»

«في كامبين»

كانت هذه الرسالة هي التي كتبها شوازيل عقب إنسحابه إلى جناحه الخاص في قصر فرساي.. فهتف روشفور:

- مسيو دي شوازيل يكاتب آنسة في حاشية زوجة ولي العهد.. لا بأس.. ليس لي شأن بأسرار شوازيل

الشخصية، وسترسل الرسالة إلى العنوان المكتوب عليها أو ترد إليه.. لكن لابد قبل كل شيء من وصولي إلى باريس..

أعاد روشفور الرسالة إلى مكانها وإستحث الجواد على الركض. لم يكن يعلم أن شوازيل قد عهد إلى مسيو دي بوتريليس قائد الحرس خصيصاً بحمل هذه الرسالة التي حررها عقب حفلة إستقبال مدام دي باري، ولا أنه أوصاه بكتمان أمرها عن كل إنسان وتسليمها بأقرب وقت. ولو عرف روشفور ذلك لما وجد مجالاً للتفكير في هذا الأمر، فقد شغل في هذا الوقت بإفساح الطريق أمام جواده حيث أدرك الباريسيين العائدين من فرساي على أقدامهم. ولما وصل إلى أبواب باريس إستوقفه الحرس لحظة، لكنه لم يجد عناء في مواصلة السير رغم أنه كان بملابس التشريفات وممتطياً جواداً من جياد الحرس، فقد كان الجميع يعرفونه تماماً.. ولاشك أن هذه هي إحدى ظواهره الشاذة المألوفة لديهم.

كان روشفور يذوب لهفة للوصول في الموعد المضروب إلى المكان المحدد.. لكنه أدرك شدة الحاجة إلى النقود وإلى تبديل ملابسه.. فقد أيقن أن شوازيل سيفتش عنه في باريس، وإذا أخفق في إيجاده فسيفتش فرنسا كلها.. ولذلك قصد رأساً إلى منزله بشارع دي لونجفيل.

فهم روشفور نصيب كاميس في هذه الحوادث..

وأدرك أنهم عرفوا دوره هو في القضاء على تابع شوازيل.. كما علم أن شوازيل بات يعرف الآن أنه أفضى بالخطة التي أطلعه عليها كاميس إلى مدام دي باري..ولابد له الآن من مغادرة فرنسا وقتاً بما حتى يذهب تأثير هذه الظروف، أو يجرد شوازيل من سطوته.

وصل روشفور إلى شارع دي ماري المجاور الشارع دي لونجفيل حوالي الساعة الثانية صباحاً.. فقيد الجواد في عمود أحد المصابيح وتركه لمن يعثر عليه، ووصل إلى مسكنه حيث فتح الباب بمفتاحه دون أن يزعج وصيفه الخاص، فبدل ملابسه وحمل كل النقود التي وجدها وكانت حوالي ثلاثة آلاف من الفرنكات الذهبية، ثم مزق بعض الرسائل وأحرقها وغادر المنزل بعد أن أغلق الباب خلفه بهدوء.. وفيما كان روشفور يجتاز شارع دي لاهارب للمرة الثانية ذاهباً إلى شارع سان دومنيك حيث تقيم مدموازيل فونتراي، رأى رجلاً يقود الجواد الذي تركه منذ قليل. فلما أدركه سأله:

- إلى أين تذهب يا صاحبي بهذا الجواد الجميل؟

فأجاب الرجل:

- إني وجدته مقيداً إلى العمود، فخشيت أن يؤذيه أحد أي يسرقه لص، ولذلك فضلت أن أذهب به إلى منزلي..

فقال روشفور وهو يتناول جنيهاً من جيبه:

- أحسنت.. إني سأحتاج إلى جواد بعد ساعات.. فخذ هذا الجنيه وإذهب بالجواد إلى منزلك حيث تطعمه وتبدل سرجه وتنتظر به في الطريق المتفرع من باب سان أنطوان عند الساعة الحادية عشرة، أي بعد تسع ساعات من هذا الوقت.. وقف على بعد ربع ميل من الباب المذكور.. فإذا فعلت هذا فسأعطيك عشرة جنيهات.

- سأفعل ما تطلب يا سيدي..

- هل يمكنك الحصول على سرج عادي بدل هذا السرج؟

- سأحاول يا سيدي..

- يمكنك نزع الزخارف الموضوعة حول السرج وأخذ الحقيبة.. وبذلك يبقى السرج عادياً.. تذكر أنك ستفوز بعشرة جنيهات في مقابل هذه المهمة..

وناول الرجل الجنيه وواصل سيره.. ووقف روشفور في شارع دومنيك أمام المنزل رقم 9 الذي ورد ذكره في الرسالة، الذي نوافذه مظلمة إلا نافذة في الطابق الأول.. وقف روشفور يتطلع إلى النافذة المضاءة.. وكان زجاج النافذة مفتوحاً قليلاً.. ومن حسن الحظ أن الجنيه لم يصب الزجاج، بل نفذ إلى الداخل وإصطدم بالستار وسقط فوق أرض الغرفة.. إنتظر روشفور قليلاً.. وفيما كان يهم بقذف جنيها ثان لمح شبحاً عند النافذة، ورأى

الستار ينفرج والنافذة تفتح.. رأى روشفور هيكلاً غامضاً عند حافة النافذة وسمع صوتاً نسوياً يهمس:

- من هذا؟

- روشفور..

لم يزد روشفور على هذه الكلمة شيئاً خشيةً أن يكون المتكلم أحد الخدم.. وما لبث أن رأى الهيكل يختفي بعد أن إستمهله، وبحث روشفور من الباب حتى وجده ووقف ينتظر، وشعر بقلبه يخفق بعنف لم يعهده من قبل في ماضي أيامه.. وفي هذه اللحظة نسى شوازيل وكاميس ونسى موقفه الحرج.. بل نسي كل شيء في الدنيا..سمع روشفور صوت أقدام في ممشى المنزل، ثم أزيح المزلاج بإحتراس.. لم يكد روشفر بصدق أن الظروف تخدمه إلى هذا الحد.. فإن كامي فونتراي تفتح له الباب بيديها خلسة في سكون الليل.. وهي لا تبالي ما تكون النتائج.. وقف روشفور في البهو في اللحظة التالية ممسكاً بيد حارة في الظلام بينما كانت المرأة التي أدخلته تعيد المزلاج إلى مكانه بيدها الثانية.. نادته هامسة أن يتبعها وهو لايزال ممسكاً بيدها.. وقادته كالأعمى فوق درجات السلم حيث أوقفته أمام باب مغلق.. ثم دفعت الباب ودخل كلاهما إلى غرفة مضاءة لاتزال بقايا نار في مدفأتها. سطع نور المصباح على وجه المرأة، فإذا هي جافوت. ترك روشفور يدها.. وأجال نظره حوله.. ثم إستقرت عيناه عليها حيث

كانت واقفة أمامه تداعب الإبتسامة شفتيها. بدت جافوت في أتم ملاحتها.. ومع أن هذه الفتاة من عامة الشعب فقد كان لها جمالها الخاص. لكن روشفور تغلب على ذهوله فجأة ولم ير فيها ملاحة ولا جمالاً وإبتعد عنها إلى ناحية النافذة قائلاً:

- أنت!

تلاشت إبتسامة جافوت.. وإرتجفت شفتاها.. فقد فهمت الفتاة حقيقة الموقف في لحظة.. عرفت أن روشفور لم يهتد إلى نافذتها بمعجزة، وأنه لم يأتِ للقائها وأنه لا يحفل بها.. بل كانت سيدتها هي المقصودة بهذه الزيارة. كانت جافوت منذ أن قبلها روشفور أمام منزل دي باري تحلم به وتنتظره وتتوهم أنه سيزورها حتماً.. وهو قد جاء حقاً.. لكنه لم يجيء من أجلها.

- سيدي.. أنا آسفة.. لكن سيدتي غائبة عن المنزل.

تمالك روشفور نفسه وهو واقفٌ بجانب النافذة.. رأى أن الفتاة تكن له شعوراً خاصاً، وأنه يستطيع بنظرة أو لمسة أن يستأثر بها جسداً وروحاً وأدرك أنها صعدت به إلى هذه الغرفة وهي تعتقد أن هذه الزيارة من أجلها. لكنه كان واقعاً تحت تأثير شعور آخر يبعده تماماً عن جافوت وقال لها:

- غائبة! هل لم تكن إذن هنا هذه الليلة؟.

- نعم يا سيدي.. كانت هنا حتى منتصف الساعة الواحدة, ثم ذهبت إلى شارع دي فالوا مع مدموازيل شون دي باري.

- هل كانت مدموازيل دي باري معها هنا إذن؟

- نعم يا سيدي.. وقد إنصرفتا معاً.

رأى روشفور أن هذا الموعد الذي حددته له كامي لم يكن موعداً غرامياً.. أو كان موعداً غرامياً ولكنه مقيد بقيود.. كان يستحيل عليه أن يلحق بها في منزل دي باري في هذا الوقت المتأخر.. ولم يكن أمامه إلا أن ينتظر.. ولم يجد مكاناً أصلح من هذا المكان ولا رفيقاً يتحدث معه خيراً من جافوت..جلس روشفور في مقعد قرب السرير وطلب إلى جافوت أن تجلس على ركبتيه ريثما يقص عليها متاعبه وآلامه. لم ترفض الفتاة.. فقد كان روشفور منصرفاً عن كل تفكير أناني وراح يقول لها:

- إسمعي يا جافوت.. أن الدوق دي شوازيل يطاردني.. وأنا هارب منه.. وما كنت لم أتعود الهروب فإني أتخبط في فراري ولكن مع ذلك أبذل غاية جهدي. هل تذكرين الليلة الماضية حينما طاردك أولئك الأشرار؟..حسناً.. إني تبعت أحدهم فقذفني بمدية فقضيت عليه.. كان من أتباع مسيو دي شوازيل.. فلما علم بأني قتلت أحد رجاله حاول إعتقالي في قصر فرساي منذ بضع ساعات، وكان الرجل الذي عهد إليه بهذه المهمة هو مسيو كاميس، أي نفس

الرجل الذي صفعته أمامك.

- هو رجل فاسد يا سيدي.. إن ملامح وجهه ونظراته كادت تفقدني رشدي..

- صحيح.. ولما رأيت ذلك لطمته لطمةً قوية وتركته يتخبط في درج قصر فرساي، وأسرعت بالهرب.جئت إلى باريس على ظهر جواد.. ولكن لا يمكن أن أقيم هنا..سأذهب غداً إلى شارع دي فالوا تحقيقاً للموعد الذي بيني وبين سيدتك، وهو الموعد الذي أخفقت في تحقيقه هذه الليلة.. وقد يمكن أن أقع أسيراً أو ألقى حتفي قبل الوصول إلى منزل دي باري... ففي هذه الحالة عليك أن تخبري سيدتك بكل شيء، وأن تقرري لها أن الذنب لم يكن ذنبي في عدم الوصول إلى هنا في الموعد المحدد. فهل تكونين صديقةً لي يا جافوت وتفعلين هذا؟

- نعم يا سيدي.. سأكون صديقةً لك حقاً..

- أني أثق بك.. والآن سنتكلم في موضوع آخر... معي رسالة تخص الدوق دي شوازيل، وهي بعنوان سيدة في (كامبين) وقد وجدتها في حقيبة المراسلات فوق الجواد الذي حملني إلى باريس ولابد من تسليمها إلى صاحبتها...

أخرج روشفور الرسالة وناولها إلى جافوت التي وقفت في هذا الوقت بجانبه وقال لها:

- لابد لك من إيجاد شخص لتسليم الرسالة.. ولما كان

هذا الشخص يحتاج إلى مكافأة نعوض عليه تعبه.. خذي هذي الجنيهين...

- لست في حاجة إلى نقود يا سيدي...

- لم أقصد تقديم هذا المبلغ لك يا جافوت.. فإن الإنسان لا يمنح أصدقائه مالاً.. وكل ما قصدت هو أن تعطي هذا المبلغ إلى أحد الخدم مكافأة له على تسليم الرسالة.. أما أنت يا جافوت فإني أمنحك صداقتي..

- أنت تسألني يا سيدي أن أحمل هذه الرسالة إلى عنوانها... ولكي أفعل هذا لابد لي من قراءة العنوان وهأنذا أجد العنوان موجهاً إلى مدموازيل (لابروبير).. يا سيدي أن مسيو دي شوازيل هو كاتب الرسالة، وأن مسيو دي شوازيل نفسه يطاردك.. فإذا كان الأمر كذلك، أفلا نرى أنك بالتخلص من هذه الرسالة تتخلص من سلاح قد يعيذك في هذا الموقف؟

ضحك روشفور مسروراً من لهجة الفتاة ودهائها، وقال لها:

- ما هذا الذي تقولين يا جافوت؟

- أعني يا سيدي أن مدموازيل (لابروبير) هي من ألد أعداء الكونت دي باري.. وقد سمعت من سيدتي أن مدموازيل (لابروبير) لم تصل إلى مكانها في حاشية زوجة ولي العهد إلا لكي تدس للكونتس دي باري عندها

وتسمم الجو ضدها.. وها هو ذا الدوق دي شوازيل بكاتب مدموازيل (لابروبير)..

- آه.! فهمت، كتب شوازيل رسالة إلى مدموازيل (لابروبير) وقد حررها في الليلة الماضية عقب حفلة إستقبال الكونتس دي باري، لكي يخبرها من غير شك بالمؤامرة التي دبرها لإفساد الحفلة وبحبوط هذه المؤامرة. إن المؤامرة كانت موجهة إلى الملك كما كانت موجهة إلى الكونتس دي باري سواء بسواء. من المحقق أن هذه الرسالة يمكن أن تكون سلاحاً فاتكاً ضد شوازيل..

- وهل تستخدم هذه الرسالة يا سيدي؟

- أنا..؟ لا.. لا يمكن أن أستخدمها. أنا لا أدري إن كانت تنفعني حقاً. ولا يستبعد أن أكون مخطئاً في ظنوني، ولا يكون للرسالة قيمة بتاتاً. ولم لا تكون مجرد رسالة غرامية؟ أو رسالة خاصة حول موضوع شخصي.؟ لا.. مستحيل. لا يمكن أن أفتح رسالة مسيو دي شوازيل لكي أرى إن كان فيها ما يعنيني. بل لو فتحتها ووجدت فيها أبشع المؤامرات محررة بخط شوازيل، فلست بالذي يستخدم هذا السلاح ضده..

- سيدي. لست إلا فتاة ضعيفة لكني تعلمت أشياء كثيرة في خدمة الكونت دي باري. وقد عهد إلي بأشياء متعددة إنتفعت منها بالعبر والدروس. إنني درست مسيو دي شوازيل. فكر في المؤامرة التي دبرها أمس وما أكثر

المؤامرات الأخرى التي يديرها كل يوم, إني أعرف أنك لو كنت مسيو دي شوازيل لفتحت الرسالة.

- لمست النقطة الحساسة. لو كنت شوازيل لفعلت ما تقولين. لكن بما أني روشفور فلا يمكن أن أفعله. لست إلا شريفاً متواضعاً من مقاطعة (الأوفرن) ولا أملك من الدهاء و المقدرة ما يهيء لي أن أزج بنفسي في المغامرات السياسية.. ولو فتحت حقاً هذه الرسالة لتخبطت في هذه المهمة وفضحت نفسي.

- سيدي.. لم أطلب إليك أن تفتح الرسالة.

- لو طلبت يا آنسة لأطعتك، فإن أى طلب منك هو لي بمثابة الأمر الواجب التنفيذ. والآن أرجو أن تبعدي هذه الرسالة اللعينة حتى لا تغري أحدنا بعد. وأرجو أن تتفضلي بمرافقتي إلى إحدى الغرف حيث أنام ساعتين فإن أمامي يوماً حافلاً.

نهضت جافوت ووضعت الرسالة في درج مكتب قريب من الباب. ثم أسرعت خارج الغرفة وعادت بعد قليل حاملة غطاء من الفراء بسطته فوق السرير ورتبت الوسائد، وقالت له:

- سأوقظك في الساعة السادسة..

إبتسمت جافوت لروشفور وحيته بإيماءة من رأسه ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها. ونزع روشفور معطفه

وحسامه وإندس تحت الغطاء، وما هي إلا خمس دقائق حتى كان يغط في النوم. أما جافوت فقد ذهبت إلى مخدع سيدتها فأضاءت المصباح وجلست في مقعد قرب السرير. كانت الفتاة غارقة في الحب ولكنه حب ليس وراءه غير اليأس والعذاب. كانت تعرف كامي فونتراي بحكم كونها إمرأة مثلها، فوجدت فيها رغم فتنتها وسحر عينيها، إمرأةً جامدة لا تلين لعواطف الحب ولا يعجبها من الرجال إلا أن يقدموا لها خضوعهم ويعربوا عن عبوديتهم بلا مقابل. أدركت جافوت مبلغ حب روشفور لكامي فونتراي، لكنها كانت تعلم أنه حب لا أمل وراءه، ووجدت في هذا شيئاً من العزاء بحكم الغريزة البشرية التي لا يمكن قهرها. صحيح أن جافوت كانت تحب روشفور ولا تتردد في التضحية بكل شيء في سبيله.. لكنها لم تتمالك أن شعرت بشيء من السرور لإحتمال إخفاق روشفور في حبه وعذابه على يدي كامي فوانتراي.. على أنها لم تلبث أن غادرت الغرفة ونزلت إلى الطابق الأرضي لإعداد القهوة لروشفور.

الفصل الثاني

إستيقظ روشفور حينما أحس بيد جافوت تلمسه.. فرآها واقعةً بجانبه بعد أن وضعت صحفة القهوة على مائدة قرب النافذة. فجلس وفرك عينيه ثم إنفجر ضاحكاً، كأنما رأى هذا العالم الذي إستيقظ فيه نكتة رائعة تستحق الضحك.. وما لبث أن أزاح الغطاء ونهض على قدميه وقال:

- يا إلهي!.. كنت منهمكاً في مطاردة كاميس في قصر فرساي حينما رأيت مسيو دي شوازيل يضع يده على كتفي.. ولم تكن هذه اليد سوى يدك.. هذا فأل حسن.

قبَّل روشفور يد جافوت التي أحضرت القهوة.. وإرتدى معطفه وحمل سيفه وهو لا يكف عن الكلام والضحك. ثم تناول قدح القهوة ووقف يتطلع من النافذة بين وقت وآخر. وتذكر أنه لم يعط وصيفه مرتبه الشهري، فتطوعت جافوت في الحال لحمل المبلغ إليه. فوضع خمسة جنيهات في قصاصة ورق وأعطاها للفتاة قائلاً:

- سيكفيه هذا مؤقتاً حتى ينجلي الجو.. هو خادم مخلص، لكنه قد يضطر بغير نقود إلى إلتماس سيد آخر.. والآن وداعاً يا صغيرتي.. لا .. بل إلى اللقاء.. فسنلتقي ثانية.. في ظرف أسعد من هذه الظروف.

- هل تذهب إلى منزل دي باري يا سيدي؟.

- نعم.. وبأسرع ما يمكن..

- لكن ألم تفكر في الخطر؟

- أي خطر؟

- إذا كان مسيو دي شوازيل يطاردك، فهل لا يحتمل أن يرصد الجواسيس وراءك في شوارع باريس؟.

- بلا ريب.. لكن باريس تحت سلطة مسيو دي سارين، ولذلك لابد أن يضع مسيو دي شوازيل المسألة أولاً في يدي سارتين.. ولما كان سارتين صديقي فأنا واثقٌ أنه سيتباطأ في التنفيذ، ولذلك سأكون مطمئناً حتى الظهر.

تنهدت جافوت، ورافقت روشفور إلى الباب الخارجي وفتحته بنفسها. ولم يفت البواب هذا العمل، فقد شاهد رجلاً يخرج ولم يكن هو الذي أدخله.. لكنه لم يهتم بهذا.. أما جافوت فلم تفطن إلى هذه المسألة لإنشغال ذهنها بمسائل أخرى. وصعدت جافوت ثانية إلى غرفتها وتناولت الرسالة من الدرج ونظرت إليها طويلاً.. وإذا كان روشفور قد رفض أن يفتحها فهي أقدر منه على ذلك..فأحضرت مدية أحمتها فوق لهب المصباح الذي كان مضاءاً في مخدع سيدتها، ثم دست حافة السلاح الساخن تحت الشمع ببراعة إكتسبتها بطول الخدمة في منزل دي باري. في هذه الأثناء كان روشفور يسير

بنشاط قاصداً إلى شارع دي فالوا. ووصل إلى منزل دي باري بشارع دي فالوا. ولما سأل عن الفيكونت جان قيل له أنه موجودٌ بالمنزل.. فتبع روشفور الخادم إلى البهو ثم إلى تلك الغرفة التي جلس فيها منذ ليلتين عضواً في المؤتمر العائلي. حيث أعربت له الكونتس عن تقديرها وإخلاصها وأقسم الفيكونت جان أن يكون صديقه مدى الحياة. رفع الخادم ستائر النوافذ. فتدفق ضوء النهار إلى الداخل وشاهد روشفور المقاعد كما تركها الجالسون فيها لآخر مرة، ولمح قفاز إمرأة فوق أحدها.

سمع روشفور في الغرفة المجاورة أصوات رجال يضحكون ورنين نقود.. فعرف أن الفيكونت وفيما كان روشفور جالساً مع الخادم يدخل إلى غرفة اللاعبين يعلن قدوم الزائر.. فإنتقلت أصواتهم.. ثم سمعت أصوات تدل على التذمر. وبعد قليل فتح الباب المؤدي إلى البهو وأقبل منه جان دي باري.. كان جان في حالة سيئة. فقد تصلبت عضلات وجهه من السكر والسهر وتلطخ رداؤه بقع الخمر. وتدلى أحد جوربيه فوق الحذاء. هتف جان:

- آه!.. روشفور! أنت مبكر كالطير! أنا لم أذهب إلى فراشي لقد جاءتنا الأنباء السارة يحملها رسولٌ خاص حيث كان معي بعض الأصدقاء. وهم لايزالون هنا.

تثاءب جان وإنطرح فوق مقعد مستطيل ومد ساقيه ودس يديه في جيوبه. ثم كرر التثاؤب.. فقال روشفور:

- إني أسرعت بالرجوع من فرساي قبل رسولك.. دي باري. أنا الآن في موقف حرج. طالما تجنبت الخوض في المسائل السياسية. لكن يظهر أنهم وضعوا أيديهم على آخر الأمر.

- ماذا تعني؟

- إن شوازيل يطاردني.

- شوازيل يطاردك؟! ما هذا الكلام؟. هل إكتشف شيئاً؟ يا إلهي!. كنت أحسب أن هذا الموضوع إنتهى بسلام. لكنك الآن تزعجني بهذا النبأ.. ماذا جرى؟

- أنت محق في السؤال. إن تبعة هذا التدبير الذي دبرتموه وقعت على رأسي.. ويلوح لي الآن إني سأدفع الثمن وحدي. لقد إكتشف شوازيل دوري في هذا الموضوع وحاولي إعتقالى في فرساي في الليلة الماضية.. لكنه لم يفلح. وهأنذا هنا. هم الآن يطاردونني.

نهض دي باري قائماً وقد ثاب إلى نفسه وذهب عنه خموله.. وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً كأنما يحاول أن يستجمع أفكاره المشتتة.. ثم إلتفت إلى روشفور قائلاً:

- أرجو أن تغتفر لي ما أقوله.. لكن كان يحسن بك أن تلتمس لك ملجأ في مكان آخر بسبب ظروف الكونتس الدقيقة ومطاردة شوازيل لك. نحن على تمام الإستعداد لمساعدتك. لكن أصبح من الضروري بعد أن إنتهى هذا

الموضوع أن تستأنف العلاقات الطبية مع شوازيل..صحيح أننا لسنا أصدقاء شوازيل. لكن يمكنك أن تقدر الضرورة الملحة التي تدفعنا إلى المحافظة على ظواهر الصداقة مع أكبر رجل في فرنسا بعد الملك.... هذه ضرورات السياسة.

- عفواً.. لست أفهم ما ترمي إليه.. لم أحضر للبحث عن ملجأ أو لإلتماس الحماية.

- هل جئت إذن لمقابلتي؟.

- لا يا عزيزي.. لم أحضر لمقابلتك.. بل جئت لمقابلة الآنسة فونتراي والإستئذان منها قبل مغادرة فرنسا أو دخول سجن الباستيل..

- مقابلة الآنسة فونتراي؟

- تماماً..

- في هذه الساعة؟

- المسألة عاجلة..

- لكن هذا محال.. فهي لم تستيقظ بعد من النوم..

- ستستيقظ حينما تعلم أني هنا..

- هل ترى ذلك لا بأس به. أما أنا فلا أظن. أجل زيارتك لها إلى فرصة أخرى فقد جاءت إلى هنا في الليلة الماضية ساخطةً عليك.. يظهر أنك تركتها تنتظر، وبعد

ذلك لم تحضر..

- أود أن أفسر لها كل هذه المسائل...

ـ إنتظر إذن.

ترك الغرفة في إستياء ظاهر، ثم عاد بعد قليل وقال:

-إن الآنسة فونتراي لا تستطيع مقابلتك.. ولن تغادر غرفتها حتى الظهر.

- في ذلك الوقت أكون غادرت باريس.. أنت لم تبلغها رسالتي..

- رباه!.. هل تقول هذا في وجهي؟ هل تكذبني؟

- إني أقول أنك لم تشرح لها ظروفي كما يجب..

- أشرح لها موقفك؟.. يا إلهي.. إني شرحت لها ما أمكنني الشرح من وراء باب غرفة نومها المغلقة.. فكان جوابها بالحرف الواحد: «بلغ مسيو روشفور أني لا أستطيع مقابلته، ولن أخرج من غرفتي بأي حال قبل الظهر».. ومن هذا ترى أنها لم تعد حتى بمقابلتك عند الظهر..

- يا للشيطان!.. لا أدري ماذا أقول عنكم جميعاً ولن أتكلم عن المساعدات التي قدمتها لكم.. لكني سأقول هذه الكلمة.. أن شوازيل الذي ناصبته العداء هو على الأقل رجلٌ شهم يهتم بمصالح أصدقائه.. وداعاً..

- إلى أين تذهب؟

- سأذهب للإفطار في مطعم (ريجنس).

- في مثل هذه الظروف؟

- نعم وماذا يهمني؟ سأغادر باريس في الوقت الذي يناسبني، وبالطريقة التي تحلو لي..

- لكن يا عزيزي روشفور.. إذا كان شوازيل يطاردك، ولم تغادر باريس في الحال، فأنت تعرض نفسك للوقوع في يديه.. سيقبضون عليك ويسجنونك، بل قد يعذبونك حتى تعترف..

- أعترف بما جرى في حفلة الإستقبال؟

- تعترف بكل شيء.. أن شوازيل قاسٍ لا يرحم كما تعلم.

- إطمئنن.. سأعترف لهم بغير حاجة إلى تعذيبي. من أنتم جميعاً حتى أهتم بكم ؟إنكم إستغنيتم عني بعد أن قضيتم غرضكم مني. وأنتم الآن متلهفون لإبعادي، لا لأنكم تحفلون بسلامتي، بل لأنكم تخافون أن تنتزع قصة فيرمينار مني. هذا رأيي فيك يا فيكونت، وفي الكونتس أو في الأنسة فونتراي ويمكنك تبليغهما هذا الرأي مشفوعاً بتحياتي.

دار روشفور على عقبيه ودفع الباب وسارع إلى الخارج

وإمتلأ صدره سخطاً وهياجاً.. فقد أيقن من لهجة جان أنه كان صادقاً فيما نقل إليه من حديث كامي. وأحس في هذا الوقت بأنه يوشك أن يهدم منزل دي باري على رؤوس ساكنيه. على أنه مع ذلك خرج إلى الشارع وسار دون أن يلقي نظرة إلى الخلف.

ومن إن صار جان وحده حتى هرع إلى غرفة اللاعبين حيث أفرغ في جوفه كأساً من الخمر وإستأذن منهم وذهب إلى جناح الخدم، فأمر بإحضار مركبة إلى باب المنزل فوراً وإرتقى السلم بسرعة وبدل ملابسه ولا جاءت المركبة إستقلها وأمر السائق بالذهاب إلى منزل دي سارتين.

الفصل الثالث

وصلت مركبة جان دي باري إلى مقر سارتين بضاحية سان جرمان في تمام النصف بعد الثامنة. فترجل دي باري وإرتقى درجات السلم الخارجي ونفذ إلى البهو الكبير حيث كانت مظاهر الحركة والنشاط على أتمها. وكان الجنود يحرسون الباب، ووقف أحد رجال الحرس السويسري شاهراً سلاحه عند مطلع السلم، وجلس الجنود في مقاعد هنا وهناك، بينما كان الكتاب والموظفون يروحون ويغدون حاملين مختلف الأوراق والملفات.

أعطى دي باري إسمه إلى أحد الحجاب وطلب إليه أن يذهب إلى الكونت دي سارتين ويخبره بأنه يود مقابلته فوراً. وما هي إلا خمس دقائق حتى عاد الحاجب وطلب إلى دي باري أن يتبعه. قاده الحاجب إلى الطابق الأول وسار به في ممشى يفضي إلى مخدع مدير البوليس حيث كان دي سارتين في هذه اللحظة مسلماً وجهه إلى حلاقه الخاص وما كاد ينهض من مقعده حتى أعلن الحاجب قدوم دي باري. كان مدير البوليس ساخطاً في هذا اليوم.. فقد حدثت مأساة في القصر الملكي في «لوسيين» منذ بضعة أيام، ووجد كلب الملك لويس الخامس عشر «أتلانتا» مسموماً. وكان الملك مغرماً بهذا الكلب الذي كان يدلل ويطعم لحم الدجاج وكان له خادم خاص يشرف عليه، ورداء يملؤه الشعار الملكي. فغضب الملك

وعد هذا الحادث موجهاً إلى شخصه، وإستدعى سارتين على جناح السرعة في فرساى حيث كان يقوم بالتفتيش، فتولى فحص جثة الكلب وإستجواب الطهاة والوصيفات والسياس ورجال الحدائق، وكل من يظن بأن له ضلعاً في الحادث أو يستطيع أن يلقى عليه شيئاً من الضوء. لكن لم تسفر هذه التحقيقات عن نتيجة. وبقي الغموض يحيط بهذه (المأساة) ويكدر صفو سارتين السيء الحظ، والواقع أن دوائر البلاط أخذت تتفكه بهذا الحادث وتتسلى على حساب سارتين. أقلق هذا الموضوع سارتين وأزعجه أكثر من غيره من الحوادث المتعددة التي كانت تقلقه وتزعجه كل يوم.. وزاد الطين بلة أن سارتين تلقى في صباح هذا اليوم ربطة صغيرة محزومة بعناية لم يجد بها سوي زوج من العوينات. إنحنى الفيكونت جان دي باري أمام سارتين. وأنشأ يسرد قصته حالما إنسحب الوصيف:

- يا عزيزي سارتين.. إن روشفور الأحمق زاد أمورنا تعقيداً. فقد زارني منذ ساعة وأخبرني أن شوازيل يطارده.. وأسوأ من هذا أنه ناقم علينا الآن.. فهو يحب فونتراي التي رفضت مقابلته. ولما نصحته بمغادرة باريس في الحال إتهمني بالجحود ونكران الجميل.. هو الآن ضدنا.. وهو يعلم كل ما يتصل بدور فيرمينار. وقد توعدني صراحة بأنه إذا إعتقله شوازيل وإستجوبه بطريقة لا تسره. فسيعترف بكل ما يعلمه.

- يا للشيطان! يظهر أن كل شيء يسير هذه الأيام على غير ما يشتهي الإنسان.. لكنه لن يقول شيئاً، فإن لي ثقة كبيرة بروشفور. وإن كنت ممن لا يثقون بأحد.

- هل وعد بأن يلزم الصمت؟

- لا. لم يعد بشيء.

- إذن فالموقف واضح.. قد يكون روشفور رجلاً شريفاً معتزاً بكرامته، لكنه يتوهم أننا نبذناه بعد أن قضينا حاجتنا منه، ثم هناك مسألة فونتراي. إن روشفور غاضب. وأؤكد لك أنه إذا غضب فهو لن يهتم بشيء وقد قرر لي أن شوازيل على الأقل رجلٌ شهم يهتم بأصدقائه ومعنى هذا أنه سينحاز إلى صفوفه شوازيل.

- حسناً. إفرض أنه فعل؟في هذه الحالة يعلو نجم شوازيل إلى الأبد. فإنه إذا عرف دور فرمينار سحقنا وستكون النتيجة المحتمة هي نفيي من فرنسا. فإن الملك لن يسكت على هذه الإهانة التي تلصق بعرشه.. ثم ماذا يكون مصيرك أنت يا سارتين ؟ من سواك دبر هذه المسألة؟

أخرج سارتين علبة السعوط من جيبه وتنشق منها، ثم إلتفت إلى النافذة ونظر إلى الفناء. وشعر بحرج موقفه. فقد إحتاط لكل شيء إلا إنقلاب روشفور عدواً له. كان سارتين يعلم تمام العلم أن دي باري إستخدم روشفور كما إستخدم الكونتس دي بيارن العجوز لتحقيق أغراضهم

الخاصة وأنهم لم يلبثوا أن ينبذوه ويتخلوا عنه بعد إنتهاء حاجتهم إليه. ولكن الذي أهاج سارتين هو أن هذا الفيكونت الأحمق جعل روشفور يفطن إلى هذه الحقيقة في غير عناء، ثم هناك إلى جانب هذا موضوع فونتراي. وفوق هذا كله فإن روشفور لم يعد بكتمان شيء.

قال سارتين آخر الأمر:

- قبل أن نتكلم عن روشفور. أخبرني ماذا إنتهى إليه أمر مدام دي بيارن؟

- لا يوجد ما نخشاه منها.. صحيح أنها سخطت وهاجت. لكن الموضوع إنتهى، ولو صممت على إحداث ضجة فلن تستفيد شيئاً وربما خسرت كثيراً، أنها أنفقت معنا وعرض عليها مبلغ غير يسير.. لقد كلفتنا مائتي ألف فرنك، وبهذه المناسبة. أعتقد أن فيرمينار في مكان أمين.

- نعم.. ما كاد ينتهي من تمثيل دوره حتى أقتيد تحت الحراسة إلى سجن «فنسان».. وسيطلق سراحه بعد أن يخرج شوازيل من الوزارة.. أما فيما يختص بروشفور فواجبنا أن تعالج الأمر بحزم.. فيجب إنقاذه من الوقوع في يدي شوازيل.. فإنه إذا وقع في يده ضعنا جميعاً.

- وما هي خطتك؟

- المسألة في غاية البساطة.. سأعتقله وأخفيه في سجن (فنسان).

- إذا علم شوازيل بذلك زاره في السجن.

- لن يعلم شوازيل.. سنقول أن روشفور هرب.. إني تلقيت في صباح اليوم رسالة من شوازيل يطلب فيها أن أبحث عن روشفور في كل أنحاء باريس، لإتهامه بقتل رجل. سأبحث عن روشفور في كل أنحاء باريس وأسجنه تحت إسم مستعار وحالما نضعه في سجن فنسان فسنأمن كل شيء ولا يبقى ما نخشاه.. إن الكابتن بيير كوزان محافظ السجن من رجالي المخلصين.

ـ هذا هو خير ما تفعله نحو روشفور إذا قدرنا موقفه من شوازيل..

- بل هذا خير ما تفعله لأنفسنا.. هل ترى أن روشفور عاد إلى مسكنه؟

- لا أعلم.. لقد أخبرني أنه ذاهب إلى مطعم (ريجنس) للإفطار..

- إذا كان قال هذا فسيكون في ذلك المطعم نزولاً على كلمته... وسأعتقله هناك..

- سيقاوم..سيكون حوله أصدقاؤه..

- أنت تتكلم كما لو كنت تخاطب أحد رجال البوليس العاديين.. إني لا أحتفظ بمنصبي هذا بإستخدام ذكائي، بل بخبرتي بطبائع الرجال ومعرفتي بأساليب تفكيرهم. صحيح أني إذا إعتقلت روشفور وفقاً للطريقة المألوفة

فسيقاوم وينجده أصدقاؤه وتراق الدماء ويهتف أهل باريس: «هذا هو دي سارتين اللعين يعمل من جديد». إن روشفور شخصية معروفة محبوبة.. واعتقاله هكذا سيجعله معبوداً للجماهير.. وليس في نيتي أن أجعله معبوداً.

تقدم سارتين إلى المائدة القريبة من النافذة و قرع جرساً، فلما وافاه الخادم قال له:

- إدع لافين.. هل جاء؟

- نعم يا سيدي.. هو هنا..

- إذن أرسله إلي..

الفصل الرابع

غاضبا توجه روشفور إلى مطعم (ريجنس) وتمنى لو يصادف في هذه الساعة أحداً من رجال شوازيل أو سارتين حتى يصب جام غضبه ونقمته عليه. وما كاد يستقر أمام المائدة حتى راح نادى الخادم الذي أحضر إليه الشراب وتكلم بصوت مسموع منتقداً كل شيء، مستخفاً بجميع الناس، حتى تطلعت إليه أنظار الحاضرين جميعاً.. لكنهم عادوا إلى شئونهم الخاصة بعد أن آنسوا حالة الشر والإستفزاز البادية على وجه روشفور.. ولم يجد أحدهم من نفسه ما يشجعه على الإشتباك معه وهو يعرف من هو بروشور، وفيما كان روشفور يتناول إفطاره وهو لايزال على سخطه وتذمره دخل إلى المطعم رجل بسيط المظهر جعل يتصفح وجوه الحاضرين.. فلما شاهد روشفور جالساً وحده إتجه إليه.. كان القادم لافين إنحني أمام روشفور وتناول مقعداً خالياً وجلس أمامه حول المائدة..وقال:

- مسيو روشفور.. إني جئت للقبض عليك.

- آه .. جئت للقبض علي يا مسيو لافين! بديع! لكن أين سيفك وأين رجالك؟

- سيدي.. إني لا أحمل سيفاً على الإطلاق.. وأعمل دائماً وحدي.

- آه.. أنت تعمل دائماً وحدك.. هذا هو شأني أيضاً..

هذه مصادفة يا مسيو لافين.

- بل سمها حادثة سعيدة يا سيدي.

- وكيف ذلك؟

- لأني، قد جئت لإسدائك خدمة سأقوم بها وحدي.

- هل تسمح لي أن أقدم لك هذه الكأس؟ إشربها نخب صحتك.. وهذه أمنية غريبة في الواقع، لأنه سيكون لي الشرف أن أغمد سيف في صدرك حالما أفرغ من إفطاري.

- إني أشرب نخب صحتك يا سيدي.. لا يسع الإنسان إلا أن يقوم بواجباته.. ولما كان واجب يحتم على أن أعتقلك فلا مفر من الإستهداف لسيفك الذي أعتقد أنه ليس أحد من لسانك في مخاطبة أولئك الذين يسيئون إليك.. لكن مع ذلك أعتقد أن هذه المخاطرة التي أتعرض لها يسيرة، مادام قصدي ألا أسيء لك.

- لا تقصد أن تسيء إلي، ومع ذلك تتكلم عن إعتقالي؟!

- لا مفر لك من مغادرة باريس في الحال يا سيدي.. أليس كذلك؟

- إني فاعل ذلك..

- لا يا سيدي.. لن تفعل.. يستحيل عليك أن تغادر أسوار باريس.. وإذا تسني لك بمعجزة أن تغادرها، فإن

مسيو دي شوازيل سيضع يده عليك قبل أن تبرح فرنسا.

- سأجازف..

- لا يمكنك.. ليست المسألة مجازفة، وإنما هي حقيقة ثابتة.. وأنت الآن مستهدفٌ لخطر كبير يهدد بسلبك هذه الحياة.

- أنا لا أهاب الموت.

- كل الناس تعرف هذا.. لكن ليس الموت هو الذي تخشاه على يدي مسيو دي شوازيل.. بل هو شيء أسوأ من ذلك..

- وما هو؟

- سجن الباستيل.. هو مقبرة مروعة، لا يفلت منها من يسوقه سوء حظه إليها..

- كيف عرفت ذلك؟.

- إن إدارة بوليس سارتين تعرف كل شيء يا سيدي.. والواقع أن مسيو دي سارتين ما كان يتدخل في هذه الوسيلة التي أعددتها للفرار لولا أنه يعلم أغراض مسيو دي شوازيل كما يعلم أغراضك.. إن باب (سان أنطوان) وضع تحت حراسة قوية بأمر مسيو دي شوازيل، ولا يمكن أن يفلت منه إنسان حتى لو تخفى وتنكر... وكذلك الشأن في باقي الأبواب الأخرى.

- يا للشيطان..إذن لابد لي أن أتقمص في جسم طير حتى أحلق فوق أسوار باريس..

- لو فعلت لأطلق مسيو دي شوازيل صقوره خلفك.

- أصبت في هذا ما دامت توجد مدام دي شوازيل وصديقتها الأميرة دي جيمنيه...

- لا هذا ولا ذاك... إني جئت إلى هنا لإعتقالك يا سيدي، وأدعوك لمتابعتي..

- وإلى أين؟ إلى الباستيل؟

- لا يا سيدي... بلي إلى سجن (فنسان)، حيث نخفيك عن عين مسيو دى شوازيل حتى يصفو الجو، وحيث تعامل معاملة المسجونين...

- لكن إذا قبلت العمل بهذه الخطة التي تقترحها يا مسيو لافين، فإني بهذا أضع نفسي في فم شوازيل ... سيسهل عليه كرئيس وزراء فرنسا أن يجدني في سجن فنسان..

- لا يا سيدي... لن يبحث في السجن عن رجل يتوهم أنه يجري في الشوارع.. بل إن مسيو دي سارتين لن يعرف شيئاً عن موضوع إعتقالك بصفة رسمية.. فإني لا أقبض عليك بإسمك... ولكن الحقيقة أني خلطت بينك وبين شريف يدعى (جوستان لابورت) متهمٌ بالتآمر وإرتياد أندية سياسية معينة.. ولو وصل إليك مسيو دي شوازيل في فنسان بدافع الحظ السيء فستقع التبعة كلها

علي وحدي... وسيكون جزائي الفصل من الخدمة بسبب هذا الخلط، لو لم يدفعك حسن الحظ إلى الإلتجاء إلى هذا المكان الذي هو آخر ما يفكر فيه رجال شوازيل وجواسيسه، لكنت الآن رهن الإعتقال... هم يفتشون جميع الشوارع ويحرسون كافة الأبواب، وقد تفوقت عليهم بحيلة يسيرة فلم تلجأ إلى الهرب بل جئت إلى مطعم «ريجنس» للإفطار.

- ومع ذلك فأنت وجدتني.

- ذلك لأني أنتمي إلى دي سارتين لا إلى دي شوزايل.

- لنتكلم في صراحة.. إن رجال شوازيل يطاردونني.. بينما يحاول رجال سارتين إخفائي..

- ليس هذا هو الوصف الحقيقي للموضوع.. إن رجال شوازيل يطاردونك.. وواجب على جميع رجال سارتين أن يعاونوهم إذا طلب إليهم أن يقبضوا على مسيو دي روشفور لكن رجلاً واحداً فقط من رجال سارتين.. وهو أنا.. يحاول إخفاء مسيو دي روشفور. وهو يفعل هذا بإيعاز من مسيو دي سارتين.

- فهمت.. إن الموضوع من الدقة بحيث لا يجسر سارتين على إعطاء أوامر صريحة لرجاله بمقاومة رجال شوازيل وإخفائي عنهم، ولذلك فهو يعهد بهذه المهمة إلى رجل واحد.

- تماماً يا سيدي.

- حسناً يا مسيو لافين.. إنك تغلبت علي لسبب واحد يسير. وهو أنك واجهتني مواجهة الشريف للشريف. لا مفر لي -كما يظهر- من الوقوع في يدك أو في يد شوازيل.. فإذا كان الأمر كذلك فإني أفضلك على شوازيل. لا لأنك تعرض على سجن فنسان بدلاً من سجن الباستيل، بل لأنك أفضل الرجلين. إني أضع نفسي وسيفي بين يديك يا مسيو لافين.. إعتقلني.

بهذه الكيفية إستطاع دي سارتين إن يروض رجلاً كان القبض عليه على أيدي رجال دي شوازيل كفيلاً بتحطيم (دي سارتين).. فإن روشفور بعد أن أصبح حاقداً على دي باري ناقماً على كامي فونتراي صار موطن الخطر الذي يهدد مدير البوليس.. بل روشفور وفيرمينار الذي كان الآن تحت حراسة الكابتن بيير كوزان محافظ سجن فنسان.

الفصل الخامس

ترك لافين المطعم يتبعه روشفور.. فسارا في الشارع حتى وصلا إلى منعطف قريب حيث كانت مركبة مقفلة تنتظر قرب الإفريز.. فقال لافين:

- هذه المركبة تابعة للبوليس يا سيدي.. ويمكنها بهذه الصفة الخروج من باب (سان أنطوان) المؤدي إلى (فنسان) كما تعرف، بغير سؤال ولا تحقيق.

فقال روشفور ضاحكاً:

- إذن فإني أهرب من الباستيل في إحدى مركبات البوليس لا بأس.. هيا بنا.

- عفواً يا سيدي.. لكني لا أستطيع مرافقتك.. فإنه لابد لي من الذهاب إلى مسكنك لتفتيشه وفحص أوراقك إلى آخر هذه الإجراءات المعروفة.. وإذا لم أتم هذه المهمة بنفسي فقد يتولاها شخص أحمق ربما وجد أشياء لا يستحب العثور عليها، وقد تتسرب أنباؤها إلى مسيو دي شوازيل.. على أنه يمكنك أن تثق بأني سأحترم كل أوراقك الخاصة..

- إني حرقتها كلها يا عزيزي لافين.. وعلى أي حال فتش كما يحلو لك.. لكن هل أذهب وحدي إلى سجن فنسان؟

- لا يا سيدي.. ستذهب مقبوضاً عليك، مقنع الوجه.. وأن الكابتن روكس في داخل المركبة.. وهو رجل صامت كالأبكم، ولذلك لن يضايقك.

- وهل أراك في (فنسان)؟

- يحتمل يا سيدي.. والآن إسمح لي أن أوصيك بالصبر هو ولست أكتم عنك أني صديق لك.. فقد رأيت فيك في صباح ذلك اليوم حين دعوتني للشراب بينما كنت تفطر في منزلك رجلاً نبيلاً يسرني أن أضع نفسي في خدمته، دون أن أنسى أن واجبي الأول هو خدمة رئيسي مسيو دي سارتين وسأرعى مصالحك دون أن أنسى مصالحه.. والآن يا سيدي عجل بالدخول إلى المركبة، فإن الإبطاء في الشارع المكشوف ينذر بالخطر..

- شكراً لك.. إني أثق في كل ما تقوله وتفعله.. إلى اللقاء يا مسيو لافين.

فتح لافين باب المركبة، ثم قال بعد أن ركب روشفور:

- كابتن روكس.. هذا هو الأسير (لابورت).. عامله معاملة الأشراف دون أن تفرط في حراسته.. ولا تدع أحداً يرى وجهه حتى يصل إلى (فنسان).. معك القناع، ولن يمانع مسيو لابورت في وضعه على وجهه طول الرحلة.

أغلق لافين باب المركبة وأمر السائق أن يذهب إلى

(فنسان).. وما كاد روشفور يستقر في المركبة حتى أطلق ضحكة لم يجد لها صدى من جانب الكابتن روكس..وكان رجلاً قوي البنية لا يعرف معنى الضحك، تبدو عليه ملامح الجد والهدوء، وهو في صمته كالأبكم.. وقال روشفور حينما سارت المركبة:

- يظهر يا سيدي الضابط أننا سنقوم برحلة غير قصيرة.

- إني أود يا سيدي أن أكون متفقاً معك طبقاً للأوامر التي أعطيت إليّ في هذا الشأن، لكن محظور علي الكلام معك..والآن، هذا هو القناع إذا أذنت..

تناول روشفور الفنان الحريري الأسمر وفحصه قليلاً، ثم وضعه على وجهه ضاحكاً. وعقد أربطته خلف رأسه.. كانت فكرة القناع تدل علي بعد نظر سارتين، فإن المركبة ما كادت تقف قليلاً عند باب (سان أنطون) حتى دنا منها أحد الحرس، رغم تحذير السائق، وأزاح ستار النافذة جانباً وأطل برأسه قائلاً:

- من هنا؟

كان الجواب لطمة قوية من يد الكابتن روكس أصابت الجندي في وجهه، ثم أطل روكس من النافذة وخاطب الحراس بلهجة شديدة قائلاً:

- كيف لا يعرفون مركبة تحمل شعار بوليس دي سارتين. وأمر بإعتقال الجندي المنكود الذي كان الدم

ينزف من أنفه.

ثم عاد إلى مكانه في المركبة التي واصلت سيرها.. فهتف روشفور وقد تملكه الطرب:

- لم أسمع في حياتي كلاماً كالذي سمعته الآن.. كم أتمنى أن أتخلى عن حريتي التي لا أملكها لكي تكون لي مثل هذه المقدرة في اللعن والسب.. ومع ذلك يقولون أنك صامت ، أخبرني وهل وصلت إلى هذه المقدرة البارعة بالران، أو ورثتها بالطبيعة؟.

- سيدي.. محظور علي الكلام معك..

إبتعدت المركبة عن باريس وأخذت تتقدم مسرعةً، ولم يجد روشفور إزاء صمت صاحبه إلا أن يستغرق في التفكير والتأمل في موقفه العجيب، ولم يفق من تأملاته إلا حينما وقفت المركبة.. وصلت المركبة إلى سجن (فنسان) ووقفت عند المدخل الخارجي، وسمع روشفور رجال الحرس يستجوبون السائق في نبرات خشنة، ثم تقدمت المركبة وإجتازت القنطرة، ووقف أخيراً في الفناء أمام المدخل المعد للسجناء.. ترجل روشفور وتبع الكابتن روكس بينما سار أحد الحراس في أثره، فإجتازوا ممشى أفضى بهم إلى غرفة الإستقبال، وهي غرفة موحشة عليها الطابع الحكومي الرسمي، بها بضعة مكاتب وملفات ومجلدات، وجلس خلف أحد المكاتب كاتب جاف أخذ يدون البيانات اللازمة في مجلد أمامه، ثم أعطى الكابتن

روكس إيصالاً بتسلم مسيو دي روشفور كأنه طرد بضاعة.. تناول الضابط روكس الإيصال ودسه في حزامه ودار على عقبيه وغادر الغرفة دون أن يفوه بكلمة. فلما صار روشفور وحده مع الكاتب والجندي خاطب الأول قائلاً:

- يظهر أن مسيو روكس ترك آداب السلوك مع لسانه في إدارة البوليس، وقد رجع بسرعة للبحث عنها حتى أنه نسي أن يقوم بيننا بواجب التعارف.. أنا لا أعرف حتى إسمك..

دون الكاتب بضع كلمات في قصاصة ورق ناولها إلى الجندي، فقال وهو يلمس ذراع روشفور:

- تعال يا سيدي..

فقال روشفور موجهاً حديثه إلى الكاتب:

- يوجد بعض الغلط يا سيدي..

- وكيف ذلك؟

- حينما قبلت أن أجيء إلى هنا بصفة ضيف لمسيو دي سارتين، كان المفهوم أني سأعامل معاملة الأسياد.. إني أطلب مقابلة الكابتن بيير كوزان محافظ السجن..

- هو غائب..

- ومتي يعود؟

- ليس للسجين أيها السيد أن يلقي أسئلة..

- لكن على الكاتب أن يجيب يظهر أنك لا تعرف من تخاطب. متى يعود رئيسك؟

نهض الكاتب قليلاً ثم عاد إلى مقعده.. فهو قد تلقى في الواقع تعليمات من سارتين بشأن معاملة روشفور.. كانت أمامه في هذه اللحظة على المكتب.. فنسي غضبه وقال:

- سيعود المحافظ في المساء، وسيحال علماً بأنك تريد مقابلته.. والآن يا سيدي قد إنتهت المقابلة.. إني مشغول..

- حسناً.

عندئذ دار روشفور على عقبيه وتبع الجندي وغادر الغرفة. كان سجن (فنسان) أشبه بالسجون العسكرية، تدوي في أرجائه الطبول والأبواق في المواعيد المعينة دون الأجراس والنواقيس.. تبع روشفور الجندي في ممشى ثم إرتقي سلماً لولبياً من الحجر إلى الطابق الأول.. فسارا في ممشى آخر حتى وصلا إلى باب بالجانب الأيمن فتحه جاويش وكشف عن غرفة يسيرة الأثاث. كان بالغرفة نافذة يتوسطها قضيب حديدي، ويشرف منها الناظر على ضواحي باريس من الناحية اليسرى، ويقع أسفلها مباشرة الخندق المحيط بالسجن، ويمتد خلفه طريق باريس المظلل بأشجار الحور..

تقدم روشفور إلى النافذة وأشرف بنظره على الخارج،

بينما أمر الجاويش بونفاللو الجندي بالرجوع وأغلق الباب وأخذ يقوم بالترتيبات اللازمة لراحة زائره.. تحقق الجاويش من إمتلاء الإناء بالماء، ومن كفاية الأغطية، ومن نظافة السرير.. ومع أنه كان يعلم أن كل شيء كما يجب، إلا أنه رأى في روشفور مظاهر السخاء أن يعنى بخدمته، وعلل النفس بالحصول على عطاء يسير.. قال بونفاللو بعد أن فرغ من مهمته:

- إني بذلت يا سيدي كل ما يمكن لتوفير راحتك.. سيقدم إليك طعام الغذاء في الساعة الخامسة، والعشاء في التاسعة.. وإذا شعرت بالبرد فيمكن تزويدك بالنار للدفء، وإذا إحتجت الكتابة فلك أن تطلب قلماً وورقاً.. ولكن عليك أن تدفع ثمن هذه الكماليات..

تحول روشفور عن النافذة وتطلع إلى سجانه لأول مرة.. فرأى في بونفاللو رجلاً ضخم الجسم ضيق العينين، تدل ملامح وجهها على الطيبة. وهو أقرب إلى صاحب فندق منه إلى سجان.. قال روشفور وقد عرف بنظرة واحدة كيف يعامل هذا الرجل:

- يبدو لي أنك شخص لطيف.. وما كان بوسع خادمي الخاص أن يفعل خيراً مما فعلت.. وإذا حان وقت خروجي من هنا فلن تندم على خدماتك لي..ما إسمك؟

- بونفاللو يا سيدي..

- حسناً يا مسيو بونفاللو.. إليك نصف جنيه لتشرب نخب صحتي.. أحضر لي بعد الغذاء زجاجة من النبيذ، وهيء بعض النار فهي خير رفيق.. أما فيما يختص بأدوات الكتابة فسننظر في هذا غداً.. وإذا كان يوجد بعض الكتب فيمكنك أن توافيني بها.. أنا لست من هواة المطالعة.. لكني قد أصبح كذلك إزاء الوقت المتوفر في هذا المكان.. هل فندقكم مملوء؟.

فأجاب بونفاللو وهو يماشي لهجة روشفور:

- نعم يا سيدي.. وإذا كان لم يصل ضيوف جدد منذ بضعة أيام، فإن الموجودين هنا سيبقون زمناً طويلاً..

- هذا دليل على تقديرهم للمكان.. هل أنا وحدي في هذا الممشى؟.

- لا يا سيدي.. يوجد ضيف آخر في الغرفة المجاورة لغرفتك.. والظاهر أنه لا يأكل، بل يعيش على الأقلام والمداد والورق..

- لابد أنه يشكو إذن من عسر الهضم..

- أنا لا أعرف ما يشكو منه يا سيدي. لكني أعرف إني كلما حملت له طعاما يسمعني ما يكتب، وهو ما لا أفقه منه حرفاً واحداً.

- آه.. لابد إذن أن يكون فيلسوفاً!

- لا أدري يا سيدي.. وكل ما أعرف هو أني لا أفهمه..

- إذن فمن المؤكد أنه فيلسوف.. على كل حال لن أعطلك عن القيام بواجباتك يا مسيو بونفاللو.. وربما كان بإمكانك أن تحضر لي بعض الملابس النظيفة، فإني جئت إلى هنا بسرعة ونسيت أن آمر خادمي بإعداد حقيبة ملابسي..

- سنقوم باللازم في هذا الشأن يا سيدي..

خرج بونفاللو وأغلق الباب خلفه بالمفتاح وترك روشفور وحده.. وتقدم روشفور ثانية إلى النافذة ونظر إلى الخارج، ثم جذب المصراع الزجاجي الذي يفتح إلى الداخل.. كانت الجدران في هذه النوافذ العليا منحدرة السطح، يتوسط كلاً منهما قضيب حديدي واحد.. ولم يساور روشفور في هذه اللحظة فكرة ما عن الهرب، وربما كان هو السجين الوحيد الذي لم يفحص سمك القضيب الحديدي ولم يقدر مدى إرتفاع النافذة عن الأرض.. كان روشفور راضياً عن موقفه الحالي، ومازالت كلمات لافين ترن في أذنيه.. وصحيح أن روشفور لم يهب رجلاً في حياته، لكن لافين أوشك أن يجعله يهاب شوازيل..لم يكن روشفور يخشى الموت، لكن السجن مدى الحياة شيء يبعث الخوف والرعب في أبسل القلوب.. ولا شك أن سجن (فنسان) يحول بينه وبين الوقوع في يدي شوازيل

والإستهداف للسجن المؤبد.. وفيما كان مستغرقاً في هذه التأملات سمع صوتاً يناديه وكأنه صادر من نفس الغرفة التي هو فيها:

- مسيو دي روشفور!

إنتفض روشفور وهتف:

- يا إلهي!.. من المتكلم؟.. وأين؟

- هنا يا مسيو دي روشفور، في الغرفة المجاورة لك.. إني سمعت صوتك وعرفتك وأنت تتكلم مع بونفاللو الغبي.. وقلت لنفسي أنه لابد من وجود فتحة في الجدار تفسر وصول الصوت إلى إذن.. وهكذا بحثت ووجدت هذه الفتحة تحت سريري..هناك حجر كبير أزاحه سجين مجتهد كما يظهر، ولم يتمكن من إتمام عمليته.. أبحث عن الفتحة من ناحيتك يا مسيو دي روشفور.. أزاح روشفور السرير بعيداً عن الجدار، وما لبث أن شاهد فتحة يبلغ قطرها نحو قدم..

إنبطح روشفور على وجهه محاولاً أن يتطلع بنظره إلى داخل الغرفة المجاورة، لكن كان سمك الجدار يبلغ نحو ثلاثة أقدام، كما أن رأس مخالبه كان يسد الفتحة ويمنع النور، ولذلك لم يرَ روشفور شيئاً.. فقال:

- ها هي الفتحة.. لكن لا أرى شيئاً.. من أنت؟

- من أنا؟.. ألم تعرف صوتي؟ عجباً!.. أنا فيرمينار!. ومن

يمكن أن أكون غير فيرمينار؟

- فيرمينار!.. وماذا تفعل هنا؟

- أنا مختبيء من مسيو دي شوازيل..

- فسر كلامك يا مسيو فيرمينار..

- لا بأس يا مسيو دي روشفور.. بعد حفلة الإستقبال اللعينة إجتمع بي مسيو لافين. أحد رجال مسيو دي سارتين.. وعلى إثر ذلك قبلت أن أضع نفسي تحت حماية مسيو دي سارتين زمناً قصيراً، ويمكنك أن تفهم السبب يا سيدي.. ولاسيما بعد أن وصل إلى علمي أن مسيو دي شوازيل عرف الدور الذي قمت به في حفلة الإستقبال وأخذ يبحث عني..

- آه.. هذا سبب وجودك هنا!

- ثم يا سيدي.. هل يجوز لي في مقابل ثقتي بك أن أسألك عن سبب وجودك في نفس موقفي، وتحت سقف واحد معي؟.

- حسناً.. إن السبب في وجودنا واحد يا مسيو فيرمينار.

- هل أنت مختبيء من مسيو دي شوازيل؟

- تماماً..

- يا إلهي!.. هذا مضحك!.

- هل هذا رأيك؟.

- بل أكثر من مضحك.. فكلانا سجين، ولا يحب أحدنا أن يهرب.. ومع ذلك فنحن نملك وسائل الهرب..

- فسر ما تقول..

- لا بأس يا سيدي.. إني هنا منذ وقت قصير.. ولكن لما كنت رجلاً نشطاً فقد طلبت أدوات الكتابة على إثر وصولي وأخذت أكتب رواية مسرحية كانت فكرتها تختمر في ذهني منذ مدة طويلة، ومن عادتي حينما أكتب أن أسير ذهاباً وإياباً وأن أقوم بتمثيل ما أكتب حتى قبل أن أسطره على الورق..

فقال روشفور ضاحكاً:

- صحيح.. سمعتك مرة.. إستمر..

- تصادف وأنا أمثل دور ريمون، وهو الشقي في مسرحيتي، إن لطمت الأرض بقدمي.. فسمعت صوتاً دلني على وجود تجويف تحت قدمي.. ولما بحثت هذا الموضوع وجدت حجراً مفككاً رفعته على الفور.. فرأيت تحته تجويفاً عثرت فيه على حبل ذي عقد طوله نحو أربعين قدماً، ورزة، وقطعة نقود مجوفة!

- هذا عجيب!.. لكن ما معنى قطعة نقود مجوفة؟

- هي قطعة نقود من ذات الخمسة سنتيمات شطرت

شطرين وأحدث بين شطريها تجويف، وجعل إطارها الخارجي بحيث يتداخل الشطران ويتكون منهما صندوق صغير..

- وماذا يمكن أن يوضع في مثل هذا الصندوق الضئيل؟.

- منشار مصنوع من لولب ساعة.. لكنه يقوي على قطع إسمك القضبان الحديدية..

- يا إلهي!.. هذه معجزة فنية!.. لا يبعد أن يكون سجين منكود صنع هذه الأدوات الدقيقة وأعد الحبل. ثم قضى نحبه أو نقل إلى مكان آخر قبل أن يستخدمها..

- نعم.. إنه أتم كل شيء.. وهذه المسألة مأساة في حد ذاتها.

- وكيف تتوج الفتحة تلك المأساة يا مسيو فيرمينار؟

- المسألة في غاية البساطة يا مسيو روشفور.. إن نافذة غرفتي ضيقة لا تسمح بمرور إنسان منها.. ومعنى هذا أن السجين كان يحاول الوصول إلى غرفتك.. ما هي سعة نافذتك؟

- هي تسمح بمرور إنسان عادي الجسم منها..

- إذن فإن ذلك السجين المنكود كان على صواب.. ويمكن القول أنه كان يعرف غرفتك ومقدار سعة نافذتها.. على أن مجهوده لم يذهب هباءً يا مسيو دي

روشفور. فإذا لم يكن في نيتنا الهرب فنحن نرغب في تبادل الحديث. وسنتحدث كثيراً حديثاً لطيفاً من غير شك..إني لم أجد حتي الآن من أتحدث معه سوى بوتفاللو الغبي.. وهو رجل جاهل لا يفرق بين المهزلة والمأساة، ولا يميز بين الشعب وبين العرائض..

- أؤكد لك يا مسيو فيرمينار أني وبونفاللو، في ذلك سواء.. فأنا لا أستطيع أن أفرق بين الرواية المسرحية المكتوبة وبين قائمة البقال.. ولذلك أرجو أن تستبعد موضوع المسرح من حديثنا.

- بالعكس يا مسيو دي روشفور ومادمت تعترف بجهلك بفن من أروع الفنون، فسيكون من دواعي سروري أن أفتح لك أبواب هذا الفردوس الحافل باللذائذ.. لكن صمتاً! إني أسمع صوتاً في الممشى.. أعد فراشك إلى مكانه..

نهض روشفور وأعاد السرير إلى موضعه.. وما كاد ينتهي من ذلك حتى فتح باب غرفته ودخل بونفاللو حاملاً بعض الملابس الداخلية..

قال بونفاللو:

- جئت يا سيدي ببعض القمصان والأدوات الأخرى. ويكفي نصف جنيه ثمناً لها..

- شكراً لك.. ضعها على السرير.. والآن أخبرني.. من هو

آخر من أقام في هذه الغرفة من ضيوفكم المحترمين؟

- لم يكن بها أحد منذ سنتين ونصف.. وكان بها في ذلك الحين مسيو دي تومري..

- وماذا جرى له؟.

- نقل إلى الغرفة المجاورة..

- وهل لايزال بها؟

- لا يا سيدي.. توفى منذ شهر.

- ومن كان هذا الرجل؟.

- كان رجلاً رقيقاً. ولم يكن يتكلم إلا نادراً.

- أحسب أنه لم يحاول الهرب.

- آه.. أبداً يا سيدي، كان وديعاً كالحمل.. وكان يقضي وقته في تلاوة سير القديسين..

- شكراً لك.. إليك نصف الجنيه. ما هذا الكتاب الموضوع فوق السرير؟

- جئت به مع الملابس كما طلبت. كان يخص مسيو تومري هو كتاب ديني قد لا يعجبك.. لكنه كتاب على أي حال..

ثم غادر الجاويش الغرفة وترك روشفور وحده..

القسم الثالث

الفصل الأول

ما كادت المركبة المقلة روشفور وروكس تبتعد عن نظر لافين حتى ذهب إلى مسكن روشفور بشارع دي لونجفيل.. فصعد إلى المسكن وأطلع الوصيف على أوراقه كتابع لإدارة البوليس، وأمره أن يجلس على السلم ويوافيه بأي زائر يحضر، ثم أخذ يباشر تفتيشه..لم يكن لافين يتوقع أن يجد شيئاً، لكنه واصل مهمته بكل عناية..وفيما هو كذلك جاءه الوصيف وقال له:

- جاءت فتاة يا سيدي وهي تنتظر في الخارج..

- أدخلها..

غاب الوصيف قليلاً ثم عاد ومعه جافوت..رفع لافين رأسه حيث كان يفحص بعض الأوراق، فأدهشة منظر الإحتشام البادي على الفتاة، ولم ير أنها من زائري روشفور المألوفين، ثم خطر له أنها قد تكون موفدة من قبل إحدى سيدات المجتمع برسالة.. ولذلك أشار لها أن تجلس في مقعد وقال لها:

- ما هي مهمتك يا آنسة؟

- جئت لكي أدفع المرتب الشهري لوصيف مسيو دي روشفور.. هل لي أن أعرف من الذي أتشرف بمخاطبته؟

- أحد رجال بوليس سارتين.. أتركي النقود فوق الطاولة يا آنسة وستسلم للوصيف.. والآن أرجو أن أسالك بعض الأسئلة.. من عهد إليك بهذه المهمة؟

فأجابت جافوت:

- هذا شأني الخاص يا سيدي..

مال لافين في مقعده إلى الخلف وقال:

- هل أنت صديقة لمسيو دي روشفور؟.

- نعم يا سيدي..

- حسناً.. إذن إعلمي أني صديق لمسيو دي روشفور كذلك، وإن كنت في الوقت الحالي أقوم بفحص أوراقه.. ولذلك أرجو أن تكوني صريحة معي من أجل مصلحته.

- حسناً يا سيدي.. ماذا تحب أن تعلم؟

- أريد أن تطلعيني على ما تعرفينه عن مسيو دي روشفور، على أنه لا حاجة بك إلى التكلم عن نقائصه إذا أحببت..

- لست أعرف له نقائص يا سيدي.. هو أبسل وأطيب رجل في الدنيا.. وقد أنقذني منذ ليلتين من رجلين كانا يريدان بي شراً..

وراحت جافوت ترد بحماسة ما حدث لها في ليلة الحفلة الراقصة التي أقامها الذوق دي شوازيل..إصغي لافين بعناية.. كان سارتين قد سرد عليه قصة كاميس عن قتل تابع شوازيل.. وقد سردت جافوت الآن القصة الصحيحة.. فأدرك على الفور حقائق الموضوع، وفهم نفسية كاميس.. قال لافين:

- قلت يا آنسة أن مسيو دي روشفور بعد أن رجع من مطاردة الشقيين وقضى على أحدهما، وجد مسيو كامي يحاول الإعتداء عليك ولطمه على وجهه وأوقعه على الأرض.. هل لم يغضب مسيو كاميس من ذلك؟

- لم يفعل شيئاً يا سيدي.. لكنه حينما إبتعد هو إصبعه ناحية مسيو دي روشفور..

- سؤال واحد يا آنسة جافوت.. لمن كنت تحملين الرسالة التي حاول الأشقياء أن يسلبوك إياها.. تكلمي بغير خوف، مهما قلت فلن يضر هذا مسيو دي روشفور..

- كانت الرسالة موجهة إلى مدام دي باري..

- آه.. هذا كل ما أريد أن أعرفه.. لا تفوهي بكلمة من هذا لأي إنسان.. وإذا كان لديك ما تحبين أن تخبريني به.. فتعالي إلى منزلي بشارع (بكبيس) رقم ١٠ وإسألي عن مسيو لافين.. تذكري شيئاً واحداً.. وهو أني صديق مسيو دى روشفور بكل ما في طاقتي..

- شكراً لك يا سيدي.. هل يمكن أن أسأل سؤالاً واحداً. هل تعرف أين مسيو دي روشفور الآن؟.. وهل هو بخير؟

- لا يمكن أن أقول لك أين هو.. لكنه في مأمن من كل سوء.

- شكراً لك يا سيدي..

ولما نهضت للإنصراف قال لها لافين:

- لحظة واحدة.. هل يمكن أن أعرف عنوانك إذا إحتجت إليك؟..

- أنا في خدمة الآنسة فونتراي يا سيدي..

- آه.. أنت في خدمة الآنسة فونتراي.. حسناً يا آنسة جافوت لا تخبري أحداً بإجتماعنا هذا ولا بحديثنا.. ولا تتكلمي عن مسيو دي روشفور.. لكن عليك أن تفتحي عينيك وأذنك.. وإذا أردت أن تخدمي مسيو دي روشفور فأخبريني بكل ما يصل إليك من معلومات تتصل به..

إنتهى لافين من تفتيشه وصرف الوصيف بعد أن نقده مرتبه ثم أغلق الباب وقصد إلى منزل سارتين.. كان سارتين جالساً في غرفته بالطابق الأول، منهمكاً في الكتابة على المكتب المشهور المحتوى على مائة من الأدراج التي تضم في داخلها نصف أسرار فرنسا..رفع سارتين رأسه

حينما دخل لافين وأتم تحرير الرسالة ثم إلتفت إلى مساعده قائلاً:

- هل من أخبار عن مسيو دي روشفور؟..

- هو الآن في (فنسان) يا سيدي.. كانت مهمة شاقة.. لكني أقنعته ولم يعارض في مرافقته الكابتن روكس. وقد فتشت مسكنه فلم أجد فيه شيئاً.. وقد تبينت كذلك أن الأقوال التي أدلى بها الكونت كاميس ضده غير صحيحة...

- أنت تعرف أنه سيان أكان قتل تابع شوازيل عدلاً أم ظلماً.. أو كان كلام كاميس صدقاً أم كذباً.. فإن هذا لا يغير من جوهر الموضوع شيئاً، والظروف كلها ضد روشفور من وجهة نظر مسيو دي شوازيل.. هذا كل شيء.. لا تهتم.. إن روشفور في مكان أمين. فلتستعد للسفر حالاً إلى فرساي.. ستتولى التحقيق في حادث تسمم الكتب (أتلانتا)، وقد سبب لى هذا الحادث من القلق والإنزعاج ما لا يسببه تسمم شوازيل نفسه لو حدث هذا.. أني حققت فيه بنفسي.. وقد عمدت إلى فالجان بإتمام التحقيق.. إن القضية شديدة الغموض.. فإجتهد في تحقيقها.. ما هي كل الأوراق المتصلة بالموضوع.. إفحصها في الطريق وكون رأيك فيها.

- هل تطلق يدي يا سيدي في القضية؟

- إلى أقصى حد.. إليك ألف فرنك ذهباً.. فقد تحتاج

إلى المال.. أطلب إعداد مركبة لك للقيام بهذه الرحلة.. سأنتظر تقريراً منك على جناح السرعة، لكن لابد من إيجاد الجاني..

- نعم يا سيدي، ستكون هذه المهمة شاقة.. أن تسمم إنسان مسألة هينة.. أما تسمم كلب فمسألة تختلف تماماً.. لكني سأجد الجاني.. إلا..

- إلا..؟

- إلا إذا كان الكلب سمم نفسه بأن أكل بعض الفضلات السامة.

- لا.. كان (أتلانتا) متأنقاً في طعامه.. إني واثق أن الحادث وقع بفعل فاعل شرير..

- لا بأس يا سيدي.. سوف نرى.

الفصل الثاني

إستقبل لافين مركبة يجرها جوادان من خيرة جياد سارتين المشهورة بأنها أسرع جياد في فرنسا كلها.. وراح في الطريق يدرس الأوراق التي عهد بها إليه رئيسه، وهي أوراق وافرة وتقارير لا حصر لها، حتى ليحس الإنسان أن القضية تتعلق بإغتيال إمبراطور، لا تسمم كلب.. فلما فرغ منها طواها ووضعها في جيبه.. تبين له أن كل من له إتصال بقصور الملك في فرساي وتريانون ولوسين قد إستجوبوا وأخذت أقوالهم.. لكنهم جميعاً نفوا التهمة عنهم ولم يسفر التحقيق عن شيء.. ولما وصل إلى فرساي أمر بإبقاء المركبة في إنتظاره وذهب إلى قصر تريانون.. وإتجه إلى جناح المطبخ وكانت الحركة على أشدها.. فأرباب السلع يروحون ويجيئون والطهاة والخدم منهمكون والجميع يتكلمون.. كان لافين معروفاً من الجميع، وعلى رأسهم برومار رئيس الطهاة الذي كان يشرف على كل شيء كما يشرف القائد على ساحة المعركة.. وما كان يرى لافين حتى هتف:

- آه.. مسيو لافين. أى حظ سعيد أتى بك اليوم إلى هنا؟

- جئت بشأن مسألة صغيرة في القصر.. وجئت إلى هنا لكي أراك وأسأل عن صحتك.. يخيل إليّ يا مسيو برومار أنك بدأت تنحل وتذبل في هذه الأيام..

- آه يا مسيو لافين.. إني حرت بين الباعة الذين لا يحضرون الأغذية في مواعيدها، وبين الطهاة الذين يتلفونها عند وصولها.. إني مضطر للإشراف على كل شيء.. وليس لي سوى عينين بدل مائتي عين أنا في حاجة إليها..

- لا بأس يا مسيو برومار.. لكل منا متاعبه.. بل إن جلالة الملك نفسه لم يخل من المتاعب والقلق كما علمت بسبب موت كلبه المحبوب (أتلانتا)..

- آه.. لا تكلمني عن هذا الموضوع.. إن مسيو دى سارتين نفسه ظلمني وإستجوبني.. كأني أنا الذي أعطيت السم للكلب.. قلت له: «لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع.. لكن مادام (أتلانتا) كان يتناول طعامه كل يوم على مائدة الملك حينما كان في فرساي ، فلابد أن تكون وفاته من الطعام الذي يشرف ريبو على إعداده، فهو كما تعلم أصبح رئيسا للطهاة في قصر فرساي، وقد سرق مني لوناً من الطعام إبتكرته وأطلق عليه إسمه.. إن الرجل الذي يسرق إبتكار إنسان آخر يا مسيو لافين لا يتورع عن تسميم كلب.. أني لا أتهمه يا مسيو لافين.. فهو رجل مسكين يخاف من تسميم كلب، إني أتهمه بالسرقة والغباوة. لا بتسميم (أتلانتا). وفوق هذا يا مسيو لافين، ففي رأيي أن الكلب لم يمت مسموماً..

- إشرح لي رأيك يا مسيو برومار..

- سأقول لك رأيي.. ما هي القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها فن الطهي؟

- لا أدري.. إلا إذا كان هذا الفن يرتكز على كتفي رئيس الطهاة..

- إن فن الطهي يرتكز على البيضة.. هي عماد الأطعمة في فرنسا.. ولا يكاد يخلو منها لون.. البيضة هي الكل في الكل.. ولو إنتحر كل الدجاج في العالم، لإنتحر معه كل طاهٍ يحترم نفسه في فرنسا..

- أنت فيلسوف يا مسيو برومار، ولاشك أني سأرفع قبعتي أمام أول دجاجة أصادفها وأنحني أمامها إحتراماً.. لكن أخبرني ما علاقة البيضة المحترمة بتسمم (أتلانتا)؟

- لا توجد علاقة بينهما.. إن ما أريد أن أقوله.. أنه كما أن فن الطهي يرتكز على البيضة، فكذلك الحياة ترتكز على المنطق والعقل.. وليس من المنطق ولا من العقل أن تفكر في أن إنساناً يقدم على تسميم (أتلانتا) المخلوق الوديع أن (أتلانتا) في رأيي سمم نفسه.. ليست الكلاب كالقطط. ولعلك تلاحظ أن القط يدقق في إختيار طعامه.. وإذا ألقيت أمامه قطعة من السمك فهو يشمها أولاً ليتأكد من أنها في حالة حسنة في حين أن الكلاب تأكل كل شيء..

سمع في هذه اللحظة صوت صفير يقول هذه الكلمات:

- الكلاب تأكل الورد..

كان المتكلم إبن برومار الصغير، وكأن مرتدياً ثوب الطهاة الرسمي، وهو الرداء الأبيض والقبعة العالية البيضاء.. دنا برومار الصغير من والده وأخذ يستمع إلى محاضرة البيضة بإعجاب وخشوع.. ولما سمع منه والده تلك الجملة نظر إليه ضاحكاً ثم إستأذن لافين لحظة للإشراف على أحد الطهاة. عندئذ قال لافين مخاطباً برومار الصغير:

- صحيح أن الكلاب تأكل الورد؟ كيف تعرف؟

فأجاب الطفل:

- رأيت (أتلانتا) كلب جلالة الملك اللطيف يشم وردة.. وأخبرت أبي عندما كانوا يقولون بأن (أتلانتا) مات مسموماً.. أخبرته أني رأيت أتلانتا يأكل وردة.. وأنه ربما كانت تلك الوردة هي التي قتلت الكلب.. فضحك أبي.. لكن الكلاب تأكل الورد في الحقيقة..

- وأين رأيت (أتلانتا) يأكل تلك الوردة؟

- في حديقة القصر. كان رجل وسيدة يسيران معاً، والرجل ممسك وردة بيده خلف ظهره.. وكان الكلب يتبعهما.. وأخذ يشم الوردة.. ثم عضها..

- شيء لطيف..!

- ولما رأى الرجل ما فعله الكلب رمى الوردة خلف ظهره بين بعض الشجيرات.. ولم تر السيدة شيئاً من ذلك، فإنها كانت تتكلم وتضحك..

- في أي يوم حصل هذا؟..

- في اليوم السابق لوفاة (أتلانتا)..

- ما هي أوصاف الرجل؟

- قبيح المنظر.. بوجهه آثار جدري..

- والسيدة؟

- لا أعرف يا سيدي.. لكنها كانت تعرج..

فقال لافين:

- صحيح أن الكلاب يمكن أن تأكل الورد.. لكن الورد لا يسمم الكلاب ولذلك أنصحك أن تنسى ما رأيته، وإلا غضب منك الرجل القبيح..أنت ولد نبيه.. خد هذا لشراء حلوى به..

تناول الطفل قطعة النقود وشكر لافين وإنصرف إلى عمله.. وإستأذن لافين من برومار وسار في أحد المماشي الجانبية حتى وصل إلى مقر رئيس بستانيي قصر تربانون.. ودعا لافين البستاني، فقال الرجل:

- هل من خدمة يا مسيو لافين؟

- أحضر مجرفة وتعال معي إلى المكان الذي دفنت فيه (أتلانتا) رأيت في محضر التحقيق أن الأوامر صدرت إليك بدفنه..

حمل البستاني مجرفة وسار مع لافين إلى بقعة مكشوفة تحوطها بعض الشجيرات، فقال له لافين:

- أخرج جثة الكلب.. أريد أن أفحصها..

أطاع البستاني.. وركع لافين على ركبتيه وأخذ يفحص فم الكلب فحصاً دقيقاً.. كانت جثته خلواً من التعفن والتحلل بسبب دفنها في بقعة جافة.. ولما إنتهى لافين من مهمته نهض على قدميه وأزال التراب عن ملابسه ومنح البستاني شيئاً من المال ثم عاد أدراجه إلى حيث كانت المركبة تنتظره..ولما سارت به عائدةً إلى باريس أخذ لافين يدون بعض المذكرات في مفكرته.. عرف لافين قاتل (أتلانتا). وربما كان الفضل في هذا راجعاً إلى الحظ المقرون بالذكاء، أو إلى الوسيلة التي أتبعها في إدارة دفة التحقيق بحيث تجنب توجيه الأسئلة المتصلة بتصميم الموضوع وقصر كلامه على المسائل العامة. وهكذا أهتدى في بضع ساعات إلى ما لم يهتد إليه سارتين في أيام.. ولما وصل إلى إدارة البوليس ألفى سارتين غائباً وقد ناب عنه مسيو بوريجار.. كان بوريجار رجلاً ضخم الجسم حسن المظهر معدوداً من أبرع رجال السيف في فرنسا.. ومع أنه لم يكن آية في الذكاء فإن سارتين إختاره دون غيره نائباً عنه لإخلاصه وخبرته الإدارية الوفيرة كما كان صديقاً حميماً للافين.. قال لافين:

- إن غياب الرئيس أمر يؤسف له.. فإني أحمل له أنباء

هامة.

فقال بوريجار:

- ما هي هذه الأنباء؟

ـ وجدت دليلاً يشير إلى قاتل (أتلانتا)..

ـ عليك أن تعين شخصه.. فتستحق شكر إدارة البوليس كلها.. ليست المسألة مجرد تسميم كلباً ولا أن هذا الكلب كان أثيراً عند الملك.. بل إن إدارة البوليس قد تمرغت في الرغام سبب هذا الحادث التافه..

- لا بأس يا كابتن بوريجار.. إذا كان تسميم (أتلانتا) حادثاً تافهاً في الظاهر، ففي إعتقادي أنه سيكون محور قضية ضخمة تستغرق جهود إدارة البوليس.. إني أرجو أن أضع يدي على القاتل، وأن أتمكن بهذا من تبرئة مسيو دي روشفور من تهمة إغتيال أحد أعوان مسيو دي شوازيل كما أنه أنقذ حياة إمرأة..

- إذن فأنت توشك أن تقوم بمهام جسيمة.. هل يمكن أن تسر إلى بنواياك؟

ـ نعم .. فإن لي بك ثقة تامة..

- شكراً لك.. أخبرني إذن من هو قاتل (أتلانتا)..

- هو الكونت كاميس..

- ومن هي السيدة التي ستنقذ حياتها؟

- هي الكونتس كاميس..

- زوجة كاميس؟

- نعم..

- يا إلهي.. وما هو الخطر الذي يهددها؟

- ومن يدس لها السم؟..

- الكونت كاميس..

- رحماك يا ربي.. لكن كيف علمت بكل هذه المعلومات الشائقة؟

- في اليوم التالي لعودة الكونت كاميس إلى باريس مع مسيو دي روشفور بعد رحلة للصيد والقنص.. وحدث في هذا اليوم أن سار كاميس مع زوجته في حدائق قصر تريانون وقد أحضر معه وردة مجهزة.

- وردة مجهزة !..

- هي وردة ممزوجة بنوع من السموم الخفية التي حمل الإيطاليون إلى فرنسا أسرار تركيبها في عهد الملك شارل التاسع. وهذا الورد إذا تم مزجه بالسم يوضع في حيز مغلق أو في علبة حيث يحتفظ بمفعوله زمناً طويلاً طالما بقى محجوباً.. لكن تأثير السم لا يلبث أن يزول في بضع

ساعات إذا أخرج هذا الورد من العلبة وتعرض للهواء الطلق..

- لكن ما هو مفعول هذا السم؟ وكيف يستخدم؟

- المسألة في غاية البساطة.. أن من يستنشق عطر الوردة السام لا يلبث أن يموت..!

- يموت من تأثير العطر؟

- موتاً أكيداً محققاً كمن يشرب سماً زعافاً.

- إستمر..

- بينما كان صاحبنا يسير مع زوجته في حدائق قصر تربانون أخرج الوردة من العلبة خلسة دون أن تراه زوجته، وحملها بين أطراف أنامله من نهاية ساقها بحيث كانت الوردة نفسها مدلاة إلى الأرض، وهم أن يقدمها إلى رفيقته ضاحكاً.. وإذا (أتلانتا) الذي تبعهما ربما مدفوعاً برائحة خاصة في الوردة.. إذا (أتلانتا) يعض الوردة.. ولما أحس كاميس بما حدث رمى الوردة التالفة خلف ظهره بين بعض الشجيرات.. وقضى (أتلانتا) نحبه بدلاً من السيدة.

- هل أنت واثق مما تقول؟

- كل الثقة..

- وهل يمكن أن تقيم الدليل على هذا ضد كاميس؟

- لا يمكن هذا على وجه القطع والتحديد.. يمكن أن أثير الشبهات حوله..

- وما هي الخطة التي تقترح تنفيذها؟

- هذا ما لا أعرفه..

- لا تعرف ماذا تفعل؟

- عفواً.. إني أعرف.. لكن ليست معرفةً تامة.. على أني مع ذلك أقرر لك أن خطوتي الأولى ستكون دخول منزل الكونت كاميس..

- بأمر من مسيو دى سارتين..

- يا إلهي.. كلا.. بل سأدخل نخادم.. إن لنا رجلاً في كل بيت من البيوت الكبيرة المعروفة.. وأعتقد أنه يوجد أحدهم في بيت الكونت كاميس..

- بلا ريب.. تعلم أن مارتين يرتاب في كاميس.. ورجالنا دائماً يتبعون مواطن الشبهات.. إنتظر..

قرع بوريجار الجرس، فلما جاء أحد الكتّاب أعطى إليه أمراً خاصاً فذهب الكاتب وعاد بعد قليل حاملاً مجلداً ضخماً مغلقاً بقفل من نحاس..أخرج بوريجار ربطة مفاتيح من جيبه وإختار أحدها وفتح المجلد وجعل يقلب الصحائف المرقومة بحرف (ك)، ثم أشار بإصبعه إلى أسهم في منتصف العمود قائلاً:

- نعم.. أن جيمو يقوم بوظيفة خادم غرفة (الفضيات) في الخدمة الكونت كاميس..

- لا فائدة منه.. لكن لنشكر الحظ لوجوده هناك.. والآن فلنخطره بأن والدته في خطر وأنه لابد من حضوره، وسيحل إبن عمه -وهو أنا- محله في خدمة الكونت مؤقتاً.. سأحمل إليه هذه الرسالة بصفتي إبن عمه.. وسأقول أني تركت حديثاً خدمة مسيو جاستون ليرو.. فهو ينتمي إلينا.. وأرجو أن ترسل إليه في الحال من يستحضر منه شهادة بخدمتي عنده..

- حسناً.. سأقوم بكل ما تطلب..

- والآن سأذهب للتنكر في زي دوري الجديد، وسأكون على تمام الإستعداد بعد ساعة حينما تصل الشهادة المطلوبة.. أرجو جعل تاريخ تحرير الشهادة لمدة شهر سابق، وتحديد فترة الخدمة بعامين..وقد لا أحتاج إلى هذه الشهادة بالمرة.. فإنهم سيسرون في الواقع بقبول خدمة إبن عم جيمو لهم أثناء غياب جيمو للعناية بوالدته المريضة وبذلك يوفرون على أنفسهم عناء البقاء بغير خادم أو البحث عنه على أنه مع ذلك يحسن الإحتياط لكل شيء.

- أتمنى لك كل توفيق..

غادر لافين وأسرع إلى مسكنه.. كانت الساعة السابعة مساء، وقد قد أمضى نهاراً حافلاً.. على أنه ما كاد يصل

إلى المنزل حتى وجد جافوت تنتظره.. وقالت حينما رأته:

- أني لم أطلعك على كل ما أعرفه عن شئون روشفور حينما تحدثت معك في صباح اليوم.. هناك مسألة كتمتها عنك وأحب أن أدلي بها الآن إليك..

فقال لافين باسماً:

- أدخلي معي..

الفصل الثالث

جلس لافين في مقعد قرب طاولة وأشار إلى جافوت أن تجلس في مقعد آخر وطلب إليها بلهجة لطيفة أن تسرع نظراً لإنشغاله بمسائل هامة..

قالت جافوت:

- إني لم أخبرك بكل شيء في صباح اليوم يا سيدي لأن ما كتمته عنك يتصل بموضوع يخجلني ذكره من ناحية، ولا يخجلني من ناحية أخرى..

- و ما هو ؟

- هذا الموضوع يتصل بفتح رسالة صادرة من مسيو دي شوازيل إلى سيدة في (كامبين)..

- ومن فتح الرسالة؟

- أنا يا سيدي..

- وكيف وصلت إلى يدك؟

قصت عليه جافوت كيف عثر روشفور على الرسالة في حقيبة المراسلات التي كانت على ظهر الجواد الذي فر به من فرساي إلى باريس.. ثم قالت:

- لم يقبل مسيو روشفور أن يفتح الرسالة، بل أعطاها لي لحملها إلى صاحبتها في (كامبين).. ولما قلت له: «إن

مسيو دي شوازيل ما كان يتردد في فتح الرسالة لو أنها كانت تخصك» أجابني بهذه الجملة: «لست مسيو دي شوازيل، بل أنا مسيو دي روشفور فقط».. كان هذا الجواب جديراً برجل نبيل مثله.. أما أنا يا سيدي فلست إلا خادمة، بل خادمة غيورة على مصالح مسيو دي روشفور.. نظراً لأنه أنقذني من أيدي رجال مسيو شوازيل الذين كان يمكن أن يقتلوني.. أنا لا أحب مسيو دي شوازيل و...

أتم لافين جملتها ضاحكاً:

- وتحبين مسيو دي روشفور..

تورد وجه جافوت ولمعت عيناها كأنها سمعت إهانة جارحة، ثم هدأت وقالت:

- ربما كنت على حق يا سيدي.. وربما كنت مخطئاً.. ومهما يكن فليس لعواطفي دخل في هذا الموضوع..

- عفواً.. إني تجاوزت في كلامي.. وأرجو أن تقبلي إعتذاري.. والآن، هل يمكن أن أسالك عن مضمون الرسالة؟

- بل إني سأطلعك على الرسالة نفسها.. أخرجت جافوت الرسالة من صدرها وناولتها إلى لافين فنشرها هذا فوق الطاولة وأخذ يطالعها وهو مستند بمرفقيه واضع رأسه بين راحتيه.. كانت وثيقة هائلة بخط شوازيل.. كتبها في لحظة

هياج شديد عقب الإحتفال بمدام دي باري، ولم تتجاوز الإثني عشر سطراً.. لكنها كانت تشرح إخفاق المكيدة التي دبرها ضد دي باري.. وقد تناولت الملك بعبارة غير لائقة مجردة من الولاء..

- يا لها من رسالة!

هتف لافين، ثم نظر إلى خلف الرسالة، ثم طالع سطورها من جديد..

يذكر القادة أن شوازيل عدو سارتين، وأن منتهى ما يطمح إليه سارتين هو القضاء على نفوذ شوازيل وأنصاره عن الحكم. كان لافين يعرف هذه الحقيقة، وقد أدرك أن هذا السلاح الموجود أمامه على الطاولة هو سلاح فاتك، لو قدمه إلى سارتين لأغدق عليه المال بلا حساب وخلع عليه الجاه والنفوذ. لكن لافين لم يكن ممن ينتهزون الفرص، وما كانت المطامع الشخصية لتعميه من حقيقة واقعة هي أن هذا الكلام الملقي أمامه ليس له أن يبيعه.. فهو يخص جافوت.. ولكي تنقذ روشفور داست على قواعد الخلق القويم وفتحت رسالة شوازيل ولما كانت ثق بلافين فقد جاءته بالرسالة.. وأي إنسان آخر في بوليس سارتين ما كان يتردد في إبعادها بالوعد أو بالوعيد وحمل الرسالة إلى سارتين..لكن لافين لم يكن رجلاً عادياً.. فهو مع اللئيم لا يتردد في التوسل بالمكر والحيلة، لكنه مع الشريف آية في الشرف والإستقامة.. كان لافين يعلم أن

هذا السلاح يجب أن يستخدم في الدفاع عن روشفور، لا في تحقيق أطماع سارتين.. وكان يعلم فوق ذلك أنه يمكن إدراك الغايتين معاً بهذا السلاح، أي الدفاع عن روشفور وتحقيق مطامع سارتين.. لكن الوقت لم يحن بعد لإستخدامه.. إلتفت لافين إلى جافوت وقرر لها رأيه في الموضوع بصراحة أدركت الفتاة بغريزتها أنها طبيعية لا تكلف فيها، فقالت:

- وهل تستبقي معك هذه الرسالة إذن يا سيدي؟..

- سأبقيها معي بموافقتك.. وإذا إضطررت لإستخدامها فسيكون ذلك لمصلحة مسيو دى روشفور ومصلحة رئيسي، لكني أعدك بإستخدامها في مصلحة مسيو دي روشفور أولاً..

- حسناً يا سيدي.. سأتركها معك..

إنصرفت الفتاة بعد قليل.. وعلى إثر إنصرافها أخفى لافين الرسالة في درج سري وأخذ يرتدي ملابسه إستعداداً للدور الذي سيمثله في بيت الكونت كاميس..

الفصل الرابع

بعد أن غادرت جافوت منزل لافين قصدت منزل دي باري بشارع دي فالوا.. حيث تقيم كامي فونتراي، وصلت جافوت إلى منزل دي باري فوجدتهم يعدون لوليمة عشاء.. ولما تركها روشفور في صباح ذلك اليوم ذهبت جافوت إلى سيدتها في منزل دي باري حيث عاونتها في إرتداء ملابسها ثم إنسلت إلى مسكن روشفور وإلتقت بلافين لأول مرة. ولما راجعت نفسها ورأت أنها أخطأت في عدم الإفضاء إلى لافين بموضوع رسالة شوازيل، وليقينها بأن لافين هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن يساعد روشفور، فقد غادرت منزل دي جاني خلسة في منتصف الساعة السابعة مساءً وأطلعت لافين على موضوع الرسالة، حتى إذا إنصرفت قصدت إلى سيدتها لمساعدتها في إرتداء ملابسها إستعداداً للسماء.

ولو كانت جافوت فتاة عادية لتركت الرسالة لدي باري لما تعلمه عن عدائهم لشوازيل.. لكن جافوت كانت قد فهمت أساليب الحياة في البلاد وفي بيت دي باري على وجه الخصوص، وهو ما حملها على عدم الوثوق برأي إنسان ينتمي إلى دوائر البلاط، ولا بأفراد بيت دي باري. كانت تعلم أنهم إذا إستخدموا الرسالة ضد شوازيل فسيفعلون ذلك لمصلحتهم الخاصة دون مصلحة روشفور.. وستبين الحوادث المقبلة مبلغ ما في أفكار هذه

الفتاة من الصحة والحقيقة.. كانت الكونتس دي باري لاتزال في فرساي، لكن شون وجان دي باري كانا منهمكين في إعداد المعدات لإقامة حفلة عشاء في هذه الليلة لبعض الأصدقاء.. وكان في طليعة المدعوين الكونت كاميس..ذلك الرجل الذي ساهم بأكبر نصيب في الكيد لأسرة دي باري في طليعة الوافدين في هذا اليوم على المنزل لتهنئة جان بنجاح الكونتس وقد استقبله جان باسطاً ذراعيه ورحب به أبلغ ترحيب.. لم يكن جان يحفل بشيء في هذا الوقت بقدر ما كان يحفل لتسوية صلاته مع شوازيل وتحسين علاقاته إزاء رجال حزبه..لقد إنتصرت الكونتس وهزمت شوازيل وهي تنوي أن تحطمه وتقضي عليه، ولم تنته المعركة بعد.. لكنها صوت الضربة الأولى وكان من حسن السياسة أن تبتسم في وجه شوازيل وفي وجوه أتباعه، كما رأى شوازيل ورجال حزبه من حسن السياسة أن يقبلوا يدها ليلة فوزها.. قال جان دي باري مخاطباً كاميس في ذلك الوقت:

- إني أدعوك يا عزيزي لتناول العشاء هذه الليلة.. إني دعوت مدام دي دبراس وآخرين.. تسألني عما إذا كنت سمعت من روشفور.. لا.. ما عندك من أخباره؟

سرد عليه كاميس في عبارة وجيزة الجرائم المنسوبة لروشفور وكيف أنه هرب في الليلة السالفة حينما هم كاميس أن يعتقله بأمر شوازيل.. فقال جان:

- كنت أراه دائماً متهوراً طائشاً.. وهل نجح في الهرب؟

- لن ينجح مادامت الحدود موجودة.. إن شوازيل يفتش عنه في كافة الشوارع، وقد أعدت جائزة ألف جنيه لمن يأتي به حياً أو ميتاً..

- إذا جيء به ميتاً فسنستريح في المستقبل من تبجحه وغروره..

- بل أفضل أن يؤتى به حياً.. فسوف يشنق حتماً ما دام في الدنيا رجل إسمه شوازيل..

ودع جان دي باري الكونت كاميس حتى الباب.. وما كان جان يحفل إذا شنق روشفور، على شرط أن يطوق عنقه حبل الجلاد قبل أن يعترف.. فقد كان يفزع من وقوع روشفور في يد شوازيل، لكنه طمأن نفسه بأن روشفور موجود الآن بين جدران سجن فنسان.. ولما حان موعد العشاء في الساعة الثامنة، جاء كاميس إلى منزل دي باري كما جاء ديستوفيل.. وراح جان يرحب بهم جميعاً وهو في أتم حالات السرور، فإنه لم يكن أبلغ في الدلالة على مقدار فوز الكونتس دي باري من هذا القلق الذي يدور في صفوف أقطاب حزب شوازيل وتهافتهم على بيت دي باري.. أما كاميس فقد أستأثر بالحديث مع كامي فونتراي، وراح يقول لها:

- يخيل إلى يا آنسة أنه قد مضى دهر طويل منذ رأيتك

في حفلة مسيو دي شوازيل، مع أنه لم يمض عليها سوى وقت قصير..

- لقد جدت حوادث بارزة منذ تلك الليلة، حتى ليكاد الإنسان يحسبها في الماضي البعيد.. خذ مثلاً حفلة إستقبال الكونتس..

- آه.. نعم.. إن هذه المناسبة شغلتنا جميعاً.

- بل شغلتنا إلى أبعد حد..

- هل أنت صديقة للكونتس يا آنسة؟

- صديقة حميمة يا سيدي..

- حسناً.. أنا لم أكن من أصدقاء الكونتس.. ومع أني لم أكن عدواً لها، فلابد أن أقرر بأني لم أكن صديقاً لها بالمعنى الدقيق.. إن الحياة في البلاط كلعب الشطرنج.. وربما تعرفين أن مباراة كبيرة كانت دائرة في الأيام الأخيرة بين صديقي شوازيل وبين الكونتس.. إني كنت مع شوازيل أثناءها، بل إني إشتركت معه في بعض الخطوات.. لكن الكونتس كسبت المباراة، ولابد أن أقرر أن شجاعتها جعلتني من المعجبين بها..

- ولم تجعلك صديقاً لها؟

- أنا صديق مسيو دي شوازيل يا آنسة.. ولست أتخلى عن أصدقائي بسهولة.. على إني أقنع بالإبقاء على هذه

الصداقة وسأقف جانباً ولن أساهم بعد في أية خطوة تتخذ ضد الكونتس.

- ولم تلزم نفسك يا سيدي بإتخاذ هذه الخطة السلبية؟

- السبب بسيط.. هو أني لا أستطيع أن أقوم بعمل إيجابي ضد سيدة هي صديقة لك..

- وما المانع يا سيدي؟.

- آه.. تسألينني سؤالاً يصعب الجواب عنه.

- كيف ذلك؟

- لأن هذا الجواب قد يغضبك...

- إذن فخير لك يا سيدي ألا تدلي بهذا الجواب.

- بل بالعكس.. خير لي أن أصارحك بما في نفسي، لأن كتمانه قد يؤول بمعنى الجبن.. كما أنه من الخير أن يعرف كلانا سراً يعذبني ويأكل صدري كما تأكل النار الحطب..لا أستطيع أن أعمل ضد صديقة لك من أجل هذا السبب البسيط. وهو أني أحبك.

نهض كاميس قبل أن يتم جملته. وما كاد ينطق بالكلمة الأخيرة حتى إنحنى بإحترام وإبتعد إلى حيث كان جان دي باري واقفاً مع بعض الضيوف يحادثهم فإنضم إليهم وإشترك في الحديث. تبعته كامي فونتراي بعينيها. فقد لفت كاميس نظرها في حفلة الرقص التي أقامها (شوازيل)

وأحست بنفور منه إزاء الدور الذي لعبه ضد الكونتس دي باري فلما رأته يصارحها بالدور الذي قام به قام نفورها إلى حد ما. وكان هذا النفور يتلاشى إزاء تشريحة بأنه سيلزم في المستقبل خطة الحياد. لكن إعترافه بالحب أذهلها وأطاش صوابها.. فقد كان الرجل متزوجاً وفي هذا الإعتراف معنى من معاني الإهانة. على أنها لم تر أنها أهينت، ولم تغضب من هذا التصريح، بل أحست بهزة عميقة هزت كيانها لأول مرة في حياتها.

سقطت الآن تحت جاذبية هذا الرجل، وهي لا تكاد تدري بأن إعترافاً بالحب يصدر من كاميس هو أدنى إلى إعتراف النمر المفترس بالرحمة تخالج قلبه. وجعلت تراقبه وهو يتحدث مع المدعوين حتى جاءتها مدام دي ديراس فأزالت عنها هذا السحر الذي إستولى عليها..وفيما كانوا يتناولون طعام العشاء لم تنقطع عيناها من النظر إلى عين كاميس، ودار حديث صامت بينهما وهي لا تكاد تعي لنفسها. فالذين لهم طبيعة كاميس يصوبون ضرباتهم القاتلة إلى فرائسهم من النساء بالكلام الصامت. وقد وهبتهم الطبيعة مقدرة على تحويل أفكار النساء إليهم والتأثير في عقولهن أبلغ التأثير.

وظل كاميس طول السهرة بتجنب الإقتراب من الفتاة التي صرح لها بحبه، وكان يتظاهر أحياناً بشرود الفكر والذهول، فقد أيقن أنها تراقبه وتتبعه بعينيها. وهكذا لعب

دور العاشق ببراعة. ولما نصبت موائد اللعب بعد ذلك كانت كامي فونتراي قد إختفت من الغرفة. ولم تظهر ثانية في هذه الليلة.

الفصل الخامس

كان لافين بارعاً في فنون التنكر. وقد أعد في منزله دولاباً خاصاً يضم كافة الملابس التي تدعو الظروف إلى إتخاذها، وما كاد يمضي ربع ساعة على إنصراف جافوت من منزله حتى تنكر بزي خادم عليه مظاهر العوز، خلو من العمل. يلتمس عملاً جديداً، وغادر مسكنه إلى إدارة البوليس حيث حمل الشهادة التي كتبت له بإسم (جوف) وقصد إلى بيت كاميس بشارع (ترون). كان المنزل فسيحا مهيأ على الطراز الإيطالي. ولما طرق لافين الجرس إستقبله البواب في شيء من الجفاء وقاده إلى جناح المطبخ حيث وجد جيمو وأخبره بإشتداد وطأة المرض على والدته. إشتد حزن جيمو وأبدى جزعاً طبيعياً لا تكلف فيه، حتى أن لافين أعجب به في نفسه وصمم أن يوصي سارتين بترقيته فيما بعد. ولما جفف جيمو دموعه قاد لافين في ممشى وأضاء شمعة وذهب به إلى غرفة نومه الصغيرة المجاورة لغرفة «الفضيات». وكان جيمو مكلفاً بحراسة «الفضيات» ليلاً علاوة على قيامه بتنظيمها. إلتفت لافين إلى جيمو وسأله:

- هل عندك ما تقوله ؟

- يا مسيو لافين.. لم يحدث في المنزل شيء له إتصال بالسياسة... لقد أوصاني مسيو دي سارتين أن أراقب من يأتي من أصدقاء مسيو دي شوازيل، ومن يوفدهم من

الرسل، وأن أبذل غاية الجهد في العثور على رسالة من الدوق.. لكني لم أجد حتى قصاصة من هذا القبيل...

- لا بأس.. أنت أديت واجبك بإهتمام، وسأنوه بذلك في تقريري... إني جئت لأحل محلك.. وعليك الآن أن تذهب إلى وكيل المنزل وتحصل منه على أجازة لرؤية والدتك وقل له أن إبن عمك شارل جوف على إستعداد للعمل مكانك، وأنه خادم بارع يحمل شهادات طبية... ثم عد إلي وأخبرني برأيه...

- سمعاً وطاعة...

- ما هي أوصاف هذا الوكيل، وما هو إسمه؟

- يدعى بريجون وهو مغرم بالكلام أكثر من غرامه بالخمر...

- هل هو ثرثار.

-نعم ..

- حسناً.. إذهب الآن وإستعمل ذكاءك حتى يقبلني محلك...

غادر جيمو الغرفة وأغلق الباب خلفه، وجلس لافين ينتظر عودته ويقلب نظره في الغرفة الحقيرة الأثاث التي لا تضيئها إلا شمعة ضئيلة.. عاد جيمو بعد خمس دقائق، فسأله لافين: خيراً؟

- كل خير يا مسيو لافين.. إن الوكيل في حالة نفسية طيبة. ألقى على جميع الأسئلة عن والدتي وحدثني عن واجبي نحوها ومنحني ثلاثة أيام أجازة. وهو يرغب في رؤيتك.

- لنذهب في الحال قبل أن تتغير حالته.. سر أمامي وقدمني له، ولا تقل بعد ذلك كلمة واحدة.. سأتولى أنا الإجابة عن كل شيء..

غادر الإثنان الغرفة إلى مكتب بريجون الكائن في (البدروم).. كانت غرفة فسيحة بها مكتب عتيق، مملوء بالأوراق والأدوات التافهة.. وكان بريجون أشعث الهيئة كمكتبه، قوي البنية، مورد الوجه طيب القلب.. وما كاد يرى لافين حتى قال:

- هذا هو الشاب الذي جاء للعمل مكانك.. وهل يعرف واجبات عمله إذن؟

- نعم يا سيدي...

- من كان يخدم قبل ذلك؟.

فتولى لافين الجواب قائلاً:

- سيدي.. كنت في خدمة مسيو ليرو، ولكي أسهل مهمتي أحضرت معي الشهادة التي زودني بها عند تركي خدمته..

- ولم تركت خدمته؟

فقال لافين وقد تذكر غرام بريجون بالثرثرة:

- لم أترك خدمته لعيبٍ فيه أو لعيب في نفسي.. بل كان ذلك بسبب زوجته..

ـ آه.. زوجته..! هل كانت عصبية إذن؟.

- ليست عصبيتها فقط يا سيدي، بل أشياء أخرى..

طالع بريجون الشهادة وأعرب عن إرتياحه وأمر جيمو بالإنصراف وإستبقى لافين ولما أغلق الباب إلتفت إليه قائلاً:

- حسناً.. ماذا كانت تفعل زوجة ليرو؟

ما كاد لافين ينتهي من سرد قصته الخيالية حتى بلغ السرور من نفس بريجون مبلغاً كبيراً.. ونهض لإرشاد الخادم الجديد إلى نواحي المنزل، فطاف به في المطبخ وغرفة «الفضيات» وغرفة النوم المعدة له وغيرها من الغرف ثم صعد به إلى غرفة الأكل حيث يتعين عليه أن يحمل إليها الأواني اللازمة. وفيما هو في الطريق إليها قاد لافين الحديث إلى ناحية كاميس، قائلاً:

- لا أخفي عنك أني أعتبر قيامي بالخدمة في بيت سيدك، ولو لمدة قصيرة، حادثاً مشرفاً في حياتي.. إني سمعت عنه كثيراً.. وقد قيل أنه براع في كل شيء حتى

أنه يعرف اللغة العربية وأسرار الشرق على إختلافها..

- لك أن تقول ذلك. ليست أسرته من أعرق الأسر القديمة فقط، ولكن له عقلاً جباراً. إني أعرفه تماماً، وهو يثق بي.

- وهل صحيح أنه كيميائي.؟

قوس بريجون شفتيه وهو يغلق غرفة الأكل بعد أن إطلع صاحبه عليها، وأجاب:

- ليس لي أن أتكلم عن أسراره. لكن أقول لك أنه من أبرع رجال الكيمياء في العالم.

- يا إلهي! لكن لابد أن يكون أعظم مما كنت أتصوره.. ولو رأيته وهو يشتغل كما يغلب على ظني أنك رأيته، لمت فزعاً.. وأين يقوم بهذه الأعمال العجيبة ؟

- تعال معي..

تقدم بريجون في الممشى الذي تتفرع منه غرفة الأكل ووقف أمام باب مغلق حيث أخرج من جيبه مجموعة مفاتيح أختار أحدها وفتح به الباب..ورأى لافين على ضوء المصباح الذي يحمله بريجون غرفة ذات رفوف عليها قناتي، ودواليب زجاجية بها قوارير وقناني مختلفة الأحجام والأشكال.. وشاهد طاولة في وسط الغرفة عليها قناني أخرى وأنابيب زجاجية للتقطير ومصباح.. وكانت تتدلى فوق النافذة ستائر ثقيلة حمراء.. كانت هذه الغرفة معملاً

كيميائياً.. فقال بريجون:

- هذه هي الغرفة التي يشتغل فيها سيدي.. ولا يدخلها إلا هو وأنا. إني أتجاوز واجباتي في الواقع حينما أريك هذا المكان.. فلا تقل كلمة واحدة من رؤيتك لهذه الغرفة..

- إن هذا المكان يخيفني.. أنا لست مثلك في الذكاء يا مسيو بريجون ولم يتجاوز تعليمي سوى قراءة الكتابة المطبوعة..

- حسناً.. حان وقت النوم.. وقد عرفت واجباتك.. وإذا أيقظك أي صوت في الليل فيجب أن يتجه تفكيرك في الحال إلى (الفضيات) التي أصبحت في عهدتك. وعليك أن تستدعيني في الحال وتسلمني اللص إذا أمكنك القبض عليه.. لكن يمكن أن أقرر لك في نفس الوقت أنه لا داعي للخوف، فإنه يستحيل فتح كافة الأبواب.. ولا توجد نوافذ في الطابق الأرضي كما يوجد دائماً حارس في فناء المنزل.. ومع ذلك فمن واجبك الإنتباه الدائم.

ـ يمكنك أن تثق بأني سأقوم بواجبي يا مسيو بريجون والآن أرجو أن ترشدني إلى غرفة نومك، حتى أتمكن من إستدعائك في حالة حدوث أي شيء..

- سأريك أين هي؟

نزل به بريجون إلى «البدروم» وأرشده إلى غرفة واقعة

في نفس الممشى الذي تطل عليه غرفة لافين.. وقال له وهو يبتسم:

- إن الخدم ينامون في (البدروم).. إما الخادمات فينمن في الغرف المسقوفة..

تمنى بريجون ليلة طيبة للخادم الجديد وانصرف إلى مكتبه فعاد لافين إلى غرفته وأغلق بابها... وكان لافين خبيراً بطبائع الناس.. ولم يجد عناء في فهم بريجون وإستدراجه في الحديث من النواحي التي يحبها، حتى تمكن من معرفة موقع القرية التي يقوم فيها سيده بتجاربه الكيميائية الغريبة. ولم يبق عليه إلا أن يضع يده على مفتاحها، أو يعالجها بآلة فتح الأقفال التي أحضرها معه إذا أخفق في الحصول على المفتاح.. أطفأ لافين الشمعة وتمدد فوق الفراش وأخذ يستعرض موقفه.. وأيقن لافين أن كاميس إذا فاجأه وهو يفتش غرفته لقتله لا محالة إلا إذا قضى عليه لافين وأركن إلى الفرار، وهو ما لا يحتمل.. والواقع أنه لو قتل كاميس في بيته لشنقه سارتين بنفسه، إن قانون سارتين الصارم هو أن من يضبط من رجاله وهو يؤدي عمله في خدمة القانون لا يجب أن يبوح بشخصيته الحقيقية ويلتمس حماية القانون.. بل عليه أن يستهدف حتى للموت في سبيل القيام بهذا الواجب.

لكن لافين لم يحفل بهذا، فقد كان تفكيره متجهاً في هذه اللحظة إلى معرفة خفايا هذه الغرقة العجيبة التي ألقى

عليها نظرة عاجلة.. كان موقنا أن في هذه الغرفة مستودع أسرار كاميس، وهى المكان الوحيد الذي يستطيع فيه أن يجد من الأدلة على إجرام صانع السموم ما يقدم عنقه إلى الجلاد. وفيما هو يردد هذه الخواطر في ذهنه سمع الساعة الكبيرة في المنزل تدق الحادية عشرة.. فعزم أن ينتظر حتى منتصف الليل.. فقد أبلغه جيمو أن كاميس ذهب إلى منزل دي باري ولن يرجع إلا حوالي الفجر.. لكن لافين نسي أن موعد رجوع كامب إلى منزله بات غير محدد فقد إنتابه القلق والضجر بعد إنسحاب كامي فونتراي.. ولما جلس إلى مائدة اللعب كان غائب الذهن ولم يوفق..وفي هذه الأثناء كان بريجون قد تقصد إلى غرفة نومه.. ولكن بعد أن أوفد رسولاً خاصاً إلى مسيو جاستون ليعطيه الشهادة التي أحضرها لافين ومعها رسالة يستفسره فيها عما إذا كان (شارل جوف) خادمه السابق شخصاً موثوقاً به، فكان الرد بالإيجاب.

الفصل السادس

تسلل لافين من غرفته في منتصف الليل بعد أن تحقق من وجود المفاتيح، في جيبه والزناد، والشمعات الثلاث التي أحضرها معه لهذا الغرض.. كان الظلام يسود الممشى، لكن لافين سجل في ذاكرته مواقع الغرف والسلالم أثناء طوافه مع بريجون. ولذلك لم يكن يخشى أن يضل الطريق... أغلق باب غرفته، وتحسس طريقه في الممشى المظلم حتى وصل إلى السلم، فإرتقاه بخفة، وما هي إلا لحظات حتى كان يلمس بأصابعه موضع القفل في غرفة كاميس الخاصة ثم أخرج فاتحة الأقفال من جيبه وأولجها في القفل، كان لافين فوق ذكائه ملماً بفنون عدة لولاها لعجز عن الإحتفاظ بمركزه في إدارة البوليس. فقد حذق فتح الأقفال، على يدي «جوندريه» اللص الذي توسم فيه سارتين براعته وضمه إلى رجال البوليس.. كما لقنه «كابوشون» الخبير في السموم أسرار هذه المواد وأساليب رجالها. ولم يكتف كابوشون بإطلاعه على الوسائل التي يستخدمها أولئك المجرمون في تسميم القفازات والأزهار، بل فهم منه كذلك أن من هؤلاء من يجدون لذة في القتل بواسطة السم أتباعاً لغريزةً خبيثة تتسلط على نفوسهم وتدفعهم إلى القضاء على أصدقائهم لأتفه الأسباب، أو لغير سبب على الإطلاق. وبفضل هذه الدروس تيسر له معرفة قاتل «أتلانتا» والإشتباه

في تعرض مدام كاميس لنفس هذا المصير. وإستعان بالدروس التي لقنها إياها «جوندريه» وراح يعالج القفل بالآلة التي معه بخفة، حتى أزاح لسان القفل عن موضعه وفتح الباب. فدلف إلى الغرفة وأقفل الباب. كان القفل ذا لسان لولبي، أي أنه يفتح بمفتاح ولكن يغلق بدونه ولذلك فقط لافين على الباب، فإستقر لسان القفل في موضعه في صوت لا يكاد يسمع. قدح لافين الزناد وأضاء شمعة.. كان المصباح موضوعاً فوق الطاولة. لكن لافين لم يكن في حاجة إليه. فقد رأى أن يكون متأهباً للإختباء بسرعة في حالة المفاجأة، في حين أن إطفاء المصباح يستغرق في إطفائه زمناً قد يرشد إلى وجوده. ووضع الشمعة المضاءة فوق الطاولة وإلتفت إلى الستائر المسدلة على النافذة. فألفاها من الحرير الثقيل ووجد بينها وبين النافذة فراغاً يمكن الإختباء فيه في وقت الحاجة. ثم عاد إلى الطاولة ولم يلتفت إلى القناني وأنابيب التقطير الموضوعة فوقها. بل راح يفحص الطاولة في سرعة باحثاً عن أدراج خفية بها، لكنه لم يجد شيئاً. ترك لافين الطاولة وإتجه إلى الدواليب الزجاجية الموضوعة في أركان الغرفة، فلم يجد بها سوى الثنائي وأنابيب التقطير التي كانت ظاهرة من خلال الزجاج. وأخذ يفحص الجدران وينقر عليها بأصابعه محاولاً أن يهتدي فيها إلى دواليب أو مخابىء سرية، لكنها كانت من الحجارة الصلبة لا رنين وراءها. إنحنى لافين فوق الأرض وجعل يفحصها هنا وهناك. وفيما هو يطرقها

في موضع بين الطاولة والنافذة، سمع صوتاً عميقاً دله على وجود فراغ كبير تحت هذه البقعة. فركع على ركبتيه كي يفحص هذا الفراغ، وفي هذه اللحظة سمع وقع أقدام في الممشى وصوت مفتاح يوضع في قفل الباب. وما هو إلا كلمح البصر حتى أطفأ لافين الشمعة ودسها في جيبه ثم إنسل خلف الستار. كان القادم كاميس.. دخل الغرفة حاملاً مصباحاً في يده وأغلق الباب ووضع المصباح فوق الطاولة، ثم أوقد المصباح الثاني. وكان لافين في موقف يمكنه من مشاهدة كاميس والطاولة بوضوح. إبتعد كاميس عن الطاولة وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً.. كان مستغرقاً في التفكير، وقد وضع يديه خلف ظهره وأطرق برأسه. ولما كف كاميس عن السير ووقف أمام أحد الدواليب الزجاجية حيث فتحه بمفتاح من جيبه وأخرج منه حاملاً خشبياً به أنبوبتا إختبار مغطاتان بسدادة. إحداهما تحتوي على سائل بنفسجي اللون والثانية على سائل أبيض. ثم أغلق الدولاب بيده اليسرى وحمل الأنبوبتين بإحتراس ووضعهما بالحامل فوق الطاولة. ثم إتجه إلى دولاب آخر وأخرج منه قناعاً من الزجاج تتصل به أربطة سوداء، فوضعه على الطاولة وعاد إلى نفس الدولاب وأخرج كذلك لوحاً وقضيباً من الزجاج وفرشاة صغيرة كالتي يستخدمها الفنانون في الرسم بالألوان المائية، وقنينة صغيرة من المعدن ذات غطاءٍ ذهبي. وأضافها إلى الأدوات السابقة فوق الطاولة.. ثم أخرج من جيبه

مدية صغيرة في غمد دقيق الصنع مرصع بالحجارة الكريمة.. فنزع المدية من الغمد ووضعها بإحتراس فوق الطاولة. كانت مصنوعة من الفضة، ذات حدين متشابهين، وقد رصع مقبضها بالحجارة الكريمة. وضع كاميس القناع على وجهه وربطه خلف رأسه، ثم تناول الأنبوبة المحتوية على السائل البنفسجي وسكب منها بضع قطرات فوق اللوح الزجاجي، وأسرع إلى الأنبوبة الثانية ذات السائل الأبيض فسكب منها قطرات أخرى فوق الأولى، وجعل يقلب المزيج بالقضيب الزجاجي ومد يده اليسرى إلى القنينة المعدنية فأزال سدادتها وسكب منها بضع قطرات فوق اللوح الزجاجي. وما كاد يفعل ذلك حتى إرتفعت سحابة من البخار وأخذ المزيج الموضوع فوق اللوح الزجاجي يغلي. فغمس الفرشاة الصغيرة في السائل وأدنى منه المدية وراح يطلي السلاح من نهايته حتى المقبض. على أنه إكتفى بطلاء أحد وجهي السلاح فقط، ثم تركه على الطاولة كأنما يريد أن يجف. ونهض من مقعده وخلع القناع عن وجهه.

إنتشرت في الغرفة رائحة كريهة. ولم يتمالك لافين أن تراجع إلى الخلف في سكون مبتعداً عن الرائحة.. بيد أن كاميس لم يحفل بها، بل أخذ يعيد القنينة والأنبوبتين والقضيب واللوح الزجاجي والقناع إلى موضعها، ثم عاد إلى الطاولة وتناول المدية وأخذ بفحصها بعناية، وأخيراً أعادها إلى الغمد. ثم إتجه إلى الجدار الأيمن وضغط

بإصبعه على نقطة تعلو عن الأرض نحو متر، فإنفتح باب صغير عجز لافين عن إكتشافه. فوضع المدية في هذا المخبأ السري وأغلق الباب، ثم أطفأ أحد المصباحين وحمل الثاني في يده وغادر الغرفة..

تنفس لافين الصعداء فقد نجا من إفتضاح أمره. ولما ذهب عنه هذا الكابوس راح يفكر في سبب إهتمام كاميس بطلاء أحد وجهي سلاح المدية فقط بالسائل السام، دون الوجه الآخر. سطعت الحقيقة أمام عيني لافين في لمح البصر.. فقد تذكر محاضرات (كابوشون) أستاذه في علم السموم. وفهم سر هذه العملية. رأى أن في وسع كاميس في إحدى الولائم أن يتظاهر بالمداعبة، فيخرج المدية الدقيقة المصنع من جيبه ويشطر بها تفاحة أو كمثرى شطرين، ثم يقدم أحدهما إلى رفيقه على المائدة، ويستبقي لنفسه الشطر الثاني. ولا ريب أن كاميس سيقدم الشطر الذي لمس وجه المدية المسموم، بينما يكون الشطر الذي يحتفظ به لنفسه سليماً من كل سوء. فمن يستطيع أن يقول له إذا قدم شطر التفاحة إلى زوجته، بأنها ماتت عقب تناوله، في حين أنه هو نفسه تناول الشطر الآخر..

الفصل السابع

بقى لافين في مكانه خلف الستار نحو عشر دقائق حتى يعطي كاميس وقتاً كافياً للعودة إذا كان قد نسي شيئاً.. فلما مضت هذه الفترة وإطمأن إلى أنه لن يعود أزاح الستار وقدح الزناد. فأضاء المصباح في هذه المرة مطمئناً، وحمله في يده وإتجه إلى الجدار الأيمن باحثاً عن لولب المخبأ السري. ولم يطل بحثه، فقد إهتدى إلى قرص صغير بلون الجدار ميزه بحده الدقيق المستدير.. ولما ضغط فوقه فتح باب المخبأ. ولم يجد شيئاً بداخله غير المدية فتناولها بيده. في هذا الوقت كانت قد إختمرت في ذهنه فكرة تبدو شيطانية لأول وهلة. بيد أنه حينما أنعم النظر فيما أيقن أنها الحل العادل الوحيد الذي يستطيع أن يواجه به هذا الموقف.

كان كاميس مجرماً.. ولا ريب أن هذه الغرفة هي مصدر الشرور التي يدبرها للناس.. لكن لم يكن بها أو بالمخبأ أوراق أو أدلة تدينه.. وقد حاول دي سارتين عبثاً أن يقيم الأدلة على إجرامه. لكن هناك شيئاً إسمه القصاص العادل، وقد قرر لافين أن تكون مدية كاميس هي أداة هذا القصاص.

وضع لافين المصباح على الطاولة وأخذ بفحص المدية دون أن يخرجها من غمدها.. كانت نقوش الغمد مختلفة من الجانبين.. فقد نقش على أحد وجهيه غزال يرتع في

رياض سندسية، ونقش على الوجه الثاني حية ملتوية تمتد من المقبض حتى نهاية المدية المدببة. كانت النقوش بارزة يمكن تمييزها بمجرد اللمس..

وقد صنع الغمد والمدية لغرض خاص، حتى ليستطيع القاتل الذي وضع السم على أحد وجب السلاح أن يعرف الجانب المسموم قبل إخراج المدية من غمدها ولا ريب أن أقل خطأ من جانب القاتل يؤدي إلى هلاكه بدل الفريسة التي ينوي القضاء عليها.. ولم يعرف لافين في هذه اللحظة أي الوجهين هو المسموم. فقد كان الغمد محجوباً خلف يد كاميس حينما أعاد المدية إليه. على أنه لم يكن في حاجة إلى هذه المعرفة، ويكفيه للقضاء على كاميس أن يخرج المدية ذات الحدين ثم يعيدها إلى الغمد بعد أن يعكس وضعها. فإذا تم هذا، وشطر كاميس تفاحة أو كمثرى ليقدمها إلى أحد، كان الشطر السموم من نصيبه.

أخرج لافين المدية، فلم يلمح أثراً فوق سطحيها، وأيقن أن السم يذوب في محلول حمض كعصير الفواكه مثلاً.. ثم أعادها إلى الغمد بعد أن غير وضع وجهيها. ووضع المدية في المخبأ السري وأغلق بابه، وعاد بنظره في الغرفة ليتحقق من أن كل شيء في مكانه، ثم تقدم إلى الباب وأخرج فاتحة الأقفال من جيبه.. وأدار لسان القفل بسهولة، غير أن الباب لم يفتح. وسحب الفاتحة ثم أولجها في القفل من جديد وعالجه مرة ثانية لكن كانت النتيجة

واحدة، وبقى الباب مغلقاً. كان الباب موصداً بمزلاج خفي. لمس لافين جبينه بظهر يده يجفف العرق الذي تصبب منه. وتذكر في هذه اللحظة أن بريجون حينما هم بفتح باب الغرفة لإطلاعه عليها وضع يده على الجدار قرب الباب، وقد توهم لافين في ذلك الوقت أنه إتكأ إلى الجدار كي يستريح نظراً لكبر جسمه. لكنه فهم الآن أن بريجون لم يفعل هذا إلا لكي يضغط على لولب أزاح مزلاجاً سرياً عن الباب لا يفتح بدون إزاحته. ولما أغلق بريجون الباب لابد أن يكون نسي أن يضغط على لولب آخر بعيد المزلاج إلى مكانه.. وبسبب هذا النسيان تمكن لافين من دخول الغرفة بمجرد فتح القفل.. لكن كاميس لم ينسَ أن يضغط على اللولب الذي يعيد المزلاج إلى مكانه.. وكانت نتيجة هذا أن صار لافين أسيراً في هذا المحبس الذي يوشك أن يكون قبره.. تحول لافين إلى النافذة بعد أن يئس من الباب، ولم يكن قد فحصها بعد.. لكنه رآها على ضوء المصباح مشبكة بالقضبان الحديدية الغليظة..

إنثنى لافين إلى الأرض، آملاً أن يجد منفذاً في البقعة الواقعة بين الطاولة والنافذة التي آنس فراغاً تحتها.. والواقع أن رجلاً مثل كاميس يستبعد إلا أن يزود هذه الغرفة الغريبة بمنفذ سري يلجأ إليه وقت الضرورة.. ولم يخطيء لافين في ظنه.. فبينما كان يفحص الأرض بدقة إكتشف بابا يتعذر الإهتداء إليه للناظر السطحي الذي

يبحث عنه.. وما كادت تمضي خمس دقائق حتى وجد لافين الزر الخفي الذي يحرك الباب.. ولما ضغط عليه بإصبعه لم يتحرك الباب إلى أعلى كالمألوف، بل هبط إلى أسفل، وكشف عن سلم رأسي يفضي إلى ظلمات حالكة.

الفصل الثامن

وجد لافين منفذاً يفلت منه، وإن لم يدر إلى أين يفضى به..على أنه لم يتردد لحظة، بل وضع المصباح على الطاولة والقى نظرة فاحصة حوله تحقق بها من أنه ترك كل شيء كما يجب ولم ينس شيئاً من أدواته الخاصة، وأطفأ المصباح وتحسس مكان الباب السري في الظلام حتى أهتدي إليه، ثم هبط درجات السلم.. نزل لافين خمس عشرة درجة أحس على أثرها بالأرض تحت قدميه، فأضاء إحدى الشمعات ونظر حوله.. ألفى نفسه واقفاً في ممشى ينتهي بسلم مظلم، وفوق رأسه فتحة الباب السري، ولمح في الجدار إلى يمينه مقبضاً نحاسياً يلمع في ضوء الشمعة.. فهم لافين مغزى وجود المقبض، فأداره بيده، وإذا هو يرى الباب السري يرتفع تدريجياً حتى إستقر أخيراً في فتحة السقف أي في أرض غرفة المعمل الكيميائي.. خيل إلى لافين أن الحظ يواتيه في كل شيء.. فلو أن الظروف أرغمته على ترك الباب السري مفتوحاً لإرتاب كاميس في وجود من يتجسس عليه، وحبطت خطته.. إتجه لافين إلى السلم مستعيناً بالشمعة المضاءة، ووقف عند قمته مشدوهاً.. بدت درجات السلم لا نهاية لها، وضاع ضوء الشمعة في الظلام قبل تمييز آخر الدرجات.. هبط أكثر من مائة درجة. أفضت به أخيراً إلى نفق إنتهى ببهو.. وتفرع البهو إلى عدة طرق لم يدر

لافين أيها يسلك.. ولما طال به التردد قرر أن يتجه إلى اليمين..لم يكد لافين يسير قليلاً حتى لمح فتحة في الجدار رأى فيها شيئاً مروعاً..شاهد جمجمة بشرية مستقرة فوق كوم من العظام.. وقد تلاشى فكها الأسفل.. كان حديث الجمجمة أبلغ من كل حديث.. وعلم لافين أين يسير.. إستأنف لافين سيره بين حطام بشرية لا نهاية لها، حتى وصل إلى فناء واسع تتكدس العظام حوله، وميز على ضوء الشمعة كتابة لاتينية محفورة في الجدار.. تتضمن هذه الجملة الخالدة:

«أذكر أيها الإنسان أنك خلقت من تراب، وإلى التراب تعود».

ورأى طرقاً أربعة تتفرع من هذا الفناء، تنتهي كلها في الظلام.. كان بيت كاميس مشيداً فوق أقبية متشابكة متداخلة، لا يعرف السائر طريقه فيها إلا إذا كان خبيراً بها عليما بأسرارها.. كانت هذه مقابر باريس.. أو مدينة الأموات..وهكذا لم يترك لافين معمل كاميس الكيميائي إلا ليجد نفسه تائهاً في هذا المكان المروع.. وعليه أن يختار بين مواصلة السير إلتماساً لمنفذ يخرج منه، أو يعود لمواجهة كاميس.

القسم الرابع

الفصل الأول

بعد مضي أربعة أيام كان الكونت دي سارتين جالساً في مكتبه بإدارة البوليس حينما قيل له أن زائراً يلح في مقابلته لشأن هام، فلما إستفسر عن إسمه أجاب الحاجب:

- هو يدعى بريجون يا سيدي. وهو وكيل الكونت كاميس فأمر سارتين بإدخال الزائر وإستمر في كتابته..

دخل الزائر، فإلتفت سارتين في مقعده والقلم في يده وسأله:

- نعم يا سيدي؟. ماذا تريد؟.

فأجاب بريجون:

- سيدي.. أنا في أشد حالات الإرتباك والحيرة.. مضت ثلاثة أيام لم أنم في خلالها.. ولما إشتد بي الكرب لم أجد إلا أن أحضر إليك .

- تكلم.

- منذ أربعة أيام طلب مني جيمو خادم غرفة (الفضيات) بمنزل سيدي الكونت كاميس أن أمنحه أجازة لإشتداد المرض على والدته.. وقدم إلي شاباً هو إبن عمه ويدعى «جوف» ليحل محله أثناء غيابه. ولما كان

«جوف» يحمل شهادة طبية فقد قبلته. لكن «جوف» إختفى في تلك الليلة. أو على الأقل لم أجد له أثراً في الصباح.. ومع ذلك لا يمكن أن يكون غادر المنزل.

- على أي شيء تبنى هذا الكلام؟

- لأن أبواب المنزل تغلق بالقفل وبالمزلاج من الداخل. ومع ذلك فلم نجد مزلاجاً واحداً مرتداً عن مكانه. وحينما يأتي سيدي من الخارج متأخراً يتولى البواب إعادة المزلاج إلى موضعه. وقد تحققت بنفسي في تلك الليلة من إغلاق الأبواب الأخرى تماماً.. وإذا كان جوف قد غادر المنزل عن طريق الباب. فكيف يتيسر له إعادة المزلاج إلى مكانه؟

كان بوريجار قد إطلع سارتين على إرتياب لافين في شخص كاميس، وأفضى إليه بالخطة التي إعتزم تنفيذها.. فلما سمع هذه البيانات من بريجون إهتم بالموضوع إهتماماً شديداً وقال له:

- قد يكون له شريك في المنزل.

- هذا جائز يا سيدي. لكن لم يسرق أي شيء من المنزل. فما هو سبب دخوله إلى المنزل لكي يفارقه على هذا النحو. هناك شعور يساورني يا سيدي بوجوده في المنزل. وإن كنت قد فتشت عنه عبثاً في كل مكان.

- حسناً.. وماذا يمكن أن أفعل؟

- لا أدري يا سيدي. لكني رأيت من واجبي أن أحضر لإستشارتك.

- هل أخبرت سيدك بهذا الموضوع؟.

- لا يا سيدي. لم أخبره. هو عصبي المزاج.. و...

- مفهوم. لكن الواقع أنك أخفيت الموضوع عنه. وإذا أخبرته به الآن فلن يقلل هذا من غضبه. بل قد يؤذيك. ولذلك أشير عليك ألا تخبره بشيء. وأن تفتح عينيك وتراقب المنزل. وإذا وجدت (جوف) مختبئاً في أي ناحية فعليك أن تحجزه في غرفة مغلقة وأن تخطرني في الحال وأنا أرسل إليك أحد رجالي لإعتقاله..

بدت دلائل الإرتياح على وجه بريجون حينما سمع هذا الرأي، فقال:

- شكراً لك يا سيدي... سأعمل برأيك..

حيا بريجون وإنصرف... فشرع سارتين الجرس في الحال. وإستدعى نائبه بوريجار.. ولما علم هذا بالقصة هتف:

- هذا سر غامض لا أستطيع تفسيره.. ماذا يمكن أن يشغل لافين أثناء هذه الأيام الأربعة؟

فأجاب مدير البوليس:

- من يدري؟.. لكني واثق أنه لم يقض هذه المدة في الكسل.. سيظهر فيما بعد، وأقسم لك أنه سيأتي وفي يده

الحبل الذي يشنق به كاميس...والآن عندي لك مهمة خاصة...بما أنه لا يمكن أن أجد لافين لكي أعهد إليه بهذه المهمة، فعليك أن تذهب إلى سجن (فنسان) وتستطلع أحوال روشفور... إني أعطيت الأوامر اللازمة لكي يوفروا له أسباب الراحة، فتحقق مما إذا كانت هذه الأوامر تنفذ بدقة.. يجب أن تجعل روشفور راضياً بإستمرار..

- سمعاً وطاعة يا سيدي..

- تحدث معه.. قل له أن دي باري يعملون لتسوية موقفه مع شوازيل...

ـ حسنا يا سيدي...

ذهب بوريجار للقيام بهذه المهمة.. وعلى إثر إنصرافه جاء الفيكونت جان دي باري، وقال وهو يصافح مدير البوليس:

- جئت للإستفهام عما إذا كنت ستذهب إلى الحفلة التي يقيمها شوازيل هذه الليلة..

- إني دعيت إليها..

- وهل تذهب؟

ـ نعم.. أعتقد أني سأذهب.. ما سبب هذا الإهتمام؟

- الحقيقة أن شوازيل سألني أن أتأكد من حضورك.. هو يرغب رغبة أكيدة في توطيد العلاقات حوله حتي أن

زوجة ولي العهد ستأتي قريباً..

- إن علاقات المودة بين شوازيل وبينك والكونتس على أتم حال..

- نحن متهادنون في الوقت الحالي.. ومع أني لا أثق به إلا أننا نسالم مؤقتاً..

- أصبت.. كيف حال الآنسة فونتراي؟

- يانعة كالزهرة..

- وباردة كعادتها

- أن يرودها غير ملحوظ من ناحية كاميس..

- تعني أنها تهتم بكاميس؟

- لا أعلم إلا ما أخبرتني به الكونتس في صباح اليوم.. أرجو أن تبقى ذلك سراً بيننا.. الواقع أن فونتراي أصبحت تهيم بكاميس..

- آه؟.. ماذا ترى في هذا الرجل؟.. هل أنت واثق مما تقول ؟

- لست واثقاً من شيء.. لكن الكونتس واثقة.. فإن كامي فونتراي تفضي إليها بأسرارها.. لا أعرف ماذا ترى النساء في كاميس، لكن يظهر أنهن يرين فيه جاذبية خاصة..

- لكنه متزوج...

- آه.. لكن المعروف أن مدام كاميس معتلة الصحة.. وإذا توفيت..

- في هذه الحالة يمكن صاحبنا أن يتزوج كامي فونتراي.

- لا.. إني أرتاب في إمكان سير الموضوع على هذا النحو. ومهما يكن من شيء فإننا لن نسمح بزواج كاميس من هذه الفتاة.

- وما السبب؟

- لو هداها الشيطان إلى الإهتمام بروشفور والتعلق به، لكان في هذا ما يساعد على تسوية موقفه نحو شوازيل. كان يمكن أن تقوم الكونتس جدياً بسعي في هذا السبيل، وأن تكاتب فونتراي روشفور في السجن. حتى تضمن سكوته ورضاءه ريثما يتجلى الموقف على أنه لا يمكن أن يؤثر الإنسان في تكييف عقل المرأة وتوجيهها، ولا فائدة من المحاولة في هذا السبيل. أحسب أنها ستذهب إلى حفلة شوازيل هذه الليلة.

- بلا ريب.. فإن كاميس سيكون موجوداً.

إنصرف الفيكونت عقب هذا الحديث، وإستأنف سارتين كتابته. لكن هذا اليوم كان حافلاً في أيام سارتين. فإنه لم تكد تمضي خمس دقائق حتى دفع الباب بلا طرقٍ أو إستئذان، ودخل بوريجار منفعلاً لاهث الأنفاس.

وهتف:

- سيدي! إن روشفور هرب!

- هرب. يا للشيطان.. متى هرب؟

- في الفجر أو في الليل.. إن الكابتن بيير كوزان جاء بنفسه يعلن هذا النبأ.

- أدخله في الحال.

الفصل الثاني

كان قلق سارتين بشأن روشفور راجعاً إلى معرفته بطبيعة هذا الرجل وأخلاقه وإرتيابه فيما يمكن أن يندفع إليه هذا النبيل تحت عوامل الحب والسجن. والواقع أن روشفور ما كاد يتناول عشاءه في الليلة الأولى حتى ظهر رد الفعل في نفسه. وإنطرح على فراشه يفكر..فلم يكن روشفور ممن يألفون حياة الدعة والهدوء.. وكانت حياته مقسمة بين الصيد والقنص. فإذا خلت من ذلك راح يتنقل في شوارع باريس متحدثاً ضاحكاً مداعباً أو متحرشاً.. أما في هذا المكان فلم يجد أمامه من يحدثه أو يضاحكه أو يداعبه أو يتحرش به.. ولم يجد مكاناً يتنقل فيه سوى فراغ هذه الغرفة الضيقة. وأدرك في هذه اللحظة فقط أنه ليس ممن يألفون هذه العزلة الإجبارية والإحتباس بين أربعة جدران. وفيما كان روشفور مستسلماً لأفكاره سمع فيرمينار يناديه من تحت السرير قائلاً:

- مسيو دي روشفور.. أنت هنا يا مسيو دي روشفور!

- يا إلهي! أنا هنا؟ وأين أكون إذن.؟ نعم أنا هنا. ماذا تريد؟

- لا شيء.. بل أحب أن أتبادل معك بعض الحديث.

- تكلم ما شئت. ليس أمامي ما أصنع غير أن أستمع

إليك.

- أنت لا تشجع يا مسيو دي روشفور.. لكن لا بأس. لنتكلم عن تلك الكوميديا المضحكة ذات الألحان التي أخرجها مسيو روسو في قصر فرساي بطلب من مسيو كواني.

- يا للشيطان!. لا!. هل تحسبني مايسترو؟ تكلم في موضوعات معقولة وإلا فإسكت. لنتكلم في كيفية الخروج من هذا السجن الجهنمي الذي يبدو لي أني إرتكبت حمقاً وجنوناً بمجيئي إليه. هل معك قطعة النقود المجوفة يا مسيو فيرمينار؟

- نعم يا مسيو دي روشفور هي في جيبي.

- حسناً.. إذا أردت أن ترضيني فناولني إياها من الفتحة. أريد أن أفحصها. مهما كان فيها فهي تحدثني عن الحرية.

- سيدي.. إذا كانت جيوبي مملوءة ذهباً فإني أنزل لك عنه طائعاً مختاراً. أما قطعة النقود فلا.

- وما السبب؟

- لأنها كما قلت تحدثك عن الحرية. وقد تغريك بمحاولة الهرب.

- ولم لا أحاول الهرب؟

- لسببين.. الأول: أنك تنسى إنك مختبيء هنا من الدوق دي شوازيل. والثاني: إنك إذا هربت فستتركني وحيداً لا أجد من أكلمه..

- عندك بونفاللو.

- بونفاللو! هو رجل غبي جاهل لا يعرف شيئاً..

- لكن ليس في نيتي أن أتركك معه. إني أسألك فقط أن تناولني قطعة النقود لرؤيتها ومعرفة الوسيلة التي حاول بها السجين أن يستعيد حريته, أما إذا رفضته يا مسيو فيرمينار فإني أسد الفتحة ببطانيتي. وأختتم هذا الحديث الممتع.

- حسناً يا مسيو دي روشفور. إرفع سريرك حتى أناولك القطعة.

نهض روشفور وأزاح السرير وتناول قطعة النقود من يد فيرمينار من خلال الفتحة وذهب بها إلى ناحية المصباح.

كانت في الواقع أعجوبة فنية. وعالج روشفور فتحها وما كاد يرفع أحد شطريها حتي برز منشار دقيق في حجم زمبرك الساعة. فوضع المنشار فوق المائدة وأغلق هذه العلبة العجيبة وقال:

- بكم تبيعني هذه القطعة يا مسيو فيرمينار؟

- سأقدمها هدية لك يا مسيو دي روشفور بعد أن

نستنشق معاً نسيم الحرية.

- تحسب أني سأستخدمها للهرب؟

- لا يا سيدي. بل أرى أنك قد تستخدمها في دق عنقك أوفى الوقوع في قبضة شوازيل الذي يرعبني إسمه.

- أخطأت. إذا خرجت من هذا المكان فلن يقبض علي لسبب يسير. هو أني سأفعل ما كان يجب أن أفعله في صباح هذا اليوم.

- وما هو؟

- كنت أذهب رأساً إلى جلالة الملك وأقص عليه كل شيء وألتمس منه أن يفصل بيني وبين شوازيل.أو أذهب إلى شوازيل رأساً وأحادثه حديث الرجال.

- تذهب إلى مسيو دي شوازيل؟

- ولم لا؟ ما كان يجب أن أهرب من وجه شوازيل. بل ما كنت أهرب منه في الواقع لولا أني كنت أتعجل الذهاب إلى باريس في ليلة إستقبال الكونتس دي باري. ولما حاول أن يستوقفني عصيت أمره. والآن يظهر لي أني أتعجل الذهاب إلى باريس ثانية وأن سارتين يحاول إيقاف وأني مستعد لعصيانه ومقاومته..

نسى روشفور نصائح لافين في هذه اللحظة ونسى وجود فيرميناند بقربه.. وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وكأنه

يتحدث إلى نفسه وهو ممسك بيده قطعة النقود يستعرض في ذهنه هذه الفكرة الجديدة التي خطرت له..خيل له الآن أن هذا الرأي الذي أشار عليه لافين به لم يكن خير الآراء.. لقد جيء به إلى سجن فنسان للإحتماء من بطش شوازيل، وسوف يأمن نقمته أثناء وجوده في والحكم.. ولكن هذا الوقت قد يطول، وقد يدوم سلطان شوازيل عمراً طويلاً.. شعر روشفور إزاء هذه الفكرة بالعرق يبلل يديه ويبلل قطعة النقود التي كانت تحدثه في هذه اللحظة عن الحرية، وتبين له في نفس الوقت مقدار غباوته وحرج موقفه. وفهم أن سارتين لم يضعه تحت حمايته في سجن (فنسان) لمصلحته هو، بل لمصلحة سارتين نفسه.. وشعر بالرغبة تجيش في نفسه للخروج من هذا السجن الجهنمي الذي قادته إليه غباوته وقصر نظره. أعاد روشفور قطعة النقود إلى فيرمينار من خلال الفتحة وقال له:

- ها هي قطعة النقود.. هي في الواقع تحفة رائعة.. والآن يا مسيو فيرمينار.. سأحاول أن أنام حتى أنسى سارتين وشوازيل وأنسى السجن الذي قادتني غباوتي إليه.. أتمنى لك ليلة طيبة.

أعاد روشفور السرير إلى مكانه وأطفأ المصباح وتمدد فوق الفراش لكن النوم لم يداعب جفنيه..ولاح له الآن طيف كامي فونتراي بعد أن كان نسيها.. لم تخمد في نفسه تلك العاطفة التي أكنها لها.. لكنها غدرت به في آخر لحظة

ونسيت خدماته لأصدقائها وتضحياته في سبيلها.. بل إنها رفضت مقابلته وأرسلت إليه رسالتها على لسان جان دي باري الماجن الخليع. وشعر في هذه اللحظة بحافزٍ قوي يدفعه إلى محاولة الفرار، إن لم يكن لشيء فلكي يحطم وجه جان دي باري الذي نقل إليه هذه الرسالة القاسية التي جرحت إحساسه ومست كبرياءه.. بل أحس بحقدٍ مريرٍ على أسرة دي باري وعلى كل من ينتمي إليها.. وما لبث أن نهض من فراشه كأنها حركته قوة خفية.. كانت أشعة القمر تتخلل النافذة وقد سقط شعاع منها فوق المنشار الدقيق الذي تركه على المائدة.. فتناوله وأخذ يفحصه من جديد.. كان بالنافذة قضيب واحد، لكنه كان غليظاً. وبدأ لروشفور أنه يستحيل أن يفصل القضيب بمثل هذا المنشار الضئيل..فتح روشفور زجاج النافذة وإعتلاه وأمسك المنشار بين إبهاميه وسبابته وأخذ يحرك أسنانه فوق القضيب.. كان المنشار مصنوعاً من الفولاذ المتين، وبعد مضي خمس دقائق لمس روشفور القضيب بظفره فشعر بالخدش اليسير الذي أحدثته أسنان المنشار.. وإذا كانت هذه العملية تبدو لعينيه مستحيلة في الوقت الحاضر فإن إستئنافها ساعات يمكن أن يحدث أضعاف هذا التأثير ويؤدي آخر الأمر إلى فصل القضيب..على أنه شعر بالجزع حينما فكر فيما تقتضيه هذه العملية من جهد متصل مضن ووقت طويل..

نزل روشنفور من النافذة ووضع المنشار فوق المائدة

وعاد إلى سريره.. ومضت خمس دقائق دون أن يتحرك.. وفجأة نهض من فراشه كأنما حفزه حافز طاريء وجذب المنشار من فوق المائدة ودنا من النافذة. وفيما هو كذلك وصل إلى سمعه صوت غطيط فيرمينار.. فقد إستسلم للنوم دون أن يفطن إلى أن المنشار قد نزع من قطعة النقود التي أعارها إليه روشفور.

إستيقظ روشفور في صباح اليوم التالي بعد نوم إستغرق خمس ساعات، فألفى ضوء النهار يغمر الغرفة. وشاهد بونفاللو يدخل القهوة التي كانت تقدم للمسجونين الممتازين.

أمضى روشفور ثلاث ساعات قبل نومه يعالج نشر القضيب، ورأى في المنام أنه مازال يواصل هذه المهمة، ولكنه كان كلما نشر جزءاً من القضيب لا يلبث أن يعود فيلتئم.

قال روشفور مخاطباً بونفاللو:

- هل عاد محافظكم الكابتن بيير كوزان؟

- نعم يا سيدي.

- ومتي يمكن أن أقابله ؟

- هذا ما لا يمكنني تحديده يا سيدي.. قد تقابله غداً، أو بعد غد، أو بعد يومين. ليس للمحافظ مواعيد ثابتة للطواف في أرجاء القلعة.

- لكني أرغب في مقابلته اليوم.

- هذا ما يقوله دائماً جميع المسجونين يا سيدي.. ولو عمل المحافظ بكل هذه الرغبات لعجز عن المشي.

- لا أريد أن أعجزه عن المشي. بل أرغب فقط في مقابلته.

- وما هو الموضوع الذي من أجله يريد سيدي مقابلة المحافظ؟

- عجباً! هذا سر.. أريد أن أحدثه حديثاً خاصاً.

- حديث خاص! لكن هذا مستحيل.

- ماذا تعني؟

- حينما يزور المحافظ المسجونين، يتبعه دائماً جندي يبقى في الغرفة. هذه هي إحدى قواعد النظام في سجن «فنسان»..

- سحقاً لقواعدكم. دعني الآن فإني أريد أن أرتدي ملابسي. لا تنس إحضار أدوات الكتابة في المرة التالية سأكتب رسالة للمحافظ أم أن من القواعد هنا أيضاً أن يقرأها له جندي آخر؟

إنسحب الجاويش ونهض روشفور متبرماً، فإرتدى ملابسه وتناول فطوره. ثم تقدم إلى النافذة يتحقق من

نتيجة المجهود الذي بذله في الليلة الماضية.

سر روشفور من النتيجة. وزاد سروره حينما رأى جزء القضيب العلوي عند إتصاله بالجدار متآكلاً بفعل الصدأ. وأيقن أنه إذا نجح في نشر الجزء السفلي فإن جذب القضيب بشدة كفيل بنزعه كله من مكانه.

تناول روشفور المنشار الدقيق من المكان الذي إخفاء فيه في الليلة الماضية.. وواصل عمله في نشر القضيب بهمة ونشاط.

لم يكن يخشى المفاجأة.. فإن دقة حجم المنشار تجعل إخفاءه أمراً ميسوراً. ولا يمكن أي إنسان أن يتحقق من حالة القضيب إلا إذا فحصه عن كثب.. كما أن الصوت كان خافتاً لا يكاد يدرك.

وفيما هو في عمله سمع فيرمينار يناديه ويطلب محادثته. فإعتذر روشفور إليه بدعوى إنهماكه في كتابة رسالة.

على أن فيرمينار إذا كان كف عن محادثته فإن روشفور سمع من غرفته أصواتاً غريبة يتوهم من يسمعها أن بالغرفة ثلاثة أشخاص يضحكون ويتشاجرون ثم يتماسكون.

كان فيرمينار منهمكاً في تأليف إحدى مسرحياته الجهنمية.

ولما تمدد روشفور بعد الغداء فوق سريره متعبا من المجهود الذي بذله ناداه فيرمينار ثانية، وقال له:

- أحب أن أخبرك يا مسيو دي روشفور بمشروعي الجديد. إني مزقت الرواية التي كنت أكتبها.. وسأكتب رواية أخرى أحسن منها..

- هذه فكرة طبية.

- وهذه الرواية ستكون درامة مملوءة بالحركة. وسأدخلك في الرواية كفرد من أبطالها.

- صحيح،لكني أنهاك عن ذلك. لا أحب أن يكون موضعي في الروايات.

- لكني سأجعل لنفسي كذلك دوراً في الرواية.

- يا للوقاحة!

- ليست وقاحة يا سيدي. بل هي من قبيل الشكر والإعتراف بالجميل. لست أخفي عنك أني رجل من عامة الشعب رغم مواهبي الفنية لكنك كنت تخاطبني دائماً مخاطبة الند. وإذا كنت سأضع نفسي معك في رواية واحدة، فسأكون بصفة خادم لك. مسجون في الغرفة المجاورة لغرفتك في قلعة «بومباديليون».

- وأين قلعة الشياطين هذه أو قلعة «بومباديليون»؟

- هذا إسم السجن في روايتي. والفصل الأول في الرواية يصور الموقف الحالي، لسجن الكونت وخادمه في غرفتين متجاورتين كما هو شأننا الآن.. وبينهما فتحة في الجدار

الفاصل يتبادلان الحديث من خلالها. وقد إكتشف الخادم حبلاً ذا عقد وقطعة نقود مجوفة كما فعلت وقد حكم على الكونت بالإعدام على المقصلة. وحدد اليوم التالي لإعدامه لكن خادمه المخلص يناوله وسائل الهرب من خلال الفتحة. أعني الحبل وقطعة النقود ذات المنشار. ثم يفلت الكونت في نفس الليلة.

- مهلاً يا مسيو فيرمينار.. تقول أنه أفلت في تلك الليلة؟ كيف أفلت؟

- نشر القضيب بالمنشار الدقيق الموجود داخل قطعة النقود.

- ما أحسبك تراه يستطيع نشر القضيب في ليلة واحدة؟

- إذا لم يستطع في العالم الواقعي فيستطيع هذا على خشبة المسرح.

- وبعد ذلك؟

- وفي الصباح يكتشف قرار الكونت. لكن خادمه المخلص. أعني أنا. يرفض أن يتكلم. وإن كانت الفتحة في الجدار يعرف أمرها وبعبارة أخرى يصير الخادم أبكم.

- أبكم!. يستحيل أن يناسبك هذا الدور يا مسيو فيرمينار!

- عفواً يا سيدي.. لكني أعتقد أنه يناسبني. على أن الكونت بعد أن أفلح في الإفلات من غرفته بواسطة

الحبل، لم ينجح في الإبتعاد عن السجن. فقد تبين أن الحبل قصير. ويضطر الكونت إزاء ذلك إلى الإحتماء بحافة بارزة في الجدار. حيث يظهر في الفصل الثاني قابعاً في مكانه يراقب خادمه الخاص وهو يساق إلى الإعدام بدله.

- حسناً. وبعد

- هذا هو الحد الذي بلغته في التأليف.

- آه.. لم تحدد بعد خاتمة الرواية؟

- لا يا سيدي.

- لكن من المؤكد يا مسيو فيرمينار أن الخاتمة هي أهم جزء في الرواية.

سعل فيرمينار مستاء من هذا الإنتقاد. ثم أجاب:

- كنت سمعت سيدي يقرر أنه لا يفرق بين الرواية المسرحية وقائمة البقال.

- ربما! لكن الخاتمة حتى في قائمة البقال يا مسيو فيرمينار هي أهم جزء فيها. فهي تلخص الحساب كله بالفرنكات والسنتيمات.. لكني لا أريد أن أثبط همتك. إذا فشلت في إيجاد خاتمة حسنة للرواية. فإني على إستعداد لإرشادك إلى الخاتمة المطلوبة.

- وعلى أي أساس تضعها يا سيدي؟

- سأفكر في هذه المسألة فيما بعد.. إستمر في مشروعك الخاص وسنتحدث في هذا الموضوع حينما تنتهي.. أحب أن أنام الآن.

كان روشفور مستاءً من فيرمينار.. فقد كان يملك الحبل وهو الوسيلة الوحيدة للهرب.. وهو واثق أن فيرمينار سيضن عليه بالحبل كما ضن بقطعة النقود.. وقد يمكن أن يحمل الرجل على إعطائه الحبل بالإقناع أو بالتهديد أو بالرجاء والإستعطاف.. لكن روشفور لم يكن بالذي يهدد أو يستعطف أو يقنع شخصاً أقل من مستواه الإجتماعي كما أنه كان يشعر بالكسل والتراخي يعدان إستغرق نشر القضيب كل نشاطه..

وفوق هذا كله فإن روشفور رأى أنه يمكنه الإستيلاء على الحبل في الوقت المناسب بالحيلة والدهاء كما فعل بشأن المنشار الذي كان فيرمينار يتوهم وجوده في قطعة النقود..

وعلى الرغم من أن روشفور كان يعطف على هذا الفنان ويقدر مواهبة، فإنه لم يكن يحمل له إحتراماً في نفسه وكان يرى أنه أدنى إلى الطفل في أطواره وتصرفاته منه إلى الرجل الرشيد.. يضاف إلى هذا أن فيرمينار نفسه كان من عامة الشعب كما قرر بلسانه، ومع أن روشفور لم يكن ممن يتفاخرون بالألقاب، فإنه لم يستطع أن يتجرد من نشأته الخاصة وكان ينظر إلى عامة الشعب بمنظار أبناء

منطقته.. ولم يكن يشعر بأقل خجل من الخدمة التي فعلها نحو فيرمينار.. فإن المنشار لم يكن ملكاً لهذا الرجل، بل عثر عليه بالصدفة، وهو ملك لمسيو دي تومري الراحل، أو لورثته..

مضى اليوم التالي والذي يليه دون أن يزوره محافظ السجن، فإستاء روشفور وعد هذا الإهمال إهانة له، وكف عن السؤال عنه..

وما كاد ينتصف اليوم الرابع حتى أتم روشفور عمله.. ولم يبق إلا أن يجذب القضيب بشدة فينزع من مكانه.. و قد إستطاع بواسطة المدية التي سمح له بإستخدامها أثناء الطعام أن يزيل الصدأ عن جزء القضيب العلوي ويتحقق من ضعفه..

حدد روشفور نصف الليل موعداً لهربه، ولم يكن أمامه الآن إلا أن يستولي على الحبل من فيرمينار الذي كان منهمكاً أثناء ذلك في تأليف روايته..

ولما حان وقت الغروب أزاح روشفور سريره وركع على الأرض وأدنى رأسه من الفتحة ونادى فيرمينار وطلب أن يتحدث معه قليلاً فأجابه المؤلف المسرحي إلى طلبه وأبعد سريره من الجدار وقال:

- أنا تحت أمرك يا مسيو دي روشفور.. كنت نائماً وقت أن ناديتني، وكنت أحلم بأني جالس في حانة

«جامبرينوس» أشرب الجعة، وأن في إمعائي ثقباً كلما شربت تسرب الشراب منه.. أخبرني يا مسيو دي روشفور.. ما السبب في أن الإنسان حينما يحلم، يرى أحلاماً مكدرة؟.. لم أصادف مرة في منامي فتاة حسناء إلا إستحالت عجوزاً شمطاء حينما أهم بتقبيلها.. ولا أجلس في عالم الأحلام مع أناس من أهل الجاه إلا رأيتني في أسمال بالية، أو مجرداً من الملابس تماماً.. وإذا ذهبت للحصول على مال أجدني أدخل خطأ بيت أحد الدائنين وإذا وقفت على المسرح لتمثيل دور أنسى دوري نسياناً تاماً!

فقال روشفور:

- إن العالم كله مكدر يا مسيو فيرمينار، ولا كان عالم الأحلام هو جزء من عالمنا، ففي رأيي أنه باعث كذلك على الكدر.. والآن لنتكلم عن تلك الرواية المسرحية التي حدثتني عنها أمس، ورأيت خاتمتها مكدرة كعالمنا المادي وعالم الأحلام.. إن هذه الخاتمة لا ترضيني بالمرة..

- وكيف ذلك؟

- إني فكرت في خاتمة أحسن..

- أحقاً؟.. أرجو إذن أن تفسر لي ما تريد..

- سأفعل.. لكن دعني أولاً أرى ذلك الحبل الذي أخبرتني بأنك إكتشفته، وأن إكتشافه هداك إلى فكرة

روايتك..

- الحبل!.. لكن ماذا يمكن أن تصنع به؟

- سأريك ما أصنع به بعد أن يصبح في يدي، أو على الأقل أفسر لك معنى كلامي.. هيا يا مسيو فيرمينار أرني الحبل.. فبدونه لا أستطيع أن أطلعك على ما أريد.

- إنتظر يا سيدي حتى أحضره.

لم تمض لحظة حتى أمسك روشفور طرف الحبل في يده.. ثم جذبه من خلال الفتحة وقدر طوله وسمكه ورأى العقد المنتشرة به، وشعر بالإرتياح.

قال فيرمينار في قلق:

- حسناً يا سيدي ؟

- سأخبرك الآن يا مسيو فيرمينار بعد أن أصبح الحبل في يدي كيف تكون خاتمة روايتك في عالم الحقيقة.. ما دمت أدخلتني في روايتك فإني لا أرى بأساً من القيام بدوري إلى النهاية.. سيتولى الكونت، وهو أنا، جذب السرير إلى نافذة غرفته، ويربط طرف الحبل في السرير، ثم يتسلل من النافذة ويتدلى فوق الجدار مستعيناً بالحبل حتى يصل إلى الأرض.. لن يبقى الكونت جامداً فوق الحافة البارزة في الجدار كما جعلت دوره في روايته الخيالية. بل يصل إلى الأرض ويسرع إلى باريس، حيث يقطع أنف مسيو دي شوازيل أو يصافيه ويصادقه.

فقال فيرمينار:

- لكن لا يمكنك أن تفعل كل هذا؟

-لم لا؟

- لأن قضيب نافذتك إذا كان يسمح لك بإدلاء الحبل، فلم يسمح لك بالخروج من النافذة.

- لا يا مسيو فيرمينار. بل يسمح..

- إذن فلابد أن يكون قضيباً عجيباً ولابد أن تكون متانته تغيرت تغيراً كبيراً منذ أن حدثتني عنه لأول مرة.

- بل تغيرت متانته فعلاً..

- وكيف ذلك؟

- إنقسم قسمين..

هتف فيرمينار:

- ما هذا الكلام؟.. إنقسم؟.. ومتى؟

- منذ أن تكلمنا معاً لأول مرة..

- هل بردته إذن؟.. وكيف بردته؟

- عجباً.. ألا تفهم؟

- بمدية الطعام..

- أفٍ لك!

- لابد أنه كان معك إذن مطواة أو مبرد أو منشار أو شيء مماثل..

- يظهر أن السجن لم يحسن ذكاءك يا مسيو فيرمينار.. إني بردته بالمنشار الدقيق الذي كان داخل قطعة النقود..

- لكن هذا محال.. لأنك لم تبق معك قطعة النقود إلا نحو دقيقتين..

ضحك روشفور وقال:

- إفتح إذن قطعة النقود وأنظر داخلها..

مضت لحظة، ثم سمع فيرمينار يخاطب نفسه:

- إختفى!.. لابد أن يكون أخذه أو مستحيل!.. لكنه إختفى!

أحدثت لهجة الدهشة التي بدت في نبرات فيرمينار حينما علم بهذه الخدعة تأثيراً سيئاً في نفس روشفور..

لم يكن ما منع فيرمينار من التفكير في الوسيلة التي إستعان بها روشفور لفصل القضيب هو الغباوة أو بلادة التفكير.. بل كان إعتقاده الراسخ في شرف روشفور.

لم يكن فيرمينار يتصور أبداً أن روشفور يخدعه على هذا النحو، ودلت نبرات صوته في هذه اللحظة على ما يخالج

نفسه من هذا الشعور.

أحس روشفور في هذه اللحظة كأنه لطخ إسمه وشرفه وسمعته، وهتف:

- رباه.. ماذا فعلت؟

الفصل الثالث

لزم روشفور الصمت لحظة، ثم قال:

- مسيو فيرمينار.

- نعم يا مسيو دي روشفور ؟

- يبدو لي أني إرتكبت حماقة كبرى.. فإني حينما خدعتك، لم أفكر بتاتاً في أني أفعل فعلةً شائنة لا تليق بي. أنت رجل منحتني ثقتك ولم يخطر ببالك لحظة أني قد أخدعك.. لا بأس.. أصارحك بشرفي أني كنت أنظر إلى المسألة نظرتي إلى دعابة طريفة.. قلت لنفسي «كم تكون دهشته حينما يرى أني تفوقت عليه بدهائي.!» لكنها كانت كلعب الأطفال. ويظهر أن الإنسان يعود في السجن طفلاً عابثاً أعطني قطعة النقود يا مسيو فيرمينار.

ناوله فيرمينار قطعة النقود من خلال الفتحة، ففتحها روشفور وأعاد المنشار الدقيق إلى داخلها، ثم ردها إلى صاحبه قائلاً:

- إليك الحبل أيضاً.. لم تعد لي حاجة به..

فقال فيرمينار:

- لكن يا سيدي..

توقف فيرمينار لحظة عن إتمام جملته، أحس

بالإضطراب في هذه اللحظة.. فقد صدمته خدعة روشفور.. وشعر بالخجل من خداع روشفور له، ومن نفسه لوقوفه على هذا الخداع، ومن روشفور لإعتقاده بأن فيرمينار ينتقصه لهذا الموقف.. على أنه قطع حبل الصمت وقال:

- لا شيء يا مسيو دي روشفور.. إذا كنت سئمت السجن فلم تبقى به..؟ صحيح قد تتعرض للخطر من مسيو دي شوازيل، لكن الإنسان لا يفعل شيئاً في الحياة بغير التعرض للخطر.

فقال روشفور:

- أنت تتكلم يا عزيزي فيرمينار لمجرد الكلام، ولكي تخفي عني شعورك.. أنت ترى أنك وثقت بالكونت دي روشفور، لكنك ترى أنه الآن غير أهل الثقة..

- سيدي!.. سيدي!

- دعني أتم كلامي.. إذا لم يكن هذا رأيك فلابد أن تكون فيها.. وبما أنك بعيد عن الغباوة فإن هذا هو تفكيرك في الواقع.

-لا بأس أنت مصيب ومخطيء معاً.. أنا لا أفهم تمام الفهم حقيقة أخلاقي.. لكني أعلم أني أعجز أحياناً عن تفسير بعض الأفعال المعينة التي تصدر مني حينما أقف لحظة للتفكير فيها.. من الناس من يفكر قبل العمل، ومنهم

من يعمل قبل التفكير، لكن هناك حقيقة ثابتة أعرفها في نفسي، وهي أني لا أعزم على القيام بعمل من الأعمال حتى أندفع لإتمامه ولا أقف لحظة للتروي والتفكير إلا بعد أن أنتهي منه على وجه من الوجوه..

لما أخذت منك المنشار خطر لي أن أقوم بهذه اللعبة، وسرت في إتمامها دون أن أفكر لحظة في الوقت الذي أبرد فيه القضيب كنت أسيء إلى ثقتك بي..

كان الواجب علي حينما رأيت أنك لم تفتح قطعة النقود لتتأكد من وجود المنشار داخلها، أن أراجع نفسي وأوازن بين قيمة الحرية وبين غدري بهذه الثقة الكريمة التي وضعتها في شخصي. لكني لم أفعل لسببين. الأول هو أني لم أعتد التفكير أثناء العمل كما قررت لك والثاني هو أني لم أكن أصادف في طريقي نفوساً طيبة أمينة ولذلك لم يخطر ببالي أن نفساً مثل هذه موجودة في الغرفة المجاورة لغرفتي..

الواقع يا مسيو فيرمينار أن الرجال الذين خالطتهم في حياتي هم صورة من أخلاقي.. هم رجال لم يألفوا التفكير والتروي، وإذا فكروا إمتلأت نفوسهم وساوس وداخلهم الشكوك وسوء الظن..

قلت أنك من عامة الشعب.. ثق إذن أني لم أصادف في حياتي أخيراً إلا ثلاثة أشخاص جديرين بالإحترام والتقدير، وهم من عامة هذا الشعب.. هم أنت، ومسيو لافين

وجافوت الصغيرة التي لا تعرفها...

فقال فيرمينار بعد أن فرغ روشفور من كلامه:

- ثق يا سيدي أني لا أكن لك إلا كل تقدير.. صحيح أني أسأت ظني بك أول الأمر، أما الآن فلا.. ولو كنت مكانك في الواقع لفعلت ما فعلت...

فقال روشفور:

- ربما لكني لا أستطيع إستخدام الحبل، ولذلك سأترك مسألة خروجي من السجن إلى عناية الله وإلى رعاية مسيو دي سارتين...

أخذ روشفور يدفع الحبل من الفتحة، لكنه لم يتحرك، إذ كان فيرمينار يرده بيده من الناحية الأخرى.

قال فيرمينار:

- لا يا مسيو دي روشفور.. صبراً حتى أتكلم.. إن رغبتي في وجود رفيق يسليني أعمتني عن الصواب.. لابد أن تهرب لابد أن تفعل ما أشارت به الأقدار علينا حينما ألقت في طريقنا ثمرة جهود مسيو دي تومري..

أصارحك الآن أني لم أعد أثق في مسيو دي سارتين.. فهو قد وضعنا هنا للتخلص منا.. ويظهر لي كلما فكرت فيما قمنا به وفيما نعرفه أن من مصلحته إبقاءنا هنا إلى ما شاء الله..خذ الحبل يا مسيو دي روشفور، وأستخدمه

في الهرب.. أفعل ما أوحت به إلينا الأقدار.. ولا تنس فيرمينار.. قد يغدو في وسعك تحريري إذا إستخلصت حريتك وفزت بصفح مسيو دي شوازيل.

لم يتكلم روشفور.. فقد كان يفكر في هذه اللحظة.

إستطرد فيرمينار:

- كلما فكرت في هذا الأمر يا مسيو دى روشفور، تبينت لي مشيئة الأقدار.. خذ الحبل وإستخدمه.

قال روشفور أخيراً:

- لا بأس. سأستخدمه في تحريرك وتحرير نفسي. سنهرب معاً.

- مستحيل كيف يمكن أن أفلت من هذه الفتحة؟

- سأجد الوسيلة لذلك أني سمعت الساعة تدق العاشرة منذ قليل أستعد لمغادرة غرفتك.. هل يمكنك الهبوط إلى الأرض بواسطة الحبل؟

- نعم يا سيدي فعلت هذا مرة في ماضي حياتي.

- حسناً إستعد إذن لتكرار هذا العمل..

- لكني لا أفهم خطتك.

- ستفهم قريباً.. والآن أعد سريرك إلى مكانه يا مسيو فيرمينار وعليك أن تتظاهر بالنوم حينما يزورك بونفاللو

الزيارة الآخيرة.

الفصل الرابع

وضع روشفور الحبل تحت المرتبة، ونزع غطاءها وأخذ يمزقه قطعا مستطيلة، حتى تكون أمامه ثماني قطع طول كل واحدة نحو متر وربع، فوضع أربعاً منها تحت غطاء السرير، والباقي في جيوبه.

جلس روشفور في المقعد أمام المائدة ووضع وجهه بين راحتيه وأخذ يستعرض التعديل الذي إضطر لإدخاله على خطته بعد أن تقرر أن يشاركه فيرمينار في الهرب.ولما جاء بونفاللو لإجراء تفتيشه الأخير المعتاد ألفى روشفور جالساً على هذه الحال..

إلتفت إليه روشفور قائلاً:

- يظهر أنك مبكر هذه الليلة.

فأجاب بونفاللو:

- لا يا سيدي.. إني جئت في موعدي المعتاد.. فإن ساعة الفناء دقت الحادية عشرة منذ قليل.

- صحيح، لم أسمعها.. إن الصوت لا يسري كما يجب من خلال هذه الجدران السميكة.. إن الإنسان قد يصرخ في هذه الفرقة يا مسيو بونفاللو دون أن يسمعه أحد في مسافة بعيدة.

فقال بونفاللو:

- أصبت.. كان يوجد سجين مجنون في الغرفة رقم 32، وكان يقضي أغلب وقته في الصياح والهياج. لكنه لم يزعج أحداً .. إن فندقنا هذا متين البنيان، ولذلك نجد فيه ضيوفنا ما ينشدون من الهدوء.

نهض روشفور من مقعده وإتجه نحو الباب وأغلقه وإستند إليه بظهره..

كان بونفاللو في هذه اللحظة منحنياً فوق إناء الماء يتحقق من إمتلائه.. فلما رأى روشفور كذلك هتف:

- آه!. ماذا تفعل يا سيدي؟

-لا شيء.. أحب أن أتبادل كلمة معك.. سأغادر هذا الفندق الليلة وأحب أن أسوي حسابي.. لا تصرخ.. فلن يسمعك أحد.. وإذا تحركت من مكانك..

إمتقع وجه بونفاللو أول الأمر. لكنه إندفع نحو روشفور خافضاً رأسه باسطاً ذراعيه.

إنسل روشفور جانباً بسرعة ووضع ساقه في طريق بونفاللو وفي اللحظة التالية كان الجاويش ملقي على الأرض ذاهل الحواس ينزف الدم من جرح في جنبه، وركع روشفور فوقه ووضع ركبتيه فرق ذراعه حتى يمنعه من الحركة.

قال روشفور:

- أنظر عاقبة فعلك.. كان يمكن أن تقضي على نفسك.. على أن الجرح يسير، ويمكن أن تضيف ثمنه إلى قائمة الحساب.

تملص بونفاللو محاولاً الإفلات، غير أنه عاد إلى السكون، بينما إستطرد روشفور:

- لا فائدة من المقاومة.. إن الظروف ضدك، وليس في نيتي أن أخيرك.. وفوق ذلك فإني سأدفع الثمن، كما أن هذا الجرح سيبرهن على أنك قمت بواجبك.. والآن أدر وجهك.. أريد أن أقيدك ستراً للمظاهر.

حاول بونفاللو وهو يتقلب أن يفلت وينهض.. لكن روشفور لم يترك له أدني فرصة فقد كان راكباً فوق ظهره وتناول قطعة من القماش من جيبه وقيد يدي بونفاللو، ثم قدميه.

قال بونفاللو وهو يمد رقبته:

- لن أقاوم بعد يا سيدي.. لكني أتوسل إليك أن تقيد ركبتي وأن تكمم فمي حتى يبدو أني أديت واجبي..

فقال روشفور:

- إطمئن...

قيد روشفور ركبتي الجاويش المسكين وساعديه ودس منديلاً في فمه.. ثم تناول عشرة جنيهات من جيبه وأراها

للأسير ووضعها واحداً بعد الآخر في إناء الماء.

تناول روشفور المفاتيح من جيب بونفاللو وغادر غرفته وفتح باب غرفة فيرمينار، فوجده جالساً فوق الفراش.

هتف فيرمينار:

- رباه!.. ماذا حدث؟

لم يجبه روشفور، بل جذبه من ذراعه وأخرجه إلى الممشى وقال له:

- أسرع.. إني قيدت بونفاللو.. لكنه إذا لم يرجع إلى غرفة الحرس فسيبحثون عنه حتماً.. هذا هو.. لم ينله ضرر.. ساعدني الآن في حمل السرير إلى النافذة..

أطاع فيرمينار.. وحمل الإثنان السرير إلى النافذة.. فربط روشفور طرف الحبل في السرير ووقف فوقه وفتح زجاج النافذة وأمسك القضيب الحديدي.. وما هي إلا لحظات حتى ألقاه فوق الفراش، ثم تناول الحبل فجمعه في يده وقذفه من النافذة وإنحنى برأسه فوقها وأطل منها..

كان القمر يغمر جدار السجن بضوئه، ولمح روشفور ظلمات الخندق تفغر فاها، فكاد يصاب بالدوار.. لم يكن أمامه أن يتراجع، ولذلك وضع وسادتين على حافة النافذة فإرتكز الحبل فوقهما.. ثم دلى ساقيه إلى الخارج وإستدار في مكانه، فإستقرت بطنه فوق الوسادة..

أخذ روشفور يهبط بجسده شيئاً فشيئاً حتى صار معتمداً فقط على مرفقيه..

إعتمد بكل جسده على مرفقه الأيسر، وأمسك الحبل بيده اليمنى عند إلتقائه بالوسادة، ثم دفع مرفقه الأيسر وتشبث بحافة النافذة بيده اليسرى..

كان الآن ممسكاً الحبل بإحدى يديه، وبالأخرى حافة النافذة وخيل إليه أنه لو تخلى عن حافة النافذة لهوى إلى حيث يدق عنقه وتتحطم عظامه.. على أنه إستجمع إرادته وكف عن التفكير.. ثم تدلى في الفضاء..

ولولا الوسادة التي إستقر فوقها الحبل لتعذر على روشفور أن يمسك به.. وكان كلما هبط قليلاً إحتكت أصابعه بالجدار الخشن وتمزق الجلد ونزف الدم، وإرتطم كتفاه وركبتاه بالجدار مرات كثيرة، وأحس بأن أعضاء جسمه تكاد تتمزق وعظامه تنفصل..

وأخيراً.. رأى فجأة أن المحنة قد إنتهت، ولم يبق بينه وبين الأرض إلا نحو أربعة أمتار..

إنتهى الحبل قبل الوصول إلى الأرض بنحو متر ونصف.. فتخلى روشفور عنه وإستقر فوق الأرض دون أن يصاب بسوء. وتطلع إلى الجدار وإلى النافذة التي هبط منها.

بدا له وهو في مكانه فوق الأرض أن المسافة يسيرة. وفيما كانت ساعة السجن الكبيرة تدق الربع بعد الحادية

عشرة رأى ساق فيرمينار تبرز من النافذة، ثم تبعها جسده، ولم يتمالك روشفور أن كتم أنفاسه وهو يرى ساقي فيرمينار تلتمسان الحبل وجسمه ينطوح في الفضاء..

أمسك روشفور طرف الحبل، ورأى أنه غير محق في خوفه على فيرمينار، فإن هذا الرجل أخذ يهبط وينحدر كالعنكبوت. ثم إستقر أخيراً بجانب روشفور..

همس روشفور في أذن فيرمينار:

- لنختف الآن في ظل الخندق حتى يحتجب القمر خلف السحاب يوجد حرس فوق أبراج السجن..

قال فيرمينار همساً:

- خطر لي يا سيدي وأنا أهبط أنهم إذا إكتشفوا هروبنا فسوف يطاردوننا في الطرق المؤدية إلى باريس.. لكنهم لن يخطروا حرس أبواب باريس لسبب بسيط، وهو أنه إذا قبض علينا عند الأبواب فقد لا يبعد أن يكون أحد رجال شوازيل حاضراً فيحدث كلام ولغط، وقد يفهم من كلامنا أننا وضعنا سراً في السجن لإبعادنا عن طريق مسيو دي شوازيل.. فيفتضح دي سارتين..

فقال روشفور:

- أصبت.. على أننا سنرى.. آه.. ما هي السحابة؟

أخذت سحابة كثيفة تزحف رويداً حتي حجبت القمر

خلفها وما هي إلا لحظات حتى إنتهز الهاربان فرصة الظلام الذي ساد فوق السجن والمنطقة المحيطة به، فتسلقا جدار الخندق ووصلا إلى الطريق.. وإتجها إلى باريس.

الفصل الخامس

في نفس هذه الليلة، أو بعبارة أدق، في الصباح المبكر، بينما كان الفيكونت دي كارت عائداً إلى منزله بشارع (ملاكيه) لمح وهو يتقدم في الشارع شخصاً خيل إليه أنه يعرفه من خلال ضوء القمر المائل للمغيب..

كان هذا الشخص هو روشفور..

والفيكونت دي كارت هو أحد الأصدقاء القلائل الذين يثق روشفور بصداقتهم ويعول على إخلاصهم.. ولم يكد يصدق عينيه أول الأمر. ولما سمع روشفور يناديه إتهم سمعه وغالط نفسه.. فإن باريس من أقصاها إلى أقصاها كانت تتحدث عن فرار روشفور منها، وكان المظنون أنه تجاوز الحدود ووضع بينه وبين فرنسا كلها سداً.. فإذا الفيكونت يراه الآن سائراً بهدوء وعلامات الإطمئنان والإرتياح بادية عليه كأنه لم يحدث شيء.

قال روشفور بعد أن تصافحا:

- ما أسعد هذا اللقاء يا صديقي العزيز.. من أين جئت؟

إنفجر كارت ضاحكاً وهتف:

- من أين جئت؟.. تسألني هذا السؤال.. أجدر بي يا عزيزي أن أوجه هذا السؤال إليك.. وأن أسألك من أين جئت؟

أجاب روشفور وهو يبادله ضحكه:

- جئت من مكان لا يمكن أن أسميه إليك هنا في الشارع أريد مأوى وملابس.. هذا هو منزلك، ونحن متماثلان في الجسم، وأعرف أن عندك ملابس جديدة وافرة لا ترتديها.. فإذا كنت تحب أن تسمع قصتي فخذني إلى بيتك وإكسني وأتركني أستريح بضع ساعات قبل أن أبدأ مهمتي في البحث عن مسيو دي شوازيل..

- البحث عن مسيو دي شوازيل.. رباه.. ألا تعلم أنه يبحث عنك في باريس، بل في فرنسا كلها؟

- إذن فلكل منا غاية واحدة.. وما دام الأمر كذلك فلابد أن نلتقي في منتصف الطريق..

تبع روشفور صديقه إلى داخل بيته حيث قاده إلى غرفة الجلوس وقدم إليه الشراب..كانت الساعة الثانية صباحاً، وقال كارت بعد أن إستقر بهما المقام:

- أخبرني الآن يا عزيزي بكامل قصتك.. قل لي أين كنت وماذا كنت تصنع، وما هذا الكلام الفارغ الذي تقرره عن مسيو دي شوازيل؟..

- أما أين كنت فالجواب في منتهى البساطة.. كنت معتكفاً في الأرياف.. في سجن فنسان..

- سجن فنسان!

- تماماً وضعني دي سارتين في هذا السجن لإخفائي عن عين شوازيل وما كنت أخبرك بهذا في الواقع لولا ثقتي بك وإطمئناني إلى إخلاصك لم يحب سارتين أن يترك شوازيل يأسرني، ولذلك إعتقلني تحت إسم مستعار، برضائي، وأخفاني في سجن فنسان حيث بقيت هناك طول المدة الماضية ، لكني لم أكد أستقر في السجن حتى رأيت أني لا أستريح إلى الإقامة به..

- هذا مفهوم..

ومع أن سارتين قرر أنه وضعني في فنسان لمنع شوازيل من سجني، فقد بدأت أرى أني كنت من الغفلة والغباوة بمكان..

قلت لنفسي.. «إن سارتين تورط في إخفائي عن شوازيل، ومع أنه قد يكون مخلصاً في شعوره من ناحيتي، فليس هو بالذي يورط نفسه مرة ثانية بإطلاق حريتي ما دام شوازيل متمتعاً بالسلطة والنفوذ في فرنسا».

إقتنعت إذن بأني إذا إستسلمت للسكون فقد أنجو من يد شوازيل.. لكني قد أبقى رهن السجن أعواماً طويلة، ولذلك صممت على الهرب والذهاب إلى شوازيل رأساً كي أخبره بالحقيقة فيما يختص بالموضوع الذي يريد إعتقالي بسببه..

فقال كارت:

- سمعت أنك قتلت رجلاً..

- نعم.. وكان هذا الرجل من أتباع شوازيل هو لكنه كان شقياً يحاول الإعتداء على فتاة ضعيفة، وفاجأته متلبساً بالجريمة.. فطاردته وحاول مهاجمتي، لكني قتلته في معركة شريفة..

- هل تستطيع الفتاة أن تشهد بذلك؟

- نعم..

- إذن ما السبب في مقاومتك كاميس حينما أراد إعتقالك في تلك الليلة؟ بلغتني القصة كلها من لسان مونبافون..

- قاومته لأني كنت أريد الذهاب إلى باريس لمقابلة إمراة أعطتني موعداً..

تململ الفيكونت دي كارت في مقعده قلقاً.. لم يعجب لأن روشفور قتل رجلاً.. فقد كان هذا مفهوماً ومألوفاً من روشفور لكن الذي لم يفهمه ولم يسترح إليه هو فرار روشفور من مواجهة النتائج، وهي صفة لم يكن يعهدها بتاتاً في صديقه.

لكنه حينما سمعه يقرر الآن أنه لم يفعل هذا إلا محافظةً على موعد سابق بينه وبين إحدى النساء، فهم كل شيء، فقد كان هذا هو المألوف من روشفور والمعروف من صفاته وأطواره..

قال كارت:

- لكن ألم تفكر في أنك بسبب المحافظة على ذلك الموعد المعين تجازف بكل شيء.. وتتعرض لكافة الخسائر؟ يا إلهي! إني أرتاع لمجرد التفكير في هذا الأمر.. ألم تفكر يا صديقي؟.. ألم تتدبر النتائج؟

أجاب روشفور:

- لو كنت مكاني لفعلت ما فعلت، لو أن شوازيل أوفد رسولاً في كاميس لإعتقالي لهان الأمر.. إما أن يخبرني رجل أحتقره مثل كاميس بأنه لا يجب علي أن أذهب إلى باريس، بل أبقي في فرساي، أسيراً عند شوازيل، فقد كان هذا أكثر مما يمكن إحتماله.. لا.. لم أفكر يا صديقي. ولا فائدة من تبيان ما كان يجب أن أفعله. صحيح أنه كان يجدر بي أن أنقاد لكاميس كالحمل، وأن أواجه شوازيل كالأسد، وأن أفسر له حقيقة الموقف لكن الواقع أني واجهت كاميس كالأسد، وهربت من وجه شوازيل..

لم تكن هذه خطة حكيمة صائبة، ولكن لم يكن بد مما حدث.. ويخيل إلي يا كارت أن كل ما حدث كله رواية تمثيلية سطرتها يد الأقدار.. وشاءت أن ألعب دوري فيها..

كان كاميس صديقي.. ولما أنقذت الفتاة التي حدثتك

عنها من يدي الشقي تابع شوازيل حاول كاميس أن يعتدي عليها.. نخلصتها من يده ولطمته على وجهه.. هذا ما أرادته الأقدار..

لم يرد كاميس اللطمة ولم يطلب المبارزة، بل أراد الثأر ولما أراد شوازيل إنتداب رجلا للقبض علي لم يجد من يوفده لهذه المهمة سوى كاميس.. هذا ما أرادته الأقدار كذلك..

وكانت الفتاة التي أنقذتها خادمة لتلك المرأة التي حدثتك عنها، وكانت المرأة صديقة لألد أعداء شوازيل، أعني الكونتس دي باري.. وهنا أيضاً لعبت الأقدار دورها..

ولكي أفوز برضى هذه المرأة زججت بنفسي في موضوع إدماج الكونتس دي باري في البلاط، وهيأت بذلك سبباً آخر لإثارة سخط شوازيل علي، ومقته لي.. وتلك مشيئة الأقدار.

ومما زاد الطين بلة أن كاميس قبل إختصامه معي أفضى إلى بمؤامرة كان شوازيل يدبرها ضد دي باري، وقد رفضت الإشتراك فيها وأطلعت دي باري على مضمونها.. ألا تلمح في هذا أيضاً أصبع القدر؟..

قال كارت:

- ما أبشع هذا الموقف الذي حشرت نفسك فيه.. لكن أخبرني هل يعلم شوازيل أنك أطلعت دي باري على

المؤامرة التي دبرها ضدهم؟

- لابد أنه يعلم.. من المؤكد أن كاميس أبلغه أنه أطلعني على المؤامرة.. ولما كنت قد ذهبت إلى منزل دي باري في تلك الليلة ولإعتقادي الجازم بأن رجال شوازيل كانوا يراقبون المنزل.. فالمسألة ظاهرة كالشمس..

- هل زرت منزل دي باري في نفس الليلة التي أطلعك فيها كاميس هذه المؤامرة؟

-لم أرتكب هذه الحماقة

- هذه إرادة الأقدار.. إني رافقت تلك الفتاة التي أنقذتها إلى منزلها حتى أطمئن على سلامتها.. وكان هذا المنزل من دون المنازل كلها، مقر دي باري..وفيما كنت أهم بتقبيل الفتاة أمام مدخل المنزل جاء جان دي باري ودعاني إلى الدخول.. فدخلت.. ووجدت المرأة التي حدثتك عنها في نفس المنزل.. وما كدت أراها وأنا أعلم من قبل إنها صديقة للكونتس دي باري حتى إنضممت إلى حزب دي باري وسردت عليهم نبأ المؤامرة المدبرة ضدهم.. وما كنت في هذا مخلفاً وعدي.. فإني لم أعد كاميس بالكتمان.. بل أعربت له عن إشمئزازي من المؤامرة..

- ومن هي تلك المراة التي من أجلها تورطت في هذا الموقف المعقد؟

- لولا أنك صديقي الحميم ما أخبرتك بإسمها.. هي الآنسة فونتراي..

- الآنسة فونتراي..! بالأمس فقط..

- نعم..

- سمعت.. وإن كنت لا أدري مبلغ هذا الكلام من الصحة أن الآنسة فونتراي غارقة في حب كاميس.

قال روشفور ضاحكاً:

- كاميس والأقدار من جديد..

- لكن قد لا يكون هذا الكلام صحيحاً, إن أحدهم أخبرني به وأنت تعرف كيف تطير الشائعات في باريس.

فقال روشفور:

- بل هذا صحيح. وهذه هي الحلقة الباقية لإتمام فصول الرواية.. إن كاميس إنتهز فرصة غيابي في فنسان وإشتغل لنفسه.. أنت لا تجهل أساليبه التي يتبعها مع النساء.. مهما يكن من شيء فإني لا أهتم.. أعني فيما يختص بالفتاة.. لكني سأسوي حسابي مع كاميس..

- بل يجدر بك أولاً يا صديقي أن تسوي موقفك مع شوازيل إن كان هذا ممكناً.. ولو كنت مكانك لما إهتممت بكاميس ولا بالفتاة.. أو أنها ستتصل به حقاً فستنال جزاءها العادل.

فقال روشفور:

- لا بأس.. سنرى.. بعد الإنتهاء من شوازيل.. هل هو في باريس؟

- لا.. هو في فرساي.. لكنه سيعود إلى باريس غداً.. أو بالأحرى اليوم، فإن الساعة الثالثة صباحاً. إني أعلم بعودته لأنه دعاني إلى الحفلة التي سيقيمها في قصره بضاحية (سان أتوريه).

- آه.. هل يقيم حفلة؟.. ومتى؟.

- اليوم.. في الساعة التاسعة مساءً.

- بديع.. سأذهب إليها..

- تذهب إلى الحفلة.. لكنه سيعتقلك..

- لن يعتقلني في بيته.. فإني سأكون ضيفه.

- لكنك لم تدع إلى الحفلة.. ولذلك لن تكون ضيفاً له.

- لا بأس يا عزيزي كارت.. ما أحسبك تجهل أن شوازيل يسمح لكل واحد من مدعويه بإصطحاب أحد أصدقائه.. لابد أن تصحبني معك إلى الحفلة..

- أصحبك معي.. أنت تطلب المستحيل أيها الصديق.

- وما السبب؟

- أصارحك أنه يهمني أن تكون علاقاتي على ما يرام مع شوازيل.. ولو فعلت ما تطلب لقضيت على صلاتي بالبلاط..

فقال روشفور:

- تعجبني منك هذه الصراحة التامة.. ولو كان أحد سواك لإعتذر بدعوى أنه دعا صديقاً من قبل.. لكنك تقرر الأمر بصراحة، وهو ما كنت أفعله لو أني في مكانك.. لا بأس.. أؤكد لك أن صلاتك بالبلاط لن يمسها أدنى ضرر فإني سأعمل أولاً على مسألة شوازيل.. فإذا لم أوفق فأنت في حل من أن تخبره بأن الذنب ذنبي وأنك فهمت مني أني سويت أموري معه.. وسوف أؤيد أقوالك في هذا الشأن.. لا خطر عليك يا صديقي.. ويمكنك أن تتصور حالة شوازيل حينما يراني في قصره..

تمعن كارت لحظة في الموضوع، ثم قال:

- مهما يكن ففي رأيي أن هذه مجازفة لا يحسن بك الإقدام عليها..

- إني أريد أن أحادث شوازيل على إنفراد.. وليس في وسعي الوصول إليه بطريقة أخرى.. إذا ذهبت لمقابلته في فرساي فسوف يقبض على رجال الحرس ولا أراه إلا من خلال السيوف المشهرة.. وإذا ذهبت إليه في بيته فإن البواب سيحيلني إلى الوكيل، والوكيل يقودني إلى غرفة

الإنتظار.. وأغلب الظن أن شوازيل لا يسمح بزيارتي له حتى يصدر أمره بإعتقالي قبل أن يراني.. لا.. في يقيني أن الأقدار قد هيأت إلى هذه الحفلة.. وأنها تحالفني هذه المرة كما حالفني في فنسان وهيأت لي الإفلات من السجن في نفس اليوم الذي تقام فيه حفلة شوازيل.. وكما لقيتني اليوم في طريقك.. هل لاتزال ترفض إصطحابي معك إلى حفلة شوازيل؟

- لا يا عزيزي روشفور.. أرفض.. وإذا كنت غير مرتاح إلى القيام بهذه المهمة، فإن عليها يتوقف مستقبلك من ناحية أخرى.. ومع أنك قد تكون مخطئاً في هذا الموقف من أوله إلى آخره، إلا أني أعلم أنك كنت تفعل لأجلي ما سوف أفعله لأجلك أو العكس الحال وكنت في موقفك وسأصحبك إلى حفلة شوازيل..

فقال روشفور:

- شكراً لك.. لن أنسى لك هذه المروءة.. والآن لنتدبر مسألة الملابس. ليس في وسعي أن أذهب إلى مسكني أو أرسل أحداً لإحضار ملابسي.. وما دام الأمر كذلك فهل يمكنك أن تمدني بالملابس اللازمة؟..

- بلا ريب.. ملابسي تحت طلبك.. والآن سأمر بإعداد فراشٍ لك..

إستدعى كارت أحد الخدم وأمره بإعداد غرفة خاصة..

وفيما كانا يصعدان بعد قليل إلى الطابق العلوي تفكر روشفور فيرمينار الذي إفترق عنه خارج أسوار باريس.

لم يقبل فيرمينار أن يدخل إلى باريس من باب (سان أنطوان) مفضلاً أن يذهب إلى فندق (جامبرينوس) من طريق طويل، حيث قرر أن يأوي إلى هذا الفندق.. أما روشفور فإنه صادفَ في طريقه مركبة خضروات كانت قاصدة إلى باريس، فأعطى صاحبها بضعة فرنكات وتظاهر بالسكر وطلب إليه أن يحمله إلى داخل المدينة.. ثم إنطرح فوق أكياس البطاطس وتظاهر بالنوم.

دخل روشفور إلى الغرفة التي أعدت له في منزل صديقه دي كارت وخلع ملابسه ونام نوماً عميقاً.. ولم ينهض إلا في الصباح حينما أيقظه جرمان خادم صديقه.

الفصل السادس

يذكر القاريء أنه في صباح نفس هذا اليوم تلقى سارتين زيارة الفيكونت جان دي باري ثم الكابتن بيير كوزان محافظ سجن (فنسان) الذي حمل إليه بنفسه نبأ فرار روشفور من السجن..

ولما إنصرف كوزان كان سارتين فريسة للحيرة والإضطراب والغضب، ونقم على روشفور وعلى شوازيل وعلى الدنيا كلها.. ولم يتمالك أن دفع الأوراق التي كان عاكفاً على دراستها ونهض من مقعده وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئةً وذهاباً.

رأى كل شيء يتوقف الآن على ما يقوم به روشفور.. كان سارتين يعلم أن شوازيل ساوره الإرتياب في أمر إستقبال الكونتس دي باري في البلاط. كما علم أن شوازيل عهد إلى أحد أعوانه بإستجواب الكونتس دي بيارن العجوز قبل مغادرتها باريس، لكن الكونتس رفضت أن تبوح بشيء في هذا الشأن.. وكان رفضها هذا لسببين.. الأول: أنها إستحوذت على مبلغ المائتي ألف فرنك الذي وعدها به الفيكونت جان دي باري.. والثاني: هو كبرياؤها الشديد ونفورها من الإعتراف للناس بأنها خدعت، فقد عدت نشر هذا النبأ فضيحة تاريخية تنال من كرامتها..

فلم يكن هناك إذن من يخشى أن يتكلم سوى روشفور وفيرمينار الممثل الأكبر في هذا الدور.. وها هما الآن مطلقاً السراح بعد أن كانا في مقر أمين..

وفيما كانا سارتين نهباً لهذه الهواجس طرق الباب وأبلغه الحاجب حضور لافين ورغبته في مقابلته. فأمر سارتين بإدخاله في الحال إذ لم يكن أحب إليه من إلقائه في هذا الظرف العصيب.. والواقع أن غياب لافين في المدة الماضية أزعجه، فقد كان ساعده الأيمن وناصحه الأمين في وقت الشدائد والملمات..

تراجع سارتين إلى الخلف حينما وقع نظره على لافين. وهتف:

- رباه..! ماذا أصابك؟

رأى أمامه رجلاً تقدم في العمر عشر سنوات عما رآه لآخر مرة.. وكان وجهه ممتقعاً شديد التحول.. وعيناه حمراوين محتقنتين..

قال لافين وهو يستند بيده إلى مقعد كأنما يتشبث به خوف السقوط:

- مربي وقت عصيب يا سيدي الرئيس.. لكني سأتحسن بعد قليل.. عندي مسائل خطيرة أريد أن أحدثك عنها..

طلب إليه سارتين أن يجلس، وأمر له بكأس من

الشراب فلما تناوله قال سارتين:

- أخبرني أولاً من أين جئت؟

- جئت من مقابر باريس حيث سجنت وجعلت أهيم على وجهي مدة لا أدري متى بدأت؟

- مقابر باريس.. ماذا كنت تفعل في المقابر؟

- كنت أحاول الإفلات يا سيدي والنجاة بنفسي.. وإني أدعو الله من كل قلبي ألا يحكم علي مثل هذه المحنة مرة ثانية.

أخذ لافين يسرد على سارتين نبأ زيارته لبيت كاميس ودخوله إلى معلمه الكيميائي وما رآه فيه وكيفية وجوده في المقابر.. ثم إستطرد:

- كان أمامي أن أختار بين أربعة طرق، ولما أخذت واحداً منها أفضى بي إلى جدار أصم.. فإضطررت أن أعود من حيث جئت، وإستغرقت عودتي يوماً كاملاً.. ولم يكن أمامي إلا أن أسير في الظلام إبقاء على الشمعات التي كانت معي..

ولما إخترت طريقاً ثانياً كان هو الطريق المنشود.. لكني قاسيت فيه الأهوال.. فقد سقطت إعياءً أكثر من مرة ونمت ساعات طويلة.. ولو لم أجد بعض الماء لهلكت من شدة الظمأ. والواقع أني إهتديت في أكثر من موضع إلى بعض الماء يتسرب من خلال الصخور، وإضطررت مرة

إلى خوض بركة فسيحة.. ولم يكن أمامي إلا أن أواصل السير، وكنت أتحسس طريقي بقدمي، ولم أكن أتقدم لشدة الظلام إلا تقدماً بطيئاً..

وأخيراً وصلت إلى باب المقابر القديم المشبك بالقضبان الحديدية الكائن عند مرتفعات (مونت سوري) ولو لم تستلفت صرخاتي المتوالية أحد المارة لقضيت نحبي في هذا المكان.. على أن هذا الرجل إستنجد بأناس آخرين وحطم القضبان الحديدية وأنقذني.. كان هذا مساء أمس، وحملني الرجل إلى مسكنه القريب حيث قدم إلي طعاماً وإستغرقت في نوم لم أفق منه إلا في وقت متأخر في صباح اليوم..

دهش سارتين من هذه القصة التي سردها عليه لافين حتى ذهل عن الموضوع الذي كان يشغله في هذا الوقت، وهو موضوع روشفور.. ولم يذكره به سوى لافين الذي إستطرد:

- والآن لننس هذه القصة يا سيدي، فهناك مسائل أكبر خطورة وأهمية منها.. إني غبت عن العالم أربعة أيام.. هل لايزال الكونت كاميس على قيد الحياة؟

كان لافين قد أخبر رئيسه بقصة المدية المسمومة، لكنه لم يطلعه على كل ما يتصل بها.. وأجابه سارتين:

- على قيد الحياة.. نعم.. هو مايزال يتمتع بالحياة.. أو كان

كذلك حتى وقت متأخر في الليلة الماضية.. ما سبب هذا السؤال؟

- لأني قبل أن أغادر المعمل الكيميائي الذي حدثتك عنه؟ أخرجت المدية من غمدها ثم أعدتها إلى الغمد بعد أن غيرت وضع وجهيها..

- غيرت وضع وجهيها؟

- نعم يا سيدي.. فهي مدية ذات حدين،وهي توضع في الغمد من الناحيتين.

إنتفض سارتين في مقعده وهتف:

- معنى هذا أن كاميس إذا إستخدم المدية في شطر الفاكهة على النحو الذي دبره فسيكون الموت من نصيبه..

- تماماً يا سيدي.. كان الوقت ضيقاً أمامي.. وقلت لنفسي: إن وجه المدية المسموم قد أعد للقضاء على إمرأة بريئة حاول في ذلك أن يقتلها بوردة مسمومة، لكنه أخفق وقتل (أتلانتا) مكانها.. وقد كان قتل كلب جلالة الملك هو ما جاء بي للتحقيق في هذه القضية ولا شك أن العدالة الإلهية عهدت إلى بالإقتصاص من هذا الرجل.. نعم.. رأيت أنه يستحيل الإنتصاف للعدالة من هذا المجرم بالطرق المألوفة، فهو شديد البراعة والدهاء، وهو يجهز سمومه بأساليب شيطانية لا يهتدي إليها أحد، وسوف يفلت من أيدينا إذا أفلح في جريمته هذه المرة كما أفلح

في سابقاتها.. فلتكن يده الآن هي أداة القصاص العادل الذي يستحقه.. وهكذا عكست وضع المدية في غمدها.

قال سارتين: هذا علاج حاسم في الواقع.. لكن ألا يلحظ تغيير وضع المدية إذا نظر إلى المقبض؟

- لا يا سيدي.. فإن نقوش المقبض متشابهة في كلا الوجهين في حين أن النقوش على جانبي الغمد مختلفة تمام الإختلاف..

جلس سارتين صامتاً لحظة مستسلماً للتفكير، ثم قال أخيراً:

- كان هذا منذ أربعة أيام.. ومع ذلك لم يحدث شيء.. إن كاميس وزوجته يتمتعان بالحياة.

- هل تقابلا أثناء هذه المدة يا سيدي؟

- لم يتقابلا كما أعلم.. فإن مدام كاميس مقيمة في فرساي منذ أكثر من يومين..

فقال لافين: حينما سألتك يا سيدي عما إذا كانا تقابلا أثناء هذه المدة، كان يجب أن أسألك عما إذا كانا إلتقيا في وليمة عامة فإن الجريمة سترتكب في مثل هذه المناسبة، وتحت سمع الناس ونظرهم.. وهنا وجه البراعة في هذا التدبير الشيطاني..

من السهل على كاميس أن يدس السم لزوجته سراً في

منزله لكن إلتقاءه بها في الوليمة العامة يهيء له أن يقف بين الناس قائلاً: «إني لم أقابلها إلا مرة واحدة في كذا من الأيام، وكانت علاقات المودة والصفاء بيننا على خير ما يرام، بدليل أننا إقتسمنا تفاحة هل تحسبون أني دسست السم في التفاحة؟.. إني أكلت نصفها بنفسي، ولم أفعل نحوها أكثر من أن تناولتها من الطبق فوق المائدة وشطرتها شطرين.. فهذه الفكرة باطلة من أساسها وها كم المدية نفسها.. إني أستخدمها دائماً في قطع الفواكه.. وها هو سلاحها من الفضة لهذا الغرض.. خذوها.. إفحصوها لتروا إن كانت مسمومة كما تزعمون»..

أحسبك رأيت الآن يا سيدي الرئيس إتجاه تفكيري.. إن الجناية سترتكب في حفل عام، ولذلك فإني أسألك عما إذا كانا تقابلا في مثل هذا الحفل حيث يمكن تنفيذ الجريمة؟..

أجاب سارتين بتؤدة: لا... لكنهما سيتقابلان في مثل هذه الحفلة الليلة.

- الليلة؟

- هذا ما أعتقده.. إن مسيو دي شوازيل سيقيم حفلة في قصره هذه الليلة.. وسيحضر كاميس هذه الحفلة لغرامه بالآنسة كامي فونتراي، وستحضر هذه الفتاة لأنها صديقة دي باري الذين تهادنوا في الوقت الحالي مع شوازيل، وقد دعوا إلى الحفلة.. ولما كانت مدام كاميس

صديقة لعقيلة الدق دي شوازيل فستحضر كذلك..

فقال لافين: إذن فإن حياة كاميس لن تساوي سنتيماً واحداً بعد منتصف هذه الليلة.

فقال سارتين وهو يتناول قليلاً من السعوط:

- سيوفر على الجلاد بعض التعب.. وكم يكون طريفاً أن نرى؟

وفجأة تغيرت ملامح وجه سارتين وهتف:

- يا إلهي!.. إني نسيت!إن الحديث أذهلني!.. لقد هرب روشفور من سجن فنسان..

هتف لافين: هرب! ومتي؟

- في الليلة الماضية..

فقال لافين: لكنه رضي بالبقاء في السجن! وأدرك خطورة موقفه!.. هذا نبأ عجيب يا سيدي!

فقال سارتين: لابد أنه سئم البقاء في السجن. فإن هذا الشيطان لا يستقر في مكان واحد.. وليس هذا فقط، بل أنه أطلق سراح فيرمينار معه..

- لكن كيف أفلتا يا سيدي؟

- بواسطة حبل فتله روشفور من الهواء في ثلاثة أيام! بواسطة مبرد صنعه من لا شيء لقطع قضيب نافذة

غرفته! ثم كاد يخنق حارس السجن وتركه مقيداً في الغرفة!.. لا أدري ماذا حدث.. فهو من قبيل المعجزات.. لكنه أفلت من السجن..

- وهل لم تسمع منه شيئاً في صباح اليوم؟.

- لم أسمع شيئاً..

في هذه اللحظة أقبل الحاجب حاملاً رسالة، فسأله سارتين:

- من جاء بها؟.

- لا أدري يا سيدي. تركها رجل وإنصرف قائلاً إنه لا حاجة إلى الرد.

إنسحب الحاجب وطالع سارتين الرسالة ثم ناولها إلى لافين، فإذا هي كما يلي:

«عزيزي سارتين أرجو أن أتمكن من مقابلتك في حفلة الدوق دي شوازيل هذه الليلة. إني غادرت سجن «فنسان» فقد سئمته، لا تقلق، أرجو أن أسوي كل شيء مع شوازيل».

«المخلص: دي روشفور»

طالع لافين الرسالة في دهشة لكن دون أن تتغير ملامح وجهه، ثم أعادها إلى سارتين قائلاً:

- لا بأس يا سيدي.. أمامنا على الأقل دليل يرشدنا إلى خطة مسيو دي روشفور.

هتف سارتين وقد إشتد به الغضب:

- خطة روشفور.. وهل يجلس سارتين ساكناً في إنتظار نتائج خطة روشفور؟

نهض سارتين من مقعده وراح يقطع الغرفة جيئةً وذهاباً. وقال مهتاجاً:

- روشفور يمل الإقامة في سجن (فنسان) ويغادر السجن كما أغادر أنا هذه الغرفة.. ثم يأتي إلى باريس للتسلية ويبعث إلى رسالة يعرب فيها عن أمله بمقابلتي في حفلة الدوق دي شوازيل.. في حين كانت رغبتي أن أحول بينه وبين مغادرة السجن، وألا يبقى في باريس، وأن يبعد آلاف الأميال عن شوازيل لا أن يلتقي به!.. يظهر أن رجالي يتهاونون في خدمتي! يظهر أن رجال البوليس المعهود إليهم بالمحافظة على الأمن في عاصمة جلالة الملك أصبحوا كالعدم! أقسم بالله الذي خلقني وسواني أني سأطرد كل من له إتصال بهذا الموضوع.. من حارس سجن (فنسان)، إلى الرجل الذي تلقى هذه الرسالة وسمح لحاملها بالإنصراف!

لزم لافين الصمت أثناء هذه الثورة، ثم قال بعد أن سكت سارتين:

- الذنب ذنب الحوادث والظروف يا سيدي، لا ذنب رجالك.. صحيح أن مسيو دي روشفور طليق السراح.. لكن لا حاجة إلى التخوف من النتائج.

فقال سارتين في تؤدة وفي نبرات باردة:

- ألا تفهم أن الدرق دي شوازيل إذا أوقع روشفور هذا في شراكه فلن يكتفي بسجنه!. سيعتقله بدعوى أن «مصلحة الدولة» تدعو إلى إعتقاله سيستنطقه بدولاب العذاب ويصب الماء في فمه حتى ينتزع الحقيقة منه. بل أن مجرد ذكر إسم آلات التعذيب المعروفة أمام روشفور سيحمله على الإعتراف بأسباب وظروف مساعدته لدى باري الذين يمقتهم شوازيل. ومتى تكلم فقد هلكنا. إن جلالة الملك لن يغتفر ما حدث في حفلة الإستقبال التي أقيمت بإسمه وفي أرجاء قصره. وها هو ذا روشفور العزيز يسير بنفسه إلى أحضان شوازيل..

فقال لافين: لا حاجة بك إلى الخوف يا سيدي. معي في جيبي شيء سيخضع مسيو دي شوازيل ويدفع شره في هذا الشأن. معي رسالة كتبها شوازيل نفسه عقب حفلة الإستقبال المشار إليها.

أخرج لافين رسالة شوازيل من جيبه وناولها إلى سارتين. فلما تلاها قال:

- من أين جئت بهذه الرسالة؟

سرد عليه لافين حكاية الرسالة.. فقال سارتين:

- بديع!. ستذلل هذه الرسالة كل شيء. يا إلهي!. ترى هل جن شوازيل حتي يحرر مثل هذه الرسالة؟! سأحملها في الحال إلى جلالة الملك وأعرضها على أنظاره..

فقال لافين: لا يا سيدي..

- آه!. ماذا تقول؟

- قلت لا يا سيدي.. هذه الرسالة لا تخصني.. وهي تخصني فقط إلى الحد الذي يمكنني من حماية مسيو دي روشفور.. إني وعدت الفتاة التي حدثتك عنها أن أحتفظ بالرسالة لهذه الغاية.

هتف سارتين: يا إلهي! أراك تفرض علي الخطة التي يجب إتباعها!

- لا يا سيدي.. أو على الأقل هذا صحيح فيما يختص بالرسالة. وبشيء آخر أعتز به كل الإعتزاز.. هو شرفي.

- شرفك! رجل من مرؤوسي يحدثني عن شرفه في موضوع يتصل بمصلحة الدولة! ماذا يهمني هذا؟.

قال لافين ببرود وفي رباطة جأش:

- كيف يجوز يا سيدي أن تنتقص إلى هذا الحد من قيمة الشرف وقد عشت هذه الأعوام الحافلة وسيطرت على باريس وواجهت مشاكل البلاط بنفوذك كمدير

للبوليس؟ أنت تقدر مواهب (فريبو) أبرع رجال السيف في بوليسك، و «أفريمان» حلال الطلاسم، و«جيمو» أقدر الحاسبين.. ولكن ما قيمة هؤلاء الرجال عندك ونفعهم لك إذا كان يمكن شراؤهم بالمال.؟لم أحدثك أبداً من المناسبات التي كان يمكنني فيها الحصول على الرشوة في مسائل ثانوية. وقد كان ميسوراً في الواقع أن أجمع أموالاً لا بأس بها دون أن أضر بمصالحك ضرراً مذكوراً. لم أفعل هذا إلا لأن في نفسي شيئاً كان يحول دون قيام بهذا الدور المزدوج، بل أنت نفسك تعرف ما هي المناسبات التي كان يتيسر لي فيها أن أغتني ببيع أسرار خطيرة إلى أعدائك.. ولو فعلت فهل تدري أين يكون موقفك الآن ؟ لم يكن لافين هو الذي أنقذك من هذا المصير. بل هو الشيء الذي أوقف لافين عن خيانتك والغدر بك. هو الشرف. إني أقسمت بشرفي فيما يختص بهذه الرسالة.. وإذا لم أبر بهذا القسم فلا أكون لافين، بل مجرد جاسوس عادي لا قيمة له عندك يا سيدي هذا كل ما أريد أن أقول.

كان سارتين بفهم معنى الشرف على أنه صفة خاصة مقصورة على من هم في طبقه.. بل إن تحديد هذه الصفة كان في عرفه قابلاً للتأويل وفقاً للظروف ومقتضيات الأحوال.. فجاءه الآن لافين يقرر له حقيقة كانت غائبة عنه، وهي أن بين طبقات الشعب من يفهمون معني الشرف تمام الفهم ويبذلون كل شيء في سبيله.

لم يملك سارتين إلا أن ينزل على حكم الأمر الواقع. وكان فوق ذلك مطمئناً إلى أن لافين إذ يستخدم هذه الرسالة لحماية روشفور، فسيستخدمها كذلك في حماية سارتين نفسه.

ولذلك أعاد الرسالة إلى لافين قائلاً:

- أصبت فيما تقول.. ها هي الرسالة.. إني واثق أنك تستخدمها في حماية مسيو دي روشفور، وفي المحافظة على مصلحتي عند الإقتضاء، أي على مصلحة الدولة بالطبع.

فقال لافين وهو ينهض: شكراً لك يا سيدي.. والآن لابد من البحث عن مسيو دي روشفور إذا أمكن. وإن كنت أعتقد أني لن أهتدي إليه قبل موعد الحفلة.

الفصل السابع

ما كاد لافين ينصرف من إدارة البوليس حتى قصد رأساً إلى شارع سان دومنيك حيث كان يأمل أن يستفسر عن مكان وجود روشفور من جافوت..

قرع لافين جرس باب المنزل الذي تقيم فيه كامي فونتراي فأدخله البواب.. وفيما هو يسأله عما إذا كانت جافوت موجودة رأى الفتاة نفسها مرتدية ملابسها على أهبة الخروج.. وقالت جافوت حينما شاهدته..

- من الغريب يا سيدي مجيئك في هذا الوقت.. فإنك ما كنت تجدني هنا لو تأخرت بضع دقائق.. إني راحلة..

- راحلة؟!

- نعم يا سيدي.. وأنا الآن ذاهبة لإستدعاء مركبة لنقل متاعي إلى غرفة إستأجرتها بشارع جيست قريباً من هنا.

رافق لافين الفتاة إلى الشارع وسألها:

- ولماذا ترحلين؟ هل تشاجرت مع سيدتك؟

- لا يا سيدي.. بل هي التي تشاجرت معي..

فقال لافين: هذه مسائل عادية مألوفة.. جئت لأسألك عما إذا كنت تعرفين شيئاً عن مقر مسيو دي روشفور في الوقت الحالي..

- لا يا سيدي، لا أعرف شيئاً.. ومن الغريب أن المشاجرة التي جرت بيني وبين الآنسة فونتراي كانت بسبب مسيو دي روشفور.

- آه!.. هذا عجيب في الواقع.. أخبريني بما حدث..

- هذا ما حدث يا سيدي.. في الليلة التي إختلف فيها مسيو دي روشفور مع مسيو دي شوازيل جاء إلى هنا لمقابلة الآنسة فونتراي ولما لم يجدها سألني أن آويه بقية الليل، فأعطيته غرفتي وذهبت إلى غرفة سيدتي.. والظاهر أن البواب تكلم عن هذه المسألة. فإن الآنسة فونتراي سألتني أمس عما كنت أقصد بإيوائي رجلاً هنا في الليل.. غضبت من هذا السؤال الجارح، وقبل أن أجيبها زارها رجلان هما مسيو دي باري والكونت كاميس..

كان الكونت كاميس هو الرجل الذي إعتدى علي في تلك الليلة وأنقذني منه مسيو دي روشفور، ولما إنصرف الرجلان قلت للآنسة فونتراي: «أني أفضل إيواء رجل شريف في المنزل على أن أسمح لمجرم بتقبيل يدي».. ولما سألتني عن معنى كلامي أخبرتها بما حدث وقررت لها أن مسيو دي روشفور لطم الكونت كاميس على وجهه..

إحتقن وجهها حينما سمعت مني هذا الكلام، وأدركت الحقيقة على الفور يا سيدي، فإنها تحب الكونت كاميس.. وقد إشتد غضبي لإتهامها إياي على النحو الذي وصفته لك حتى أني طرحت أسباب الحكمة والتبصر

وقلت لها: «من السهل أن يرى الإنسان حقيقة عواطفك نحو هذا الرجل.. أما أنا.. فإني وإن كنت فتاة بائسة، أفضل أن أختار عاشقاً شريفاً ولا أختار كلباً حقيراً يعتدي على النساء في الطرقات ويفر كالجبان حينما يلطم على وجهه».

- وماذا قالت حينما سمعت منك هذا الكلام؟.

- ضربتني.. والواقع أنها مدلهة بهذا الرجل المرعب ولا أدري ماذا تجد فيه حتى تفتن به على هذا النحو؟

- لا أدري.. لكنها تسير في طريق خطر.. فإن مدام كاميس إذا توفيت وتزوجت سيدتك السابقة هذا الرجل، فستكون تحت سيطرة إنسان شديد الخطر.. والآن أصغي إلي يا آنسة جافوت.. إن تلك الرسالة التي أعطيتني إياها لا تزال معي.. وأرجو أن أنتفع بها في خدمة مسيو دي روشفور.. ما هو رقم المنزل الذي ستقطنين فيه بشارع جيساك؟

- رقم 2 يا سيدي.

- حسناً.. يهمني جداً معرفة هذا العنوان، فقد أحتاج إليك هذه الليلة،ولذلك أرجو أن تبقى في المنزل..

- سأبقى يا سيدي.. ومسيو دي روشفور.

إبتسم لافين وأجاب: إطمئني.. هو في خطر شديد لكني أرجو إنقاذه..

- في خطر!

- نعم.. لكني أرجو إنقاذه كما قلت لك.. هو في باريس في الوقت الحالي، وإن كنت لا أعلم مقره، غير أني سأراه في هذه الليلة.

فقالت جافوت: لن أطمئن حتى أعلم أنه بخير.

- هل تهتمين به إلى هذا الحد؟

- أواه يا سيدي.. بل إني أهتم به أكثر مما تتصور.

ترك لافين الفتاة وإنصرف وهو يقول لنفسه: هذه فتاة مخلصة. كم أود أن يفطن مسيو دي روشفور إلى معرفة هذا الحب الصادق الذي تكنه له هذه الفتاة.. وما المانع؟ أن الكونتس دي باري نفسها كانت بائعة في أحد الحوانيت ولم تكن تملك أكثر من محياً جميل.. أما في هذه المناسبة فالإخلاص متوفر إلى جانب هذا الجمال.

طرح لافين موضوع جافوت من ذهنه وقصر إهتمامه على الحوادث التي يتوقع حدوثها في حفلة الدوق دي شوازيل هذه الليلة.. فإن على هذه الحوادث تتوقف سلامة مركز سارتين، وحرية روشفور، وحياة كاميس، ومستقبل كامي فونتراي، وحب جافوت، ومنصب شوازيل كرئيس للوزراء.

الفصل الثامن

كان على الدوق دي شوازيل لكي يحافظ على منصبه كرئيس للوزراء أن يلعب دوراً دقيقاً مزدوجاً.. وكانت حياته صراعاً متصلاً للدفاع عن نفوذه وسلطانه.. على أن هذا الدور كان يقتضيه أن يتوسل بالخداع والمكر والحيلة وأن يتظاهر بغير ما يشعر، فهو يدفع عن نفسه طعنات الخناجر التي قد توجه إليه وهو يبتسم، وهو يقبل إيديا بمقت صاحباتها كل المقت، وهو يضحك في الوقت الذي يتلقى فيه ضربة تزلزل غيره حتى لا تشمت فيه أعداؤه..

ومع أن هذا الرجل كانت له نزواته ومساوئه الخاصة، ولم يكن يستنكف أحياناً أن يستخدم أحط الأسلحة للوصول إلى أغراضه ويوجه ضرباته أحياناً أخرى بقسوة ووحشية، إلا أنه كان مع ذلك رجلاً عظيماً، بل كان أكثر إنسانية وتشيعاً للحرية ممن عاصروه من الرجال.

وقف شوازيل يستقبل ضيوفه في هذه الليلة بإطمئنان وسكون دون أن يبدو على وجهه شيء من آثار الهزيمة التي لحقته بنجاح دي باري منذ أقل من أسبوع.

وكان دي سارتين في أوائل الحاضرين.. فهو مضطر بحكم منصبه إلى المحافظة على سلامة رئيس الوزراء من إعتداء المعتدين.. كان كثيرين من رجاله مندسين بين خدم شوازيل دون أن يفطن إليهم أحد.. كما حضر لافين نفسه

وأخذ يراقب كل شيء وهو لا يكاد يلتفت إليه أحد.

تقدم سارتين في غمار المدعوين إلى الصالون الكبير حيث كانت الدوقة دي شوازيل تستقبل الحاضرين، وما كاد سارتين يحييها ويبتعد حتى حاصره مسيو دي ديراس العليم بأحوال الناس والمتطوع لإذاعة مختلف الأنباء، وأخذ يجاذبه أطراف الأحاديث عن مختلف الشئون.

وما لبث سارتين أن لمح طائفة من المدعوين مكونة من كاميس وزوجته وكامي فونتراي وشون وجان دي باري.. وكان الجميع يتبادلون الحديث ويضحكون.. وبدرت من مدام كامي عبارة إنحنى على أثرها كاميس أمام زوجته وقبل أناملها، بينما ضحك الجميع.

قال سارتين مخاطباً رفيقه: ما أوفى هذا الزوج؟ ومع ذلك فإني كنت أراقب هذه الطائفة منذ حضورها.. فرأيت هذا الزوج الوفي يدس في يد كامي فونتراي ورقة تناولتها منه دون أن تفطن زوجته لذلك..

فقال ديراس: لكن لا يمكن أن تأمل هذه الفتاة في شيء، فإن مدام كاميس برغم عوجها في صحة جيدة.

فقال سارتين: ليست هذه الفتاة يا عزيزي ممن يتعلقن بالآمال.. إذا كانت تهتم بكاميس وهو ما أعتقده، فهي لن تتردد في الإرتماء على قدميه لأول إشارة منه. هي فتاة من النوع الذي يرفض رجلاً شريفاً ومع ذلك لا يستنكف أن

يتمرغ في الرغام.. لقد رفضت رجلاً شريفاً مثل روشفور، ورحبت بالأفعى الرقطاء، أعني كاميس..

فقال ديراس: ألم تسمع شيئاً عن روشفور؟

فأجاب سارتين وهو ينتفض: لا.. هل سمعت عنه؟

- نعم.. هو الآن في ألمانيا.. سمعت من مصدر موثوق به أنه نجح في الإفلات من الحدود وذهب إلى ألمانيا.

- أخطأت يا عزيزي.. إن روشفور في باريس. وها هو ذا بلحمه ودمه.

لم يكد سارتين يتم جملته حتى نادى الحاجب: الفيكونت دي كارت. الكونت دي روشفور..

لو أن زلزالاً قوياً حدث في هذه اللحظة ما رجع شوازيل كما وجه سماع إسم في روشفور.. لكن الرجل كان حديدي الأعصاب.. وقد تغلب على شعوره بسرعة البرق ولم يبد على ملامحه شيء يتم عما يجيش في نفسه..

تقدم روشفور مع صديقه طلق المحيا باش الوجه، مرتدياً أحد أثواب كارت الذي قضى أحد الخياطين نصف يوم يعالجه حتى طابق أقوام روشفور: وإنحنى محيياً الذوق دي شوازيل وعقيلته.

إستقبل شوازيل روشفور بتحية مؤدبة كأنهما إفترقا صديقين منذ بضع ساعات، وكأن شوازيل لم يصدر أمراً

بإعتقال روشفور ومطاردته في كافة أنحاء فرنسا..

كان شوازيل يضحي بكل شيء ويدوس على كل إعتبار إلا أن تقع فضيحة بين جدران بيته. وخيبة هذا البرود ظن روشفور فقد كان يأمل أن ينفجر شوازيل ويصخب، فيمهد بذلك السبيل للكلام ويهيء الجو للتفاهم المطلوب.. على أن روشفور تمالك نفسه وتحول عن مضيفيه وراح يجيل نظره بهدوء في المدعوين القريبين منه..

لم يكن بين المدعوين إلا من تملكته الدهشة لحضور روشفور.. على أنهم مع ذلك أخفوا شعورهم ورأوا أنه لابد أن يكون روشفور قد سوى موقفه مع شوازيل على وجه من الوجوه، وإن شوازيل دعاه إلى حفلته..

على أن كاميس كان أشد الحاضرين دهشة، وإذا كان كتم إحساسه بدوره فإنه إلتفت إلى الفيكونت جان دي باري ونظر إليه نظرة كأنما يلتمس عنده تفسير الموقف.

كان سارتين وحده بين الجميع هو العليم بحقيقة الموقف.. وكان واثقاً أن روشفور لابد أن يأتي إليه ويحادثه..

ولو كانت الأمور تسير وفق ما يشتهيه سارتين لألقي القبض على روشفور في الحال.. لكنه كان موقناً أن خطوة كهذه تؤدي إلى وقوع روشفور في قبضة رجال شوازيل، حيث يضحي بأسرة دي باري على أن يحتمل

العذاب من أجلهم.. بل إن هذه الحقيقة كانت ظاهرة في هذا الوقت على ملامح روشفور، فإنه مر بقرب فونتراي وشون وجان دي باري وكاميس وألقى عليهم نظرة بتجلى فيها الحقد والإزدراء.. ولم يبخل هؤلاء بل ردوا تحيته بمثلها.

وما إن وصل روشفور إلى ناحية سارتين حتى هتف وقد تمالك عواطفه:

- آه!. سارتين! هأنت ذا ترى أني وفيت بوعدي.. كيف حالك هذه الليلة؟

جذبه سارتين من ذراعه وإنتحى به ناحية وقال له:

- صه يا صديقي! لا أدري ما الذي دفعك إلى هذا العمل الجنوني.. لكن تذكر شيئاً واحداً وهو أني صديقك.. أنت لم تبر بوعدك لي.. ولم يكن يسعني إلا أن أتلقى رسالتك.. ولو كان يمكنني الإتصال بك لكنت أول من يحذرك من الإقدام على ما فعلت الآن.

فأجاب روشفور: تعلم أني لم أقبل تحذيراً من أحد في حياتي.. أو على الأقل قبلت مرة واحدة حينما رضيت كالأعمى أن أقاد إلى غرفة ضيقة في سجنكم العتيق بناء على مشورتك، بدل أن أواجه شوازيل مواجهة الرجال.

- تواجه شوازيل مواجهة الرجال! وما الذي تتوقعه من ذلك؟

- أتوقع منه أن يصغي إلى صوت العقل ويستمع إلى قصتي التي كان يمكن أن أقصها عليه من قبل لولا أنه حاول إعتقالي حينما كنت أهم بالذهاب إلى باريس للمحافظة على موعد، ثم يتركني حراً...

- أنت لا تعرف شوازيل..

- عفواً.. لكني أعتقد أني أعرفه.. هو رجل شريف.. وهو يعلم أني رجل شريف، وسوف يصدق كلامي..

- إن شوازيل سيأمر بإعتقالك حالما تخرج من بيته.. وما كان يتردد في إعتقالك الآن لولا أنه يكره أن يثير فضيحة في داره.

- سأشرح له الآن كل شيء..

- أين؟..

- هنا...

- وكيف تهيء لنفسك فرصة الإجتماع به؟

- لابد أن تتولى أنت هذه المهمة.

- أنا !

- نعم. أنت الشخص الوحيد الذي يمكنه ذلك... إذهب إليه وقل له: «أن روشفور يريد أن يحادثك في مسألة على جانب كبير من الأهمية، وقد قرر لي أنه لم يجيء إلى هنا

هذه الليلة كضيفك. بل كرجل شريف كان ضحية الكذبة وسوء الفهم، وهو يرغب أن يطرح قضيته أمام أكبر مقام في فرنسا بعد جلالة الملك»..

فقال سارتين: هذا مجرد كلام.. وسوف يجمع هذه الكلمات ثم يلقيها في وجهك..

- لن يفعل.. إن شوازيل رجل شريف وسوف يستمع إلي.

- نعم! يستمع إليك! ما أراك إلا كالطفل وأنت تكثر من ترديد كلمة (رجل شريف) على أنك لم تخسر كل شيء.. كانت معك رسالة من شوازيل..

- معي أنا؟

- نعم... وقد أخذتها من حقيبة مراسلات كانت موضوعة في سرج جواد..

- آه.. تذكرت..

- حسناً.. إن هذه الرسالة في جيبي.

- كيف إستوليت عليها؟

- إنك أعطيتها ببلاهة إلى فتاة لإعادتها إلى شوازيل، لكن الفتاة التي كانت تهتم بك كما يظهر فتحت الرسالة وطالعتها. فرأت فيها إعترافاً بالمؤامرة التي دبرها شوازيل ضد دي باري، وتعريضاً بشخص الملك. ويمكنك أن تنجو

من شوازيل بهذه الرسالة.. ومن الجلي أن شوازيل يعلم بضياع الرسالة من حقبة المراسلات، لكني أرتاب فيما إذا كان يظن أنك أنت الذي إستوليت عليها، لإعتقاده بأنه لو صح هذا فإنك ما كنت تتردد في إستخدامها ضده قبل هذا الوقت..

- وكيف وصلت هذه الرسالة إلى يدك؟

- إن الفتاة أعطتها إلى مساعدي لافين بعد أن وعدها أن نستخدمها لحمايتك فقط.. ولولا أن بين رجالي في إدارة البوليس من يقدسون الشرف لوضعت هذه الرسالة منذ زمن أمام أنظار جلالة الملك لمصلحة الدولة.. ولما علم لافين هذه الليلة بأنك ستأتي إلى هنا أعطانيها لكي أعطيها لك..

- أعطني الرسالة إذن..

- تعال معي إلى البهو.

تقدم سارتين روشفور بين ستارين إلى بهو مجاور للصالون حيث كانت المرطبات تعد للمدعوين، وأعطاه الرسالة خلسة، فدسها روشفور بسرعة في جيبه... وقال:

- شكراً لك.. ستسهل هذه الرسالة مهمتي.. والآن أطلب من شوازيل أن يأذن لي بمقابلته..

سار الإثنان في غمار المدعوين الذين إنتشروا في أرجاء البهو حيث أعد لهم (بوفيه) حافل ووضعت موائد

متجاورة... وإنتظر روشفور بينما تقدم سارتين إلى ناحية شوازيل.

الفصل التاسع

رأى روشفور الرجلين يتقدمان إلى باب في الجهة اليسرى من الصالون، وضع شوازيل يده على المقبض وأومأ برأسه إيماءة خفيفة إلى صاحبه ودخل إلى الغرفة، بينما عاد سارتين مسرعاً إلى روشفور وقال له:

- تمت الموافقة على المقابلة التي إلتمستها.. تذكر أن الرسالة التي معك تحول دون ضياعك.. وأنك إذا وقعت بين يدي شوازيل، فإن العواقب ستكون وخيمة ضدنا...

ـ لا تكثر من الإرشادات يا صاحبي، فإني سأعالج هذه المسألة بطريقتي الخاصة.

تقدم روشفور وسارتين في ممشى أفضي بهما إلى غرفة بابها مفتوح قليلاً.. فطرق روشفور الباب ودلف إلى الداخل يتبعه سارتين.. كانت الشرفة صغيرة الحجم أنيقة الأثاث، ووقف شوازيل قرب الموقد واضعاً يديه خلف ظهره وظهرت عليه علائم التفكير... بينما أغلق سارتين الباب ووقف إلى اليمين... ثم أخرج من جيبه علبة السعوط وتنشق منها.. وقال:

ـ حسناً يا مسيو دي روشفور.. هل ترغب في التحدث إلي؟

- نعم يا سيدي.. أحب أن أفسر موقفي.. منذ بضعة أيام، وفي قصر جلالة الملك بفرساي، رأيتم أن تصدروا

أمراً بإعتقالي، وقد قاومت هذا الأمر يا سيدي، لا لإعتقادي بأني لم أفعل شيئاً يؤاخذ عليه، بل لأني كنت أنوي الذهاب إلى باريس في شأن هام، ولم أحب أن يعوقني شيء عن الذهاب إلى غايتي.

ـ آه.. أحقاً؟.. وهل جئت إلى هنا لكي تقرر لي أنك عصيت أمراً من أوامر الدولة لأنك كنت تنوي الذهاب إلى باريس ولم تحب أن يعوقك شيء عن الذهاب إلى غايتك!

- بل جئت يا سيدي لكي أقرر لك الحقيقة المطلقة.. نعم.. إني عصيت أمراً من أوامر الدولة لأسباب لم تكن كلها شخصية.. كان علي أن أقابل سيدة..

ـ لا أحب أن أتدخل في مسائلك الشخصية.. هل لديك ما تقوله غير هذا؟

- نعم يا سيدي.. إضطررت لكي أهرب أن أمتطي جواداً كان واقفاً ينتظر أمام القصر.. ووصلت به إلى باريس.. على أني عثرت في حقيبة المراسلات الملحقة بالجواد على رسالة صادرة هناك إلى إحدى السيدات.. إني نسيت إسمها.. لا أحب أن أتدخل في مسائلك الشخصية.

- وجدت رسالة مني!

- نعم يا سيدي.. وقد عهدت بها إلى خادم مخلص لحملها إلى العنوان المبين عليها.. لكن هذا الشخص إستصوب أن

يفتح الرسالة، وهو عمل مذموم في الواقع، لكن يلتمس لصاحبة العذر لقصور مداركه، وتلهفه لخدمتي..ثم أعيدت إلي الرسالة على إعتقادي أني قد أنتفع بمحتوياتها..والآن يا سيدي الدوق، ستقرر أني نفرت نفوراً تاماً من الإنتفاع بالرسالة، بل لم أطالعها بتاتاً.. وهي الآن في جيبي كاملة، ولي الشرف أن أعيدها إليك..

رأى سارتين وهو جازع روشفور يخرج الرسالة من جيبه ويقدمها إلى شوازيل.. فتناولها الوزير وألقى نظرة على محتوياتها ثم وضعها على قاعدة الموقد كأنها شيء هين لا قيمة له.. بينما إستطرد روشفور:

- ليس لي ما أقوله يا سيدي سوى أني بعد أن ذهبت إلى باريس، قلت لنفسي: «إن مسيو شوازيل ضدي، وخير لي أن أهرب من وجهه، أو على الأقل أختفي حتى تهدأ العاصفة».. كانت هذه الخطة في الواقع تدل على الغباء وقصر النظر، أما الآن يا سيدي، فهل تتفضل ببيان التهمة الموجهة ضدي ؟

ـ أنت متهم بإغتيال رجل في شوارع باريس في نفس الليلة التي كنت هنا ضيفاً عندي..

- هذه التهمة صحيحة يا سيدي.. لكن مبلغك لم ينقل إليك كل شيء. حينما كنت راجعاً من قصرك مع الكونت كاميس أنقذت إمرأة من أيدي رجلين كانا يحاولان الإعتداء عليها، ولما طاردت أحدهما هاجمني

فقتلته. ولم أكد أعود حتى رأيت الكونت كاميس يهاجم المرأة المسكينة التي أنقذتها من الإعتداء.. فلطمته على وجهه وأوقعته على الأرض..

ـ ما هذا الذي تقول؟

ـ هذه هي الحقيقة يا سيدي.

كان لافين قد عهد إلى فالون، أن يراقب كاميس وأن يرصد كل حركاته وسكناته.. ووقف لافين نفسه دون أن يلتفت إليه أحد يراقب المدعوين وهم ينتقلون إلى القصر. فرأى فالون يغادر المقصف ويأتي إليه مسرعاً، فسأله لافين:

- حسناً.. هل من جديد؟

- هو جالس حول مائدة صغيرة مع زوجته والآنسة فونتراي والفيكونت دي باري.

- نعم.. نعم..

- إنه تناول الآن تفاحة من أحد أطباق الفاكهة الذي قدمه إليه خادم، وأخرج من جيبه مدية كالتي وصفتها. وشطر بها التفاحة. وناول أحد شطري التفاحة إلى مدام كاميس وزوجته.

- نعم.. وأكل الشطر الثاني

- لا يا سيدي.. قدم الشطر الثاني في طبقه الخاص إلى

الآنسة فونتراي..

- هل أكلته؟

- نعم يا سيدي أكلته وهي تتطلع أثناء ذلك إلى الكونت كاميس باسمة.. وأقرر لك يا سيدي أني إستخلصت من هيئتها أنها تميل إلى الكونت..

لم يسمع إلا الجملة الأخيرة.. فقد ذعر من هذه البيانات، وخيل إليه أن يداً خفية تدخلت فجأة وقلبت كل شيء رأساً على عقب في صدد هذه المسألة التي تتصل بالموت والحياة، وكالت لكامي فونتراي بالكيل الذي كان يجب أن يكال به للكونت كاميس. وإبتعد عنه فالون وأسرع إلى المقصف ودخل.. ولما كان مرتدياً سترة سوداء لم يلتفت إليه أحد، ومن رآه حسبه من رؤساء الخدم جاء للإشراف على راحة المدعوين. ومر بالمائدة التي جلس حولها فريق دي باري.. حيث كانت كامي فونتراي جالسة في مواجهة كاميس تتحدث وتضحك وقد بدت رائعة الجمال. وألقى على المكان نظرة شاملة كأنما يلتمس حلاً للموقف، وما لبث أن أسمع إلى الباب الذي رأى سارتين وروشفور يدخلان منه في أثر شوازيل، وما كاد يصل إليه حتى طرقه بيده.

وقف شوازيل لحظة لا يتكلم، ثم قال أخيراً:

- أنت تتهم مسيو كاميس بالإعتداء على تلك الفتاة..

وتريد أن تضيف إلى ذلك إعتقاد بأن إتهامه إياك راجع إلى غضبه عليك بسبب اللطمة التي كلتها له..

ـ لم أكن أعرف أن التهمة الموجهة إلي مصدرها كاميس.. أما وقد قررت الآن ذلك، فإني أؤكد أن هذا الإتهام مرجعه إلى الحقد..

ـ حسناً.. إني سمعت أقوالك، وقد أثارت إهتمامي لكني قائم هنا لإجراء العدالة، ولذلك لابد لي من سماع أقوال الكونت كاميس، سأدعوه لكي تواجهه.

ـ إفعل يا سيدي.. والآن أرجو أن تستمع لكلمتي الأخيرة...إني تورطت في السياسة غير عامد، وقد ناهضتك وعملت ضدك لا لحقد في نفسي عليك، بل لأن الحزب الذي حالفته مؤقتاً كان يناوئك، إن رجائي عندك أن تنسى كل هذا وأن تصفح عن خصم تمتليء نفسه الآن بالولاء لك، إذا تبين لك كذب أقوال كاميس وصدق كلامي. إني أريد أن أنعم بحياتي، لا أريد أن أذهب إلى سجن الباستيل بسبب غضبك علي، ولا أريد أن أشنق لقتلي رجلاً حاول أن يقضي على حياتي...سيدي الدوق.. يحق لي أن ألتمس صفحك الشامل إذا إرتأيت أني تصرفت تصرف الرجل الشريف... ويحدوني إلى إلتماس الصفح عاملان: الأولى أني خلصت باريس من وغد شرير قضيت عليه بسيفي.. والثاني إعترافي بغباوتي لربط حياتى بحظ أسرة دي باري الملعونة.

حول شوازيل رأسه ليخفى إبتسامة يسيرة حينما سمع هذا الكلام. ثم مد يده وقرع جرساً بجانبه وتناول الرسالة الموضوعة على قاعدة الموقد بحركة عرضية مجردة من الإهتمام.. ووضعها في جيبه..فهم سارتين من الدلائل التي لمحها على وجه شوازيل أن روشفور قد نجا، إلا إذا إستطاع كاميس بحيلة جديدة أن يعكس الموقف.. فإن كل شيء كان يتوقف الآن على ما يقوله هذا الرجل أو يفعله..وفيما كان سارتين يتناول شيئاً من السعوط طرق لافين الباب، ودخل وهو ممتقع الوجه، وخاطب سارتين دون أن يلتفت إلى الآخرين:

- سيدي.. إستدع مسيو كاميس في الحال.. إن الآنسة فونتراي تناولت السم.. قد يعرف قرباناً ضد هذا السم،لكن لابد من إرغامه على الإعتراف بذلك.

- يا إلهى!. هل كان السم من نصيبها بدل زوجته؟

- نعم يا سيدي! إستدعه بسرعة!

ـ سأحضره بنفسي..

- ما هذا الذي تقول؟ سم يدس في بيتى.؟ تكلم!

ـ سيدي.. إن الكونت كاميس دس السم على مائدة العشاء.. في بيتك. وكان ينوي قتل زوجته. إني راقبته من قبل. هو الذي قتل أتلانتا كلب الملك بسم كان أعده لزوجته.. وتناوله الكلب عفواً. كان يجب علي أن أقبض

عليه اليوم. لكن الأدلة ضده لم تكن متوفرة.

غمغم روشفور بكلمات دلت على دهشته، كانت ملامح وجه لافين ونبرات صوته تثير الجزع. ومع أن شوازيل تملكته الحيرة ولم يفهم كل ما حدث، ووقف في مكانه ينتظر عودة سارتين وقد إستولى عليه الخوف، غير أن كبرياءه كانت تحول دون التوجه بالسؤال والإستيضاح إلى موظف مرءوس له. وكانت نفسه تغلي غضباً من هذه الفضيحة التي وقعت بين جدران داره. ولم يطل الإنتظار. فقد سمع صوت أقدام في الخارج، وفتح الباب، ودخل كاميس يتبعه سارتين. لم يفهم كاميس سبب هذه الدعوى العاجلة، غير أنه كان شاحب اللون بادي الإضطراب. أغلق سارتين الباب.. وتقدم لافين إلى الأمام وقد أمسك زمام الموقف، وقال:

- هذا هو الرجل..

تغيرت هيئة لافين في لحظة وبدت عليه دلائل العنف والشراسة.. وهجم على كاميس وأمسك بخناقه كما يمسك أحد المجرمين وصاح في وجهه:

- إني أقبض عليك.. إنكشف أمرك.. دلنا على ترياق السم الذي قدمته لإمرأة منكودة.. إعترف!.. أنقذ حياتها.. فقد يمكن أن تنقذ عنقك من حبل الجلاد!

ألقى لافين نفسه على كاميس كأنما يحاول أن ينتزع سر

الترياق منه، لكنه لم يكن يلتمس سر الترياق، بل كان ينشد المدية التي عثر عليها ونزعها من جيب كاميس، وألقاها إلى سارتين. لم ينبس كاميس بكلمة، بل راح يقاوم بعنف وقد إمتقع وجهه وأخذ يلهث، وكان سكوته أبلغ دليل على جرمه.. وأدرك في هذه اللحظة أن كل شيء قد إنتهى، وأن هذا الرجل المخيف الذي لم يره من قبل، هذا الرجل الذي كمن في طريقه وهو يجهل وجوده، وقد إنقض عليه الآن كالقضاء العاجل.. هو جلاده الذي سيضع حداً لوجوده..لم تدم مقاومة كاميس سوى أقل من دقيقة.. ثم إنطرح على الأرض وأخذ لافين يقيد معصميه بالقيود التي يحملها دائماً في جيبه. فلما فرغ من ذلك نهض في هدوء وإلتفت إلى سارتين قائلاً:

- هل أذهب به يا سيدي؟

فقال سارتين: لكن الترياق

فأجاب لافين: لا يوجد ترياق يا سيدي.. وإلا لإعترف لكي ينقذ حياته.

وألقى لافين نظرة على كاميس.. ولم يتحرك شوازيل أثناء ذلك أو يتكلم.. فقد إمتلأت نفسه غضباً لماحدث.. ولم يهتم بمن ذهب ضحية السم بقدر إهتمامه بإبعاد شبح الفضيحة عن بيته.. وعالج الكلام أخيرا فإنفجر مخاطباً سارتين وهو يلقي نظرة على كاميس:

- أبعد هذا الكلب عني. أخرجه من الباب المؤدي إلى المطبخ.. إذهب أولاً يا سارتين وأبعد الخدم عن فناء المنزل حيث تستدعي مركبة لحمله.. ثم إنقله فوراً إلى سجن الباستيل.. مسيو دي روشفور.. أرجو أن تساعدهم في هذا الشأن.. إن الخلاف قد سوي بيننا. إذهب بسلام وتجنب الإندماج في مشاكل السياسية.. والآن إفعلوا ما أشير به.. لا أريد كلمةً واحدةً عن هذا الموضوع الذي يتنافى وسمعتنا.. نحن ندس السم في الخفاء كما يظهر. لا بأس.. سننزل العقاب في الخفاء كذلك.

فقال سارتين وهو مبتهج لإنتهاء مشكلة روشفور على خير الوجوه:

- سأفعل يا سيدى وفقاً لما أشرت به. إفتح الباب يالافين وساعدني في حمل هذا الرجل.

فتح لافين الباب وحمل كلاهما كاميس الذي لم ينبس بكلمة واحدة من أول الموقف حتى آخره.. وتبعهما روشفور إلى الخارج.. ولما وصل إلى الباب إنحنى أمام شوازيل، وخرج روشفور وأغلق الباب خلفه. وما كاد شوازيل يصير وحده حتى أخرج الرسالة من جيبه وعاود تلاوتها، ثم أضرم فيها النار وألقاها في الموقد ووطيء الرماد بقدمه.. وغادر الغرفة وعاد إلى الصالون. وكان بعض المدعوين يتأهبون للإنصراف وفي جملتهم فريق دي باري فقال جان مخاطباً الدوق:

- كنا نبحث عن مسيو كاميس.. لكن يظهر أنه اختفى..

ـ لقد رأيته في أول السهرة.. لكني لم أره بعد ذلك..

ـ جاء سارتين وسار معه.

ـ إذن ربما إنصرف مع سارتين.. أراك الآن مصطحباً الآنسة فونتراي ونحن مانزال في أول السهرة.. آه يا آنسة فونتراي.. أنت تنصرفين حاملة معك ما خلعته من البهاء على بيتي المتواضع، تاركةً خلفك حسد أزهار باريس اليانعة التي كسفها بهاء زهرة المارتينيك..

وإنحنى شوازيل إلى الفتاة الضاحكة وإلى سون دي باري، ثم قصد إلى غرفة اللعب.

الفصل العاشر

بعد مضي أيام على الحوادث السالفة جلس روشفور يفطر مع صديقه دي كارت، وتجاذبا أطراف الحديث في شئون مختلفة، ثم قال روشفور ضاحكاً رداً على ملاحظة لصديقه:

- تذكرت.. أني سأغادر باريس.

- تغادر باريس؟ ولأي مدة؟

- لأجل غير محدود.. إني كنت دائماً أعشق الحياة الريفية الهادئة في أملاكي بعيداً عن مشاكل السياسة ودسائسها، حيث يفهمني أهل هذه المناطق السذج وأفهمهم.إني أمقت السياسة وأهلها، وكان إتصالي بها في الأيام الماضية من قبيل الصدفة.. وإلا لكان مصيري مثل كاميس الذي حدثتك عن نهايته، أو كامي فونتراي المسكينة.. أعود إلى موضوع كلامي.. سأغادر باريس لسبب آخر سأفضي به إليك أنت أعز أصدقائي.. أنا عاشقٌ يا صديقي، ولا يمكن أن تقيم الفتاة التي سأتزوجها.. في باريس.

- وما المانع؟

- لأنها فتاة من عامة الشعب.. منحها الله قلباً من ذهب ونفساً صافية صفاء الطفل البريء، وإخلاصاً في الحب يجل عن الوصف والبيان. لأنها طفلة ساذجة وستظل

هكذا حتى تموت.. وهذه صفات لا تجد لها صدى في باريس.. أما في الأرياف، فإن الكونتس دي روشفور، ستترعرع وتعيش في الهواء النقي الذي تينع فيه الأزهار، ستكون موضع الرعاية والإجلال من قوم يقدرون معدن النفوس، حتى إذا هرم الكونت دي روشفور أتيح له أن يرى ذرية سليمة جديدة خالية من مساويء أرستقراطيتنا الفاسدة..